الموقع الالكتروني : www.lixus-magazine.net
البريد الالكتروني : Lixus@maroc-histoire.com

العدد التاسع عشر
دجنبر 2017م

مجلة ليكسوس
ⵜⴰⵊⵍⵍⴰ ⵏ ⵍⵉⴽⵙⵓⵙ
مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ والعلوم الإنسانية

ملف العدد:

الحرف بالمغرب والموجة الكولونيالية إبان فترة الحماية

محتويات العدد:

- المغرب الوسيط: -دور المرابطين في ربط المغرب الأقصى بإفريقيا.
- العصر الحديث: -التصوف السني في خدمة المجتمع والثقافة بالمغرب السعدي.
-المرأة بين الفاعلية والتهميش خلال العصر السعدي.
-القرصنة في المتوسط خلال الفترة الحديثة.
- تاريخ المغارب: -الشيخ محيي الدين بن مصطفى الجزائري والزاوية القادرية.
- قضايا من التراث: -المتاحف الاثنوغرافية بواحات الجنوب المغربي.
- رحلات: -منهج الكتابة التاريخية في رحلة أبو القاسم الزياني المسماة "الترجمانة الكبرى".
-رحلة الروسي كوسطانطين افيازيمسكي إلى المغرب.

المدير المسؤول: محمد أبيهي

من ثمرات المطابع

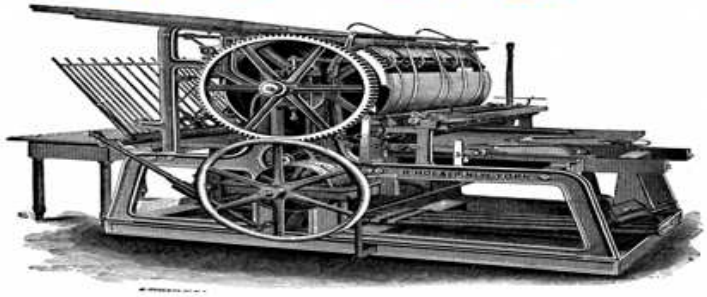

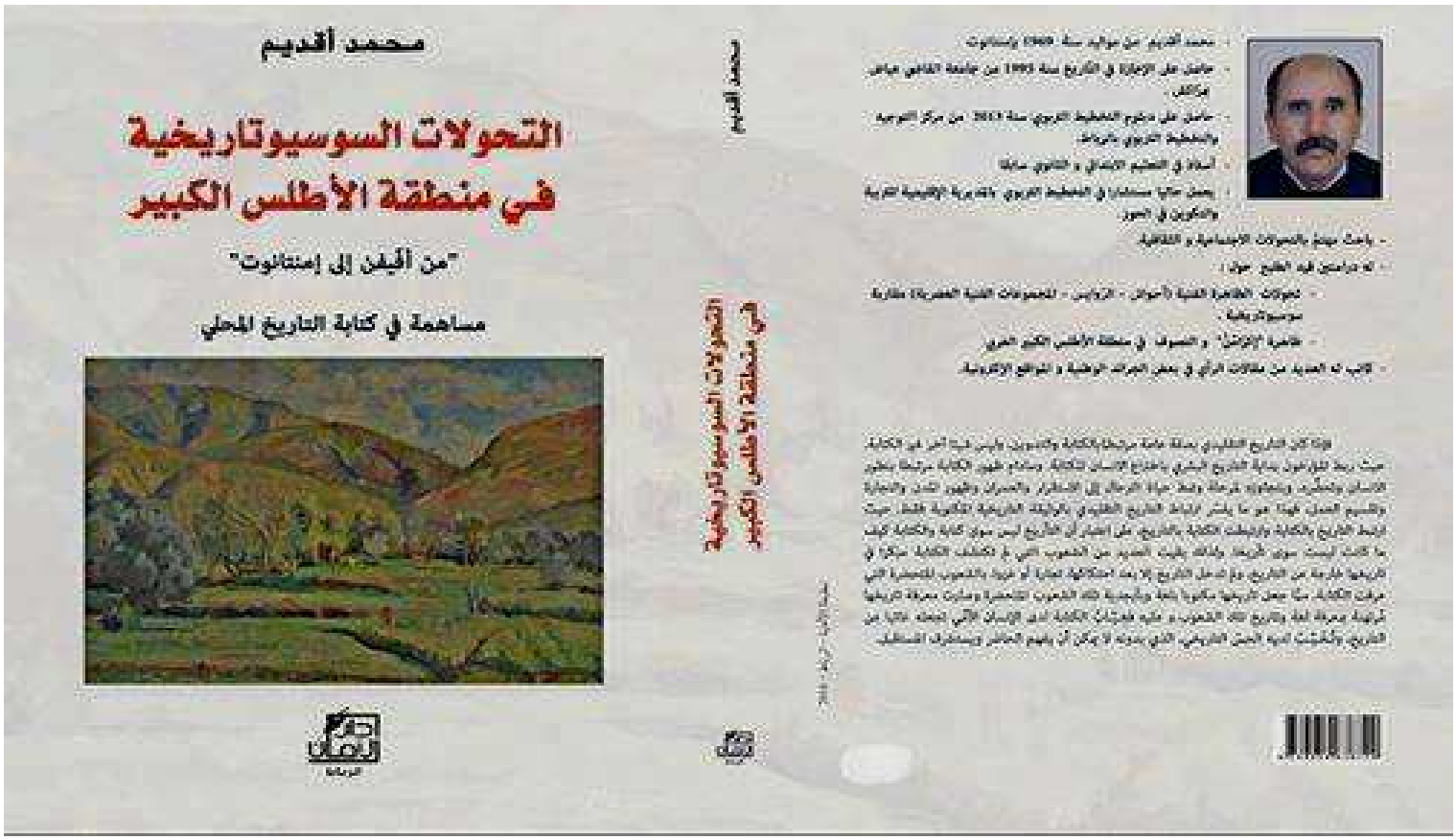

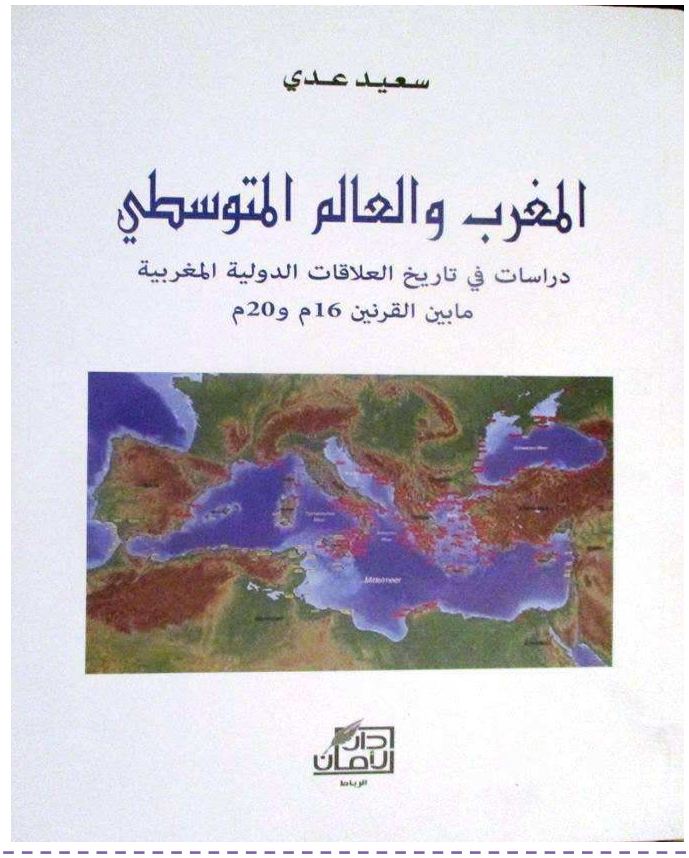

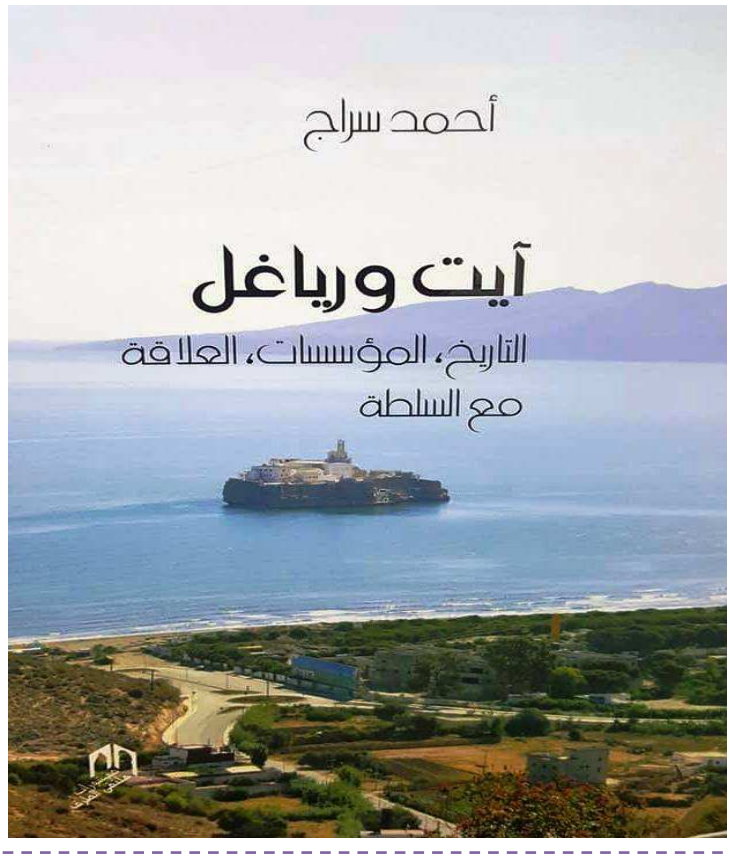

مجلة ليكسوس
Revue Lixus

الهيئة العلمية المشرفة على المجلة:

ـ دة.خذيجة الراجي
ـ أستاذة التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بشعبة التاريخ
ـ جامعة ابن زهر بأكادير ـ باحثة متخصصة في تاريخ الجنوب المغربي.
ـ عضوة هيئة التحرير ومنسقة محاور المجلة. البريد الالكتروني:khadija_rajy@yahoo.fr

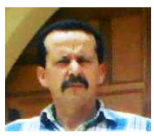

ـ د.خالد الصقلي
ـ أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس -شعبة التاريخ
ـ باحث متخصص في تاريخ المغرب.
ـ عضو هيئة التحرير. البريد الالكتروني:sqallikhalid@hotmail.com

ـ د.المرون مصطفى
ـ أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
ـ باحث متخصص في تاريخ شمال المغرب.
ـ عضو هيئة التحرير. البريد الالكتروني:mustaphaelmerroun@yahoo.es

ـ د.محمد أبيهي
- باحث في تاريخ المغرب المعاصر
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط.
ـ عضو هيئة التحرير ومدير المجلة البريد الالكتروني:lixus@maroc-histoire.com

ـ د.مصطفى الريس
ـ باحث في تاريخ المغرب المعاصر
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أبي شعيب الدكالي بالجديدة.
ـ عضو هيئة التحرير البريد الالكتروني mustapharais149@gmail.com

ـ د.خالد أوعسو
ـ باحث في تاريخ المغرب المعاصر
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط.
ـ عضو هيئة التحرير البريد الالكتروني: ouassouk@yahoo.fr

ـ د.عبد الرزاق السعيدي
- باحث في تاريخ المغرب الوسيط
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ فاس.
ـ عضو هيئة التحرير البريد الالكتروني: saidiabonihal@gmail.com

فهرس المحتويات

الموضوعات	الصفحة
■الافتتاحية:	5
■ ملف العدد –د.عبد العزيز عموري،الحرف بالمغرب والموجة الكولونيالية إبان فترة الحماية	7
■ ذ.عبد الواحد غنامي، دور المرابطين في ربط المغرب الأقصى بإفريقيا جنوب الصحراء القرنين 5و6هـ/11و12م	28
■ د.عبد القادر السوداني،القرصنة في المتوسط خلال الفترة الحديثة:الحيثيات و التداعيات.	34
■ د.خالد الصقلي، التصوف السني في خدمة المجتمع والثقافة بالمغرب السعدي نموذج:رضوان الجنوي وأحمد الشاوي	49
■ د.زين العابدين زريوح،المرأة بين الفاعلية والتهميش خلال العصر السعدي.	59
■ د.محمد بكار، الشيخ محيي الديـن بن مصطفى الجزائري والزاوية القادرية.	69
■ ذ.حمو المنصوري،رحلة الروسي كوسطانطين افيازيمسكي إلى المغرب.	81
■ رشيد صادق/حفيظ أشتكاح،إسهام في دراسة المتاحف الاثنوغرافية بواحات الجنوب المغربي.	86
■ ياسين خرشوفة،منهج الكتابة التاريخية في رحلة أبو القاسم الزياني المسماة "الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا".	104

الافتتاحية

د.محمد أبيهي
مدير مجلة ليكسوس الالكترونية

لقد بدأ هذا المولود الالكتروني بإمكانيات متواضعة لهدف رسم معالم خط تحريري، واستطاع أن يوصل إسهامات الباحثين الشباب في التاريخ على نطاق واسع، فرغم ما يقال عن هذه التجربة من كونها لا تستجيب للمعايير العلمية المتعارف عليها،ولكونها عفن فكري، فمجهودات طاقم المجلة المتكون من أساتذة جامعيين وباحثين مرموقين في التاريخ في اختيار المواضيع العلمية ذات العلاقة بتاريخ المغرب والمغارب مبني على رؤية علمية، وذلك من أجل جعل هذه المجلة الفتية مرجعا تاريخيا لطلاب العلم والباحثين في حقل الدراسات التاريخية بالمغرب وخارجه، فلقد استقبلت المجلة منذ تأسيسها المئات من المقالات العلمية، التي تناولت قضايا تاريخ المغرب والمغارب، كما تضمنت إسهامات في مناهج التاريخ والعلوم الإنسانية، وسعت من خلال ذلك الى جعل هذه المجلة منبرا للباحثين الشباب والمهتمين، وبهذه المناسبة أود أن أوجه شكري الخاص لكل المساهمين في هذه المجلة، وعلى ثقتهم في هذا المنبر العلمي.

يسعد طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية أن يضع بين يدي القارئ الكريم هذا العدد من هذه المجلة الالكترونية، وأدرجت المجلة في هذا العدد ثلة من المواضيع المختلفة، وقد أسهم في اغناء محتوياتها باحثين من المغرب وخارجه، وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس الالكترونية على كل مختلف تخصصات العلوم الانسانية، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين، وإيمانا من طاقم المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالجامعات المغربية.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة بيبلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، وذلك لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية.

وفي الختام نشكر كل من ساهم في إثراء هذا العدد من مجلة ليكسوس الالكترونية، وموعدنا سيتجدد إن شاء الله في العدد المقبل من هذا المولود الالكتروني، ليواصل إصداراته الالكترونية لتعم الفائدة جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية داخل وخارج المغرب.

تعزية

تتقدم أسرة مجلة ليكسوس الالكترونية بأحر التعازي لأسرة الفقيد المؤرخ د.عبد اللطيف الشاذلي، الذي وافته المنية يوم 16 نونبر 2017م،إنا لله وإنا اليه راجعون.

الحرف التقليدية بالمغرب والموجة الكولونيالية خلال الحماية

د.عبد العزيز العموري

أسهم الاحتلال الأجنبي للمغرب في تغيير الكثير من البنيات الاجتماعية والاقتصادية للمغرب، بفعل التأثير العميق للموجة الكولونيالية في العديد من المجالات، وتعتبر الحرف التقليدية من أهمها، إذ تأثرت بشكل كبير نتيجة تسرب مظاهر الحداثة الأوربية إلى المغرب قبل وبعد مرحلة الحماية، ويحاول الباحث د.عبد العزيز عموري في هذا الملف الخوض في هذا الموضوع، من خلال استحضار نموذج مدينة فاس، وهو اختيار نابع من أهمية هذه المدينة التاريخية، وكذلك عراقة حرفها التقليدية الضاربة في عمق التاريخ.

تقديم:

تكتسي دراسة الحرف التقليدية بفاس أهمية بالغة، إذ ستمكننا:

أولا، من التعرف إلى جزء من الأنشطة الاقتصادية التي مورست عبر ردح طويل من الزمن بمدينة فاس، ومن التعرف إلى المكانة التي احتلها الحرفيون بالنسيج المجتمعي للمدينة، وإلى فهم أدق لطبيعة العلاقة التي جمعت الحرف بمختلف الأنشطة التجارية داخل المجال الحضري لفاس، والاعتبارات التي تحكمت في توطين الأنشطة الحرفية داخل أسوار المدينة، والتي سعت مجموعة من الدراسات إلى فك ألغازها، والبحث في مقتضياتها وأسبابها.

ثانيا، تسمح كذلك بالتحقق من أطروحة الاستعمار الفرنسي القائلة بأن عقد الحماية، الذي فرض قسرا على المغرب في البدايات الأولى للقرن العشرين، ساهم في تطوير البنيات الاقتصادية للمغرب بمختلف تلاوينها إلى مصاف الاقتصاد العصري. والحال أن ما اصطلح عليه " الإصلاحات" لم تعمل سوى على اندحار فئة الحرفيين وانتقالها لمراتب متدنية ، بعدما كانت تتربع على عرش المجتمع ، بالنظر لوزنهم العددي، ودورهم في تلبية حاجيات مدينة فاس داخليا وخارجيا .

وثالثا، ستتيح لنا إمكانية الإمساك بخيط تطور الاقتصاد التقليدي ، في ظل نظام استعماري رام ومنذ اللحظات الأولى جعل مقدرات البلاد في خدمة الدولة " الحامية" . ومن الطبيعي والحالة هاته أن يتغلب الاقتصاد الدخيل على اقتصاديات المدن التقليدية المغربية، ومن ضمنها مدينة فاس، التي ظلت ولقرون طويلة قطب الرحى في النشاط الحرفي المغربي.

وعلى هذا الأساس، فإننا سنتناول في هذا البحث أربع عناصر يتعلق أولهما بمعطيات عامة عن الحرف

التقليدية وتنظيمها في المجال الحضري لمدينة فاس، ويتناول الثاني ماهية التأثير الذي أحدثته البدايات الأولى للتسرب الاستعماري على اقتصاد الحرف اليدوية وأشكال التنظيمات الحرفية التي أطرت عمل الصناع اليدويين لردح طويل من الزمن، بينما يستعرض العنصر الثالث مجمل التحولات التي شهدها قطاع الحرف بعد فرض نظام الحماية الفرنسي بشكل رسمي سنة 1912 على المغرب، وأخيرا سنتطرق في العنصر الرابع والأخير لما خلفته إجراءات إدارة الحماية الفرنسية في هذا المجال من آثار اتخذت صبغة سياسية،مست شريحة الحرفيين والصناع المغاربة، مع خاتمة أردناها أن تكون مفتوحة أمام أفق معرفي للمزيد من سبر أغوار هذا الميدان.

أولا:التنظيم المجالي للحرف التقليدية بفاس

باستقراء مكنونات كتب التاريخ، يتكشف لنا حجم الاهتمام الذي أبدته مختلف الدول والكيانات السياسية التي تعاقبت على حكم المغرب لمدينة فاس، اعتبارا لأهميتها من الناحية السياسية،وحتى على الصعيد الاقتصادي ، كانت فاس حاضرة بقوة في اهتمامات الحاكمين ، وتجسد ذلك في كثرة إنشاء الأسواق التجارية، والحوانيت، والورشات الحرفية، وتشييد " الفنادق " أو الخانات بلغة أهل المشرق، والاهتمام بشؤون الحرفيين وأوضاعهم، من خلال توفير الأمن وسلامة التجار وقوافلهم، والاعتناء بالطرق والمسالك، ومعالجة الأزمات الطبيعية، وضبط المكاييل والموازين لمحاربة الغش والتدليس، والسهر على حسن توزيعها داخل المجال. ويمكن القول أن مختلف المبادرات التي أنجزت في هذا المجال حولت فاس إلى سوق للتجار، ومحترف لأهل الصنائع والعاملين بالأنامل.

وقد أسهبت المصادر التاريخية في ذكر الشهرة التي اكتسبتها حاضرة فاسفي مجال جودة الصنائع ووفرة الإنتاج، والدور الكبير للحرف في تحريك عجلة اقتصاد المدينة ومحيطها القريب والبعيد،بالنظر لكثرة المواد الأولية من أخشاب وجلود وحرير، وباقي المواد التي استخدمت في البناء والحرف المرتبطة به[1]مسلطة الضوء عن ماهية التنظيم الذي اعتمده الحرفيون في تنظيم حرفهم، وأثر ذلك على ازدهار هذا الجانب من اقتصاد المدينة، وضمان ديمومتها، في تلبية احتياجات السكان من جهة، وحاجيات البوادي والحواضر المغربية والأسواق الأجنبية من جهة ثانية، فضلا عنالحفاظ عليها في وجه عوادي الزمن.

لكن وجب التأكيد على أن توزيع النشاط الحرفي في المدينة تحكمت فيه في الغالب معطيات الميدان الطبوغرافية، التي همت بالأساس توطين بعض الصنائع والأنشطة التجارية المرتبطة بها، وأماكن توفر المياه بالنسبة للحرف الذي تحتاجها كالدباغة، واستقرار البعض منها بالهوامش وقرب الأبواب حتى تكون قريبة من سكان البوادي الذي يلجون المدن لاقتناء احتياجاتهم اليومية [2] .

غير أن هذا التأكيد لا يعني أن تنظيم الحرف كان مطلقا دائما، بل بالعكس فإنه يمكن القول بأن معينة المدينة وعلى مر تاريخها، تسمح بالقول أن بعض الحرف كانت موزعة على أكثر من حي بالمدينة، إما لكثرة المنتسبين إليها، أو لمقاييس تتعلق بواجب الحفاظ على البيئة، كما هو الشأن بالنسبة لحرف الدباغة والفخار والأرحية كما سبق وأن أسلفنا. وهو وضع استمرت عليه المدينة وغيرها من كبريات المدن الإسلامية، رغم بعض التعديلات التي طرأت على التوزيع المعتمد بفعل تبدل الأحوال وتغير الأزمان،مما أضفى على هذه الحاضرة انسجاما وتكاملا بين أنشطة أحيائها، نتج عنه بروز نوع من التخصص في الدورة الاقتصادية لمدينة فاس، وبقاء مختلف الحرف على حالها في تعايش وتآزر تامين[3].

وهذه السياسة في التعامل مع الأنشطة الحرفية، بدأت منذ أن أخذت مدينة فاس طابع الحاضرة، وتكررت

مع مختلف الدول والكيانات التي تعاقبت على حكم المغرب، إنما المميز في الأمر أن نشاط الحرف لم يبقى بمنأى عن اهتمام مختلف الفئات النافذة في المجتمع، وخاصة فئة الفقهاء، الذين انصب نظرهم على كيفية تنظيم الأنشطة الحرفية في المجال العمراني،لارتباطها الوطيد بحياة الناس ونمط عيشهم. وغني عن البيان أن الفضاء الذي كانت تحتله الحرف لم ينفصل البتة عن باقي الأحياء التي اتخذت للسكنى والتجارة وما كان ينتج عن ذلك من منازعات بين أصحاب الدور السكنية والحرفيين.

ورغم وجود تداخل بين مختلف الأنشطة الحرفية بالمدينة، فإن بعضها لم يكن باستطاعتها الاستقرار أو الانتشار إلا بإذن من طرف أولي الأمر، ومن ضمنهم فئة الفقهاء،درئا لأي ضرر قد يحدث، كدخان الحمامات والأفران، وروائح الجلود ونتانتها، ومحلات الحدادة وما تصدره من ضجيج.[4]

وحسبما يبدو، فإن الفقهاء عملوا على معالجة النزاعات التي كانت تحدث من جراء تداخل الأحياء وتجمعات الحرفيين، إما عن طريق معالجة مصدر الضرر (حالة حرف الحمامات)، أو تسوية تتم لصالح السكان (حالة حرف الدباغة)[5].

ومن جهة أخرى، لم يقتصر تدخل ممثلي المخزن والفقهاء فقط على الحرف اليدوية، بل شمل أيضامجالات أخرى، لعل من بينها إحداث الاصطبلات داخل الدور، التي كانت تؤدي السكان بسبب حركة الدواب والروائح المنبعثة من الاصطبل، ويكفي العودة إلى كتب النوازل، التي تزخر بالعديد من الإجابات المقدمة من الفقهاء بشأن أضرار بعض الحرف التقليدية، بالإضافة إلى بعض الدراسات ذات الصلة بتنظيم المجالات الحضرية للمدن المغربية.

والواقع أن الاهتمام بالحرف التقليدية، لم يكن متروكا قط لفئة الفقهاء، بل شكل جزءا من اهتمام أوسع، وحضور قوي في مختلف سياسات الدول التي تعاقبت على حكم المغرب. وإذا استحضرنا الدور الكبير للحرف في تنشيط الدورة الاقتصادية، واحتضانها لفئات اجتماعية مختلفة المشارب، لربما أدركنا لماذا كان الحرص على احتضان الصنائع، في مدينة كفاس،ُاتخذت مركز ثقل سياسي واقتصادي وتجاري لفترة ممتدة في الزمن.

وللتدليل على ذلك، تكفي الإشارة إلى الانتعاشة التي عرفتها الدباغة، نتيجة ازدياد الطلب على الجلود المدبوغة والمصنوعات الجلدية بالداخل والخارج، ومن أثر ذلك انتشار دور الدباغة في أغلب الحواضر الكبرى كفاس وسبتة وسجلماسة ومراكش وغيرها [6]، وتعدد ورشات صناعة الزجاج بفاس أيضا[7]، وهو ما ساهم في حفاظ هذه المدينة على مؤهلات اقتصادية مهمة رغم التردي الذي شهدته أحوال المدن الكبرى في بعض فترات تاريخ المغرب.

لكن ومع بداية التسرب الاستعماري للمغرب في القرن التاسع عشر، ستدخل فاس واقتصادياتها مرحلة جديدة، قوامها تراجع الإنتاج الحرفي لصناع المدينة، وما خلفه ذلك من أزمات مست استقرار البلاد اقتصاديا واجتماعيا. كيف ذلك؟

ثانيا: التغلغل الأجنبي وتأثيره على اقتصاديات المدينة

تجمع المصادر التاريخية، أن مجموع الإجراءات التي اتخذها السلطان سيدي محمد بن عبد الله في جميع المجالات، أعادت للمجتمع نشاطه الاقتصادي، كما ساهمت في منح دفعة قوية للتجارة الداخلية والخارجية. وبالنظر للإمكانيات الكبيرة على صعيد الرواج التجاري التي كانت بحوزة المدينة،فإنها انخرطت من موقعها في تنشيط هذا الرواج الذي شهدته البلاد آنئذ. إلا أن التسهيلات التي منحت للتجار الأجانب، تركت تداعيات سلبية على المدينة واقتصادياتها، ويمكن الإشارة في هذا الصدد، إلى إغراق أسواق المدن بالبضائع الأجنبية ومزاحمة البضائع المحلية.

وإذا كانت هذه المزاحمة هي الضربة الأولى التي تلقاها حرفيو المدينة، فالضربة الثانية تمثلت في النقل الكبير للمواد الخام نحو الموانئ المخصصة للتصدير، بناء على الطلب المتزايد للأوروبيين. وإذا علمنا أن هذه المواد هي نفسها التي يرتكز عليها الإنتاج الحرفي بالمدينة من قبيل الجلود، ومواد صباغتها، والصوف، والنحاس.أمكننا إدراك حجم التهديد الذي أضحت يعيش تحت وطأته النشاط الحرفي، وهو ما أسفر عن تضرر كبير لمختلف الصناعات الحرفية المحلية.

وتفيد المعلومات المتعلقة بالوضعية الاقتصادية للبلاد، تأثير عوامل أخرى كارتفاع الجبايات، واحتكار المخزن مجمل النشاط الاقتصادي من تجارة وترويج، خاصة في بعض المواد الأساسية لحرفيين كالجلد، يقول احد مؤرخي الفترة : " **ورد كتاب السلطان، وقرئ على منبر القرويين، أن لا يشتري الجلد والقشينة والشمع والكبريت بقصد التجارة أحد، ومن فعل ذلك قطعت يداه**"، مضيفا في مكان آخر أن: " **الأمر ضاق بالناس غاية الغاية**" [8]، من جراء فرض ضريبة " المكس " على الكثير من المواد الأولية ذات الصلة بالإنتاج الحرفي .

لكن المدينة ستشهد رواجا نسبيا، لما اتخذها السلطان المولى سليمان عاصمة له، حيث استفادت الحرف التقليدية من الحضور الدائم للسلطان بين ظهرانيها . وتمثلت أوجه الاستفادة في تلبية الصناع والحرفيين لطلبيات المخزن وأجهزته المرتبطة بتجهيز" الحركات" السلطانية بمختلف المواد التي يحتاجها العسكر من سروج وكسوة ونعال وغيرها، وهو ما ساهم بشكل أو بآخر في تنشيط دورة الإنتاج الحرفي بالمدينة[9].

والواقع أن هذا الرفاه النسبي لم يكن له أن يستمر على هذا المنوال، أمام اشتداد الضغط المالي من جراء متطلبات الإصلاح والتعويضات، ابتداء من عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان، فأصبحت تباشير الأزمة الاقتصادية تلوح في الأفق بسبب النزيف المالي المترتب عن سداد أقساط الغرامات ، وخلخلة الهياكل التقليدية للاقتصاد المغربي عامة وفاس تحديدا من طرف الرأسمال الأجنبي، رغم ما سجل خلال هاته الفترة من قيام فاس بتجارة مع الجزائر في إطار تشجيع سياسة التغلغل الاقتصادي التي نهجتها فرنسا ، وتجلى ذلك في القوافل التي كانت تخرج من المدينة محملة ببعض البضائع التقليدية الصنع كالبلاغي والبرانس والحايك [10].

ومهما يكن من أمر،فإن مآلات البنى الاقتصادية بالمغرب كشفت عن قدرة اقتصاديات الحاضرة الادريسية، وخاصة ما يتعلق منها بالنشاط الحرفي بالمدينة، على التكيف والتأقلم مع تحولات القرن التاسع عشر التي تداخل فيها ما هو داخلي مع ما هو خارجي ، وما ارتبط بها من تغير مسارات التجارة، وهو أمر تفوقت فيه المدينة بشكل كبير على مر تاريخها الحديث.

ومع ذلك كان للوضع الاقتصادي العام للبلاد أثره الكبيرعلى كافة الفئات النشيطة من صناع وحرفيين وتجار، وهوما أورده الباحث "بوكبوط" نقلا عن الناصري" **فضاقت وجوه الأسباب على الناس، وصعبت عليهم سبل جلب الرزق**" [11]. والحال أن هدف الارتقاء بالبنى الاقتصادية المغربية، لم يتحقق ، وظل الإنتاج الحرفي مرتبطا بتلبية الحاجيات الذاتية، وظل بالتالي على هامش اقتصاد السوق[12] .

1. تنظيمات الحرف اليدوية

أ. "الحنطة" شكل من أشكال تنظيم الحرف

معلوم أن المجتمع الفاسي في الفترة ما قبل توقيع عقد الحماية الفرنسي، كان يتكون من شرائح اجتماعية نشيطة،يأتي الحرفيون في مقدمتها، ورغم صعوبة تحديد أعداد دقيقة للحرفيين داخل المدينة، فإن بعض المعطيات المتوفرة حول فاس في مطلع القرن العشرين، تشير إلى أن نصف ساكنة الحاضرة الإدريسية يتخذون من الحرف التقليدية مصدر رزق

لهم ، يؤمنون به احتياجات الساكنة، داخل المدينة وخارجها [13].

وقد قدر عددهم حسب بعض الاحصائيات على عهد الحماية، بفاس 9000 ،وبمراكش 10000 حرفي، وبالرباط 5000[14]، وبالنظر لوزنهم العددي، فقد كان دورهم محوريا في الحياة الاقتصادية، فبالإضافة إلى تأمينهم حاجيات سكان المدن، وفروا لسكان المناطق القروية الأسلحة والسروج والمواد الجلدية والأقمشة وسائر الأدوات المنزلية [15]. ورغم تواجد صناع بالبوادي يؤمنون المتطلبات الأساسية للساكنة، ظلت أسواق المدن الوجهة الفضلة لاقتناء كافة الحاجيات المحلية الصنع والمستوردة من الخارج.

وقد انتظموا في تعاونيات سميت ب " الحناطي " [16]، وقد عرفها أحد المستشرقين،ماسينيون Massignonبأنها: " **مجموع المعلمين والعمال والمتعلمين المتعاطين لنفس الحرف الصناعية أو التجارية** .." [17]، والتي قدر عددها بحوالي200حنطة بفاس لوحدها [18] ، تجمع في طياتها حرفيين يمارسون نفس النشاط ، وتعين على رأسها "أمين" ، يمثل الحرفة لدى السلطات و "المحتسب"، وباقي الهيئات الأخرى ، كما ُحددت أهدافها في الدفاع الجماعي عن حقوق الحرفيين ومراقبة جودة الإنتاج من مختلف أشكال التدليس كما سنرى ذلك لاحقا.

ولعل من أبرز المظاهر الأساسية لتضامن الحرفيين فيما بينهم التعاون والتآزر الجماعي، رغم التراتبية التي كانت عليها "الحنطات" (المعلمين ، الصناع ، المتعلمين) ، خاصة أمام مختلف الإجراءات الإدارية للسلطة، التي كان لها حق المصادقة على اختيار "الأمين" من طرف الصناع، أو الطعن في هذا الاختيار من طرف شخص "المحتسب" كممثل للسلطة المخزنية في هذا المجال.

ولئن كانت " الحناطي" بفاس، تجمع مبدئيا كل الأشخاص الذي يمارسون عملهم بالمدينة، وينتمون لنفس الحرفة، فقد كانت لهذا التنظيم بعض الاستثناءات من قبيل:

-أن هذه التنظيمات لم تكن تشمل بعض الحرف، التي اصطلح على تسميتها بالمهن المهمشة كالعرافين، والسحرة، والمشعوذين، وأصحاب الخمارات، والفنادق؛

- لم يكن مسموحا لموظفي المخزن الانخراط في الحناطي الحرفية، بالرغم من أن عملهم أبعد ما يكون مذموما [19].

- غياب طوائف حرفية خاصة بالنساء، على الرغم من كثرة عددهن، إذ نجد الخطابات، و " النكافات"، والطرازات، ومرقعات الثياب البالية، وذلك راجع إلى كونهن يشتغلن ببيوتهن [20].

ورغبة في الحفاظ على انسجام بين الطوائف الحرفية حسب نوعية الإنتاج والمواد المستعملة، تم جمع، مثلا صناع "الزليج" و"الحراشة" في حنطة واحدة، وهي حنطة "الفخارين"، وهذا التجميع يعود لكون أن حرفة الفخار والحرف القريبة منها من حيث الصنعة، وكانت تتواجد في نفس المكان وفقا لتقاليد حرفية وعمرانية قديمة، وعلى عكس حنطة الفخارين، نجد أن "الدباغة "، رغم اشتغالها بنفس المادة الأولية، وبنفس التقنيات، احتلت مواقع متنوعة، وشكلت حنطات متفرقة، كما أن "الحدادين"، الذين يشكلون حرفة واحدة، كانوا موزعين على ثلاث مواقع: "الطالعة"، "عين علو"، "النخالين"، بفاس على وجه التحديد.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن بشأن هذا التوزيع الطبوغرافي للحرف، هل كان توزيعا جغرافيا، أملته ضرورات الحرفة ومستلزماتها؟ إذ أن الفخارين كانوا مجتمعين في نفس المكان، بينما كان الدباغون يحتلون ثلاث مواقع بعيدة شيئا ما عن بعضها البعض. الراجح، أن هذا الأمر يعود إلى كون أن الصناع كانوا موزعين داخل أسوار المدينة، بشكل سمح لهم بتكوين عدة مجموعات حرفية تنتمي لنفس الحنطة.

ب. التنظيم الإداري ل " الحنطة"

كانت "الحنطة" تخضع لتنظيم إداري هرمي من أعلى إلى أسفل، ولأعراف ونواميس تسير عليها، ومحترمة من جميع المتدخلين في القطاع الحرفي، وعموما خضعت الطوائف الحرفية للتنظيم الهرمي التالي:

المحتسب[21]: هو ممثل المخزن على مستوى النشاطات الحرفية، لعب دورا بالغ الأهمية في تسيير دواليب الحياة الاقتصادية في كل مدينة، فهو الذي يشرف على "الحناطي"، ويراقب الأسواق والمكاييل والموازين،وهو الحكم الذي يرجع إليه فصل الدعاوي والنزاعات بين التجار والصناع والمعلمين من جهة، والبائع والمشتري من جهة أخرى.

الأمين: يأتي منصب الأمين بعد المحتسب، يختار من بين أمهر الصناع وأرجحهم عقلا، وأكبرهم سنا، و لا يمكن له أن يباشر مهمته إلا بعد مصادقة المحتسب على هذا الاختيار.

ووفق الأعراف السائدة بين الحرفيين، تتمثل مهمة "الأمين" في مراقبة جودة الإنتاج، وتحديد الأسعار التي يعرضها على المحتسب للموافقة عليها أو تعديلها، كما يشرف على فض النزاعات بين المنتسبين لنفس الحنطة، ويبث في طلبات الانضمام المقدمة له من المعلمين الجدد إلى الحنطة، كما يدافع عن مصالح أعضاء حنطته أمام المحتسب والمخزن عامة.

كما كان تعيين "أمين" حرفة ما يخضع لأعراف وتقاليد محددة، ويتم ذلك من طرف المعلمين المنتمين إلى نفس الحرفة، مثل البلايغية، والخرازون، هؤلاء يتداولون أمر ترشيحه، وإذا تمت الموافقة عليه، يرفع اسمه إلى ممثل المخزن أي " المحتسب".

غير أن أهم دور كان يقوم به "الأمين"، يتجلى في الوساطة بين الحنطة التي يمثلها ويسهر على مصالحها، وبين المخزن، الذي غالبا ما كان يلجأ إلى الصناع التقليديين للحصول أموال، قد تكون ضرائب استثنائية تقدم للسلطان خلال بعض المناسبات: كهدية البيعة، الدخول إلى المدينة، القيام بأعمال عرفت تاريخيا ب "التويزة" لفائدة الحاكم، وهي عبارة عن تعبئة جماعية ينخرط فيها الحرفيون، لكن كانت بشكل إكراهي حيث يستعملها ذوو السلطة من قواد وشيوخ لإنجاز أعمالهم الشخصية.

وبالتالي فهذه المهمة، كانت تتطلب من الأمين كثير من المرونة والحكمة، لأنها كانت تلزمه بالدفاع عن زملائه من جهة، وعدم الوقوف في وجه السلطة من جهة أخرى، لذا كانت مصداقيته أمام الصناع مرتبطة بمدى سهره على مصالح مرؤوسيه، وحماية الحنطة من جشع المخزن، والتخفيف من حجم الكلف التي تفرض على أهل "الحنطة"[22] .

ومن داخل كل حرفة يمكن التمييز بين ثلاث أشخاص:

المعلم: كان مسؤولا عن العمل داخل الدكان، وهو الأكثر تأهيلا لما يتوفر عليه من حنكة وتجربة، فضلا عن كونه صاحب أدوات العمل، والمسؤول عن توزيع العمل، وإليه يرجع أمر شراء المواد الأولية، وبيع البضائع.

الصانع: الحرفي الذي يتقن الحرفة، لكنه غير مؤهل للاستقلال بنفسه، على اعتبار عدم توفره على الإمكانيات الكفيلة بذلك، أو ينتظر إجازة من مجلس الحنطة للترخيص له بافتتاح ورشة خاصة به، وأمام هذا الوضع يظل خاضعا للمعلم [23]، في كل شيء حتى أجرته التي كانت تؤدى أسبوعيا كما هو معروف في أعراف الحرف التقليدية.

المتعلم: ينخرط المتعلم في الحرفة منذ طفولته، وما إن يرتقي في السن حتى يكون قد ارتقى بمهارته في المجال. ويصبح هذا المتعلم معلما حينما يتمكن من إتقان حرفته بعد تدريب غير محدد المدة، يحصل بعد ذلك على شهادة شفوية من معلمه، إذ ذاك يمكنه فتح دكان خاص به، وتزويده بالأدوات الضرورية لحرفته، بعد أن يرخص له أمين الحرفة ذلك، وموافقة المحتسب. وتجدر الإشارة، إلى أن إتقان الصنعة لم يكن

كافيا لانخراط عضو جديد بحنطة ما، بل لابد من مراعاة عدد الأعضاء وكمية الإنتاج، ضمانا لحصانتها، وعدم كساد بضاعتها [24].

إجمالا، شكلت هذه التراتبية التنظيمية للحرفة الواحدة، صمام أمان للحنطة، وضمانة لها من انفراط عقد تنظيمها، وحفاظا لها من أي خلل محتمل في مختلف العمليات الإنتاجية التي تشرف عليها الحنطة. رغم أنها –الحنطة-ظلت حبيسة أعرافها الداخلية، واتسمت بالتشتت عبر المجال الحضري للمدينة، وانقسامها إلى حنط معتبرة اجتماعيا ك "البلايغية" و"الدباغين" و"الحاكة «، وأخرى ينظر إليها بازدراء ك "الحجامين" وبائعو الخبز و"السقائين" [25]، فاستمرارها في تأطير عمل الحرفيين والصناع، دليل على متانة وقوة تنظيمها الداخلي، ودورها الحاسم في استمرار العديد من الأنشطة الحرفية في تأدية أدوارها ذات الصلة بتنشيط أسواق المدينة، وفنادقها، وتغذيتها بالمنتوجات الحرفية.

إشارة أخيرة لابد من التذكير بها في سياق الحديث عن هذا التنظيم، وهي أن أهل الحرف درجوا على الإكثار من زيارة أضرحة الصالحين والأولياء، والانخراط في الطوائف الصوفية الشهيرة في المجتمع المغربي،وذلك التماسا للبركة [26] ، وتعزيزا للجانب الروحي في صفوفهم ، ولا أدل على ذلك مشاركتهم المكتفة فيمختلف المناسبات الدينية ذات الطابع الصوفي التي كانت تنظم سنويا على شرف الأولياء والصالحين، كمولاي إدريس في فاس، وسيدي عبد الله بن حسون بسلا، وأبي العباس السبتي بمراكش [27]

2. الإنتاج الحرفي في مغرب القرن التاسع عشر

ارتبطت الأهمية التاريخية لمدينة فاس بما كان ينتجه حرفيوها من منتوجات تجاوزت كل الآفاق، من حيث الإتقان وجودتها الفنية، كالدباغة، والصناعة الأحذية، والفخار، والنحاس، والنسيج...، وقد كانت هذه الصناعة تشكل مصدر عيش آلاف الصناع، وتعمل على تنشيط الدورة الاقتصادية للمدينة.

ويبدو أن الحرفيين استفادوا من السياسة الجبائية التي انتهجها بعض السلاطين، القاضية بإسقاط ضريبة " المكوس" ، وإنهاء احتكار السلطات لعدد من المواد الخام كالجلد والحرير ، والرفع من الرسوم المفروضة على تصدير بعض المواد كجلود الماعز والأبقار.وقد كان للإجراءات المتخذة أثر إيجابي في إنعاش الصناعات الحرفية، وارتفاع حجم الصادرات من المنتجات الجلدية المصنوعة والخامة [28].

في هذا الإطار، أورد المرحوم "بوشتة بوعسرية" في دراسته شهادة لأحدى الشخصيات المكناسية عن حرفة الدباغة في القرن التاسع عشر، قائلا: " **كانت دباغة الجلود المغربية قبل نحو عشرين سنة جيدة متينة وكافية لحاجيات المغاربة، سواء من حيث متانة الجلد أو أنواع دباغته، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل، أهمها الناحية الفنية وجودة العمل** .."[29]،والراجح أن ارتفاع الإنتاج في هذه الحرفة كانت مرتبطة بوفرة المواد الأولية، وثمنها المناسب، ووجود رساميل كافية لاقتناء المادة الأولية.

وقد يتساءل قائل، عن ماهية التأثيرات التي خضعت لها الصناعات الحرفية اليدوية من جراء انفتاح المغرب على الواردات الأجنبية خلال القرن التاسع عشر؟

وجوابنا ، أنه بالرغم من اتجاه المغرب إلى استيراد كميات كبيرة من السلع المصنعة من أوروبا كالأواني النحاسية، والألبسة ، والأثواب وغيرها ، وهو ما كان من شأنه أن يخلق متاعب للحرفيين المغاربة على مستوى منافسة المنتوج المحلي، فالإشارات الواردة في الدراسات التي تناولت الوضعية الاقتصادية للمغرب آنئذ، تشير إلى أن الحرفيين استمروا في تلبية كافة احتياجات المغاربة، وتأمين حاجيات الأسواق، بله تصدير جزء من المنتوج الصناعي المحلي ، ذو الجودة والإتقان، وخاصة المنتوجات الجلدية والصوفية إلى

المشرق العربي وإفريقيا الغربية [30]، علما أن وسائل الإنتاج كانت بسيطة للغاية.

إلا أن الصدارة التي احتلها الحرفيون قبيل 1912 وبعيدها، لم تدم طويلا مع الاحتلال الفرنسي للمغرب، وفاس على وجه أخص، بالنظر للتغير الذي صاحب الهياكل والبنى الاقتصادية، والذي ساهم في إضعاف أهمية النشاط الحرفي بالمجتمع، إذ سيعيش أزمة خانقة في ظل نظام الحماية، مردها بالأساس إلى تحولات إدماج اقتصاد المغرب في نمط الإنتاج الرأسمالي قسرا.

ثالثا: النشاط الحرفي بفاس على عهد نظام الحماية

لا حاجة للتذكير بأن حرفيي فاس قبل فرض نظام الحماية الفرنسي،كانوا يهيمنون على النشاط الاقتصادي بنسبة كبيرة، و لا أدل على ذلك كثرة عدد الدكاكين والورشات والفنادق ، وهو ما أسهم في وفرة الإنتاج الحرفي وتنوعه، وبالتالي وجود حركة تجارية نشيطة، وصناعات مختلفة ، كما ساهم حرفيو المدينة في تلبية كافة الحاجيات الضرورية للمجتمع الفاسي، ونالت منتجاتهم سمعة جيدة في الداخل والخارج، وللتدليل على ذلك، تكفي الإشارة إلى تصدير جزء من المنتوجات الحرفية إلى بلدان إفريقيا وأوروبا، وكانت دول أوروبا تستورد من المدينة الأواني النحاسية والخزفية والمصنوعات الجلدية والخشبية، وبهذا كانت كافة الصناعات تساهم في تحريك عجلة الاقتصاد المغربي وفاس على وجه التحديد.

لكن ورغم فشل المحاولات الأولى لتغلغل الأجانب في خلخلة بنية الحرف، فقد استطاعت في مرحلة لاحقة، إلحاق ضرر كبير بهذا القطاع، نتج عنه تراجع الحناطي عن أدوارها التي عرفت بها تاريخيا ليس فقط بفاس بل في جميع المدن العتيقة كمكناس،ومراكش، وغيرها، على اعتبار أن الاستغلال الاقتصادي مثل أولى مرامي احتلال المغرب، وتسخير مقدرات البلاد لصالح الدولة الفرنسية " الحامية".

ومن مضاعفات التحولات الطارئة ذات الصلة بقطاع الحرف التقليدية بفاس بعد دخول الفرنسيين، يمكن الإشارة إلى ما يلي:

1-مزاحمة البضائع الأجنبية للإنتاج الحرفي الفاسي:

لاقت الكثير من المنتجات الحرفية منافسة شديدة للبضائع الأوروبية المستوردة، والتي غزت الأسواق، وأدت إلى بوار الكثير من السلع وكساد الكثير من الصنائع، فحصل تضرر الفئات الاجتماعية التي كان أربابها من الحرفيين، كجزء من مخطط شامل بجعل المدينة سوقا تجارية كبيرة، مما كان له أبلغ الأثر على الإنتاج الحرفي بفاس [31].

كما كانت تنظيمات الحرف الفاسية قبل توقيع عقد الحماية الفرنسية منظمة تنظيما محكما، رغم بساطتها، لكنها كانت تضمن للمنتمين إليها دخلا قارا ومحترما، مكنهم من تغطية احتياجاتهم اليومية، وتستجيب لرغباتهم، بعيدا عن التطلع إلى تحسين أحوالهم الاجتماعية، التي لم تكن متاحة إلا بتطوير أدوات الإنتاج المؤدي بدوره إلى جودة الإنتاج وكثرته.

وقد كان هذا الأمر مطلوبا بالنسبة لهذا القطاع على عهد نظام الحماية، لمجابهة مزاحمة البضائع الأجنبية للإنتاج الحرفي الفاسي التي ملأت الأسواق والمتاجر، وشغلت الناس عن اقتناء الإنتاج المحلي، الذي أصبح يتراجع فاسحا المجال للمنتوج الأوروبي، خاصة في نهاية عشرينيات القرن الماضي [32].

والسبب لامحالة كون أن المنتجات الأجنبية الواردة من الخارج، اتسمت بجودتها ورخص ثمنها، ومسايرتها للنمو الديموغرافي وتغير المزاج العام على مستوى الأذواق.

ومن بين الإجراءات التي قامت بها فرنسا بالمغرب، وكانت سببا مباشرا في تدهور الحرف التقليدية، هو قيام إدارة الحماية في العشرينيات بعرض ما أنتجته يد الصانع التقليدي المغربي في متحف الفنون الزخرفية[33] وهو الأمر الذي حرك الرساميل الأجنبية نحو المغرب،

وتشييد معامل جهزتها بمعداتحديثة، تنتج أضعاف ما ينتجه الصانع المغربي، وسخرت للعمل فيها صناع مغاربة بأجور زهيدة [34] ،

وفي هذا الصدد، تأسست عدة شركات أجنبية بالمغرب مثل "الشركة الافريقية للغزل والنسيج" بالرباط وسلا سنة 1929، برأسمال بلغ 8 مليون فرنك، وكانت تشغل 400 عامل وحرفي مغربي، وقد أنتجت هاته الشركة 50.000 متر مربع من الزرابي سنة 1930، وفي نفس السنة قامت معامل ماكينة فاس بإنتاج حوالي 4800 متر من الزرابي أيضا.

كما يمكن الإشارة هنا، إلى المنافسة الشديدة التي شهدها سوق الجلد، من طرف المنتوجات الأوربية خاصة على صعيد إنتاج الأحذية، حيث تم إغراق السوق المغربية بأكثر من 350.000 زوج من الأحذية، بأثمنة ثقل أربع مرات عن أثمنة السوق الداخلية[35] ، إذ كلما تطورت صناعة الأحذية، تسبب الأمر في إتلاف البلغة التقليدية والفاسية على وجه التحديد. وكل هذه الصناعات كانت، مزدهرة، وتلقى رواجا واسعا بين الفاسيين الذين أقبلوا عليها، ولم يستعملوا غيرها قبل الاحتلال الفرنسي للمغرب.

كما قامت بعض المصانع الأوروبية بصنع منتوجات تقليدية مغربية، مصدرة إياها إلى المغرب كالخناجر والسيوف المصنوعة بسانت إتيان بفرنسا، وتخصصت بعض المصانع بصناعة " الطربوش" المغربي وتصديره إلى المغرب [36]. كما تهافت الأوروبيون على شراء المصانع الحيوية الخاصة بالدباغة وصهاريجها، وأسست مطاحن في مختلف مدن المغرب، والتي على الأرجح قضت على الأرحية التقليدية.

واتضح جليا أنه كلما توالت سنوات الاستعمار في فاس، إلا وزاد تراجع الإنتاج المحلي، وبالمقابل سيطرة المنتوجات الأجنبية القادمة من فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وغيرها على السوق المحلية، وعلى الحياة التجارية عامة، الشيء الذي أدى إلى تراجع عدد كبير من الحناطي، وعددها حوالي 170 حنطة بفاس، وتشغل حوالي 9000 حرفي[37]،كما ساهم هذا الوضع في إقفال محلات الإنتاج، إما لمغادرة صناعها، أو لعجزهم عن مسايرة متطلباتها بسبب الكساد وقلة المصاريف لتسيير الورشات.

أمام هذا الوضع عجز الحرفيون المغاربة عن مجاراة هذا التطور المتمثل في استعمال تقنيات حديثة ورساميل ضخمة، حتى أن بعضهم تحول إلى العمل كوكلاء في هاته المعامل والشركات الأوروبية، بعدما كانوا في الماضي يملكون أدوات الإنتاج [38]، والبعض الآخر استمر في مزاولة حرفته في الورشات الصغيرة وبأدوات بسيطة، لاعتقادهم الراسخ أن الإخلاص لأسلوبهم العتيق في الإنتاج هو السبيل للحفاظ على استمرارية وديمومة النشاط الحرفي. والحال أنه لم يعد كافيا لتلبية حاجيات المستهلكين، الذين توجهوا إلى الإقبال على كل ما هو أجنبي مستورد، حيث توفر فيه شرط الجودة ورخص الثمن.

وفي مقدمة المنتوجات الحرفية التي لحقها الإفلاس، نجد الدباغة، ذلك ان الحرفيين الفاسيين كانوا في مقدمة المنتجين للحذاء المغربي " البلغة"، وتصديرها إلى باقي المدن المغربية وإلى دول مثل الجزائر ومصر و السنيغال، لكن هذه التجارة كسدت، لعزوف الناس عن استعمال البلغة، وتفضيل الأحذية المستوردة من الدول الأوروبية، التي وجد فيها ساكنة المدينة الجودة المطلوبة من طرفهم.

يأتي ذلك بعد أن تلقت البلغة الفاسية ضربة موجعة في بعض الأسواق العربية [39]، هذا فضلا عن منافسة المنتوجات الجلدية الأجنبية للمغرب داخل أسواقه التقليدية ذاتها. وقد ترك هذا الإجراء آثارا بالغة على الصناعات الجلدية المغربية كافة، كما هو الشأن بالنسبة للجبابدية، وهم صناع المناطق الجلدية، والأجرية(الشكاير) وسروج الخيل، والمخاد (الصطارم)، التي فقدت بريقها وتقلصت جودتها [40].

وقد تعمقت هذه الأزمة مع عجز الحرفيين عن منافسة الصناعات المستوردة من دول أوروبا وبعض دول شرق آسيا[41]، التي ملأت ليس فقط السوق الفاسي، بل أسواق كافة المدن المحتضنة للأنشطة الحرفية في ثلاثينيات القرن الماضي[42]، وذلك بسبب التغيرات الحاصلة في نمط الاستهلاك ونوعية السلوك الناتجين عن الاحتكاك بالأوربيين على مستوى الملبس والمأكل والمشرب [43].

على العموم، لم تسلم من مزاحمة البضائع الأجنبية باقي منتوجات الحرف التقليدية، كما هو الشأن بالنسبة للمنتجات النسيجية، والحدادة، والفخار، وغيرها من الحرف، لانحسار تسويق منتجات هاته الحرف على النطاق المحلي، دون أن يتم العمل على ترويجها بشكل منظم داخل فاس وخارجها، ولعوامل أخرى أومأنا إلى البعض منها آنفا.

2. محاولات إنعاش القطاع الحرفي

كثيرا ما رددت تقارير ودراسات إدارة المستعمر الفرنسي، أن الهدف من مختلف المحاولات التي تم القيام بها، كان هو إنقاذ هذا القطاع وانتشاله من أزمته، والحال أن ما تم إنجازه أعطى مفعولا عكسيا على هذا القطاع، كما سنرى من خلال الإجراءات التالية التي سنتها إدارة المستعمر كمحاولة منها لبعث الروح من جديد في قطاع الصناعة التقليدية:

-إعادة النظر في أدوار المحتسب:

اتجهت سلطات الحماية إلى إلغاء دور المحتسب وتهميش سلطاته، مما جعل هذا القطاع مفتقدا لموجه أمين يرعى مصالحها، ويعمل على تسيير شؤون الصناع، كما ساهم هذا لأمر في إضعاف مؤسسة التعاونيات، التي شكلت إطارا للإنتاج الحرفي، ولعبت دورا كبيرا في الحفاظ على الحرف رغم التعثرات التي شهدتها.

-تمايز الأجور وساعات العمل:

في هذه المدن، 24 فرنك في فاس، 20 فرنك في تازة، 8 فرنكات بالدار البيضاء[44]، كنتيجة حتمية لولوج الآلة ميدان الإنتاج الحرفي. إذ بمجرد دخولها سيعرف التنظيم العتيق للحرف التقليدية، عدة تغيرات، أفقدته خصائصه التي تميز بها لفترة تاريخية طويلة، وسيعرف قطاع الحرف التقليدية أزمة خانقة، لم تنفع معها كل مسكنات إدارة الحماية، ولا محاولات الوطنيين المغاربة الرامية إلى تشجيع المنتوج المغربيمن بلاغي وأنسجة وطرابيش، والتي وإن لم تنقرض نهائيا، إلا أن استعمالها تراجع بشكا بطيء.

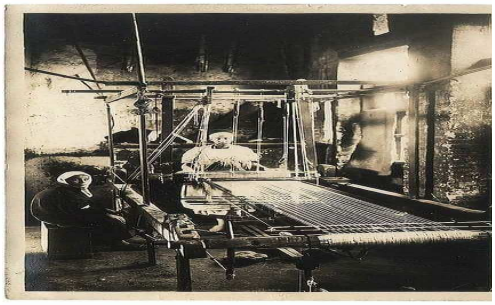

-تقلص صلاحيات أمناء الحرف التقليدية بفاس:

مع الأزمة الخانقة التي عاشتها الحرف في شتى جوانبها الإنتاجية والاستهلاكية، فقد الأمناء سلطاتهم، واقتصرت ،بعد إنشاء الغرف الصناعية المحدثة بقرار من إدارة الحماية الفرنسية،على فض المنازعات الحرفية، أو القيام بدور الصلح بين أطرافها، في ظل وضعية كانت سمتها الأساسية ضعف الطلب على المنتوجات الحرفية، التي أصبح صنعها يتم دون مراعاة لعنصر الجودة التي تميزت به لفترة تاريخية طويلة وكانت مصدر إشعاع لها، وكساد البعض منها، وقلة الرواج في الأسواق المغربية ،وإفلاس العديد من الحرفيين، بعد أن توقفوا عن ممارسة الحرفة، واندثار بعض المهن المرتبطة بهم، ك " الدلالة" ، التي كان يسترزق منها عدد كبير من ساكنة المدينة في دروب وأزقة فاس العتيقة.

والمهم في الأمر، أن تدخل إدارة الحماية في شؤون الطوائف الحرفية بدعوى إصلاحها، وتغيير نظامها، لم يغير في شيء جوهر أزمة الصناعة التقليدية ونظامها القابل للانهيار، بقدر ما زاد من تدهور الحرف، وتفتيت نظامها، الذي أصبح من جراء التدخل الإداري للمصالح الفرنسية تحت سلطة أحد أعمدة السلطة بالمدينة وهو الباشا .

-غلاء أسعار المواد الأولية:

اتخذت المنافسة الأجنبية للحرف التقليدية المغربية، شكلا آخر، تمثل في الرفع من أسعار المواد الأولية، حيث ارتفعت مثلا أسعار الجلود خلال الفترة ما بين 1935 إلى 1937 بنسبة 30%، وأسعار المواد الأولية لصناعة الأحذية بنسبة 40% في الفترة ذاتها [45]. وأمام هذا الوضع لجأ الصناع إلى استعمال مواد أقل جودة وأقل ثمنا، مما عمق أزمة الصناعة التقليدية، بفقدان زبنائها التقليديين.

3. محدودية الإصلاحات الفرنسية في القطاع الحرفي

أمام تراجع الإنتاج الحرفي بفاس، وتدهور وضعية الحرفيين، اضطرت سلطات الحماية، وتحت ضغط الأحداث، إلى القيام بسن عدة إجراءات، هي في الحقيقة عبارة عن مسكنات، هدفت بالدرجة الأولى إلى صرف أنظار كل المتضررين من هذه الوضعية، عن التفكير في مسببات الأزمة والمسؤولين عنها، فضلا عن الرغبة في مراقبتهم عن كثب، والسيطرة عليهم.

وكانت أولى الإجراءات التي قامت بها إدارة الحماية، إحداث " مكاتب الصناعات الأهلية"، التي تحولت لاحقا إلى " مصالح الفنون الأهلية" [46]، و أوكل لهاته المصالح، ضمان التمويل الجيد للمواد الأولية من جلود وأنسجة وغيرها، وسن تشريعات وظهائر لحماية المنتوجات التقليدية، ومنها ظهير 22 ماي 1919، وإعادة الاعتبار لبعض تقنيات الإنتاج الحرفي، التي كان قد طواها النسيان، والعمل على تنشيط فروع الحرف التي تحتل مكانة متميزة داخل الأوساط السكانية، وفي النسيج الاقتصادي لمدينة فاس، كصناعة الجلود والزرابي [47].

وفي مرحلة لاحقة، اتخذ تدخل إدارة الحماية عدة أشكال منها: إعادة تنظيم مؤسسات الحرف التقليدية، وذلك بإحداث هيكلة جديدة للتعاونيات، وهو الأمر الذي بدأ بتحويل " مصلحة الفنون الأهلية" إلى مصلحة المهن والفنون المغربية".

وكان الغرض من هذه الهيكلة الجديدة كما تم التصريح به، التأطير الجيد للحرفيين، لكن في حقيقة الأمر،

كان هو وضع حد لتأثير الحركة الوطنية الذي بدأ يتسرب إلى الحرفيين، بعدما تبنت عدة مطالب همت هاته الفئة.ولتحقيق هذا الهدف سارع الفرنسيون إلى القيام بعدة خطوات إجرائية موازية منها:

-إعادة تنظيم الحرفيين في تعاونيات إنتاجية ذات صبغة نفعية، تأثرت هي الأخرى بمجموعة من الظروف المستجدة، المتمحورة بالأساس حول بطء الإنتاج، وانسداد آفاق التصدير، وإغلاق بعض الأسواق الأجنبية الأنكلوساكسونية بالخصوص إبان فترة الحرب العالمية الثانية، ودعوة الوطنيين للمغاربة إلى مقاطعة المنتوجات الأوروبية التي غزت الأسواق المغربية [48] ؛

-إحداث هيكلة جديدة للمتدخلين في الإنتاج الحرفي، بما أسمته " إصلاح " وضعية الأمناء والمحتسب، من خلال إنشاء مجلس التعاونيات المشاركة في المعارض الداخلية والخارجية؛

-فتح المجال الصناع التقليديين للاستفادة من "الصناديق الجهوية للقروض الأهلية"، بالشكل الذي يتمكنون فيه من تجاوز مصاعبهم المالية، وتسهيل الحصول على المواد الأولية اللازمة، وقد تم إنشاء هذه الصناديق بمقتضى ظهير 13 مارس 1937؛

-إحداث مؤسسات جديدة من قبيل "مجمعات الصناعة التقليدية"، كوسيلة للتعريف بالمنتوج التقليدي المغربي من جهة، ومن جهة أخرى البحث عن وسائل تصريف جديدة للمنتوجات، لتفادي التقلبات الدورية للمناخ ، حيث وقع التفكير على ما سمي ب " زبناء التغيير والاستبدال"، والذين تم تحديدهم في: الساكنة الأوروبية المغربية، والموظفون الاداريون، والسوق الخارجية؛

-تصدير ما مجموعه نصف مليون بلغة، وخمسة ملايين من الجلود المدبوغة. خلال الأشهر الثلاثة من سنة 1937 [(49)].

وعموما، فإن ما يمكن تسميته ب "عصرنة" قطاع الحرف التقليدية، لم يستفد منه الحرفيون، فظلوا على هامش هذا" التحديث"، للاعتبارات التالية:

-جميع القروض المقدمة للحرفيين بقيت ضعيفة، ولا تلبي كافة احتياجات الحرفيين، إما لتعقد مشاكل الصناعة التقليدية، أو عدم تحديد مقاييس واضحة تحدد ماهية المستفيدين؛

-الإجراءات المتخذة تجاه القطاع الحرفي المغربي، لم تخفف من حدة المنافسة الأجنبية للمنتوجات التقليدية المغربية ذات الصبغة النفعية بالأساس.

-وضعية الصناعة التقليدية، كانت أعمق بكثير من مجرد اتخاذ مجموعة إجراءات، هي في الأصل عبارة عن مسكنات لتفادي أزمة نخرت قطاعا حيويا؛

-بالنسبة لغالبية ساكنة فاس، فإن المسألة كانت تتعلق بغزو اقتصادي كاسح، لم تستطع معه البنيات التقليدية المغربية مجابهته، فوقعت في خيوطه وتحت تأثير تبعاته، لذلك ظلت أزمة الصناعة التقليدية قائمة طيلة عهد الحماية.

رابعا: آثار سياسية لأزمة القطاع الحرفي

من بين الأهداف التي عملت فرنسا على تحقيقها من وراء إجراءاتها في قطاع الحرف التقليدية، جعله " معصرنا" مواكبا للاقتصاد الفرنسي، إلا أن الأزمة التي ضربته في العمق وجعلته منكفئا على ذاته، وعجزه عن مجاراة المنتوجات الأجنبية وغزوها للسوق المحلية، كانت لها انعكاسات سلبية على الحرفيين من أهل فاس، الذين انهارت أعمالهم البسيطة، وحتى تدخل الفرنسيين في القطاع تنظيميا وإنتاجيا واستهلاكيا، كان لصالح المنتوجات المستجدة في السوق المغربية.

لقد كان من نتائج الأزمة البنيوية التي أصابت هذا القطاع، التحاق أصحاب الحرف المفلسين ب "البروليتاريا المغربية"، المشكلة أساسا من باقي الفئات الاجتماعية المتضررة من الاستعمار الفرنسي، وقد تكدست هذه الفئة المستجدة بهوامش المدن،حيث تشكلت في غالبيتها من:

-الصناع التقليديون، الذين وجدوا أنفسهم بين أحضان أصحاب الرساميل الأجنبية، بأجور زهيدة وأقل كلفة، وارتفاع ساعات العمل (10 ساعات في اليوم) [(50)].

-المزارعون الصغار الذي انتزعت منهم أراضيهم الفلاحية بتشريعات جائرة ومجحفة سنت على مقاس مصالح المعمرين الفرنسيين.

وهذه الفئات التي تأكد عمليا في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، أن تعايشها مع الاستعمار أصبح مستحيلا، فعملت على مقاومته بشتى الوسائل والأشكال، من خلال الانخراط في تنظيمات الحركة الوطنية، وفي مختلف التحركات الميدانية التي تأجج لهيبها آنئذ، والتي كان وقودها الفئات المتضررة من الوضع الاستعماري، التي لم تجد بدا من الالتحاق بصفوف الحركة الوطنية وتوسيع قاعدتها الاجتماعية.

ضمن هذا التطور قام بعض الوطنيين بعدة مبادرات تروم مساعدة الصناع على الخروج من أزمتهم، إصدار عدة عرائض توضح فيها مطالب الحرفيين، ومن جملتها " **حماية المصنوعات التقليدية من المزاحمة الأجنبية، وتأسيس نقابات صناعية، ومنح قروض للصناع لمساعدتهم في ترقية وسائلهم**" [51]ورفع شعار مقاطعة البضائع الأجنبية المنتشرة في الأسواق المغربية، والاستعاضة عنها بالمنتوجات المحلية وخاصة منها تلك التي تتصل باللباس التقليدي كالجلباب والطربوش اللذين اعتبرا بمثابة شعارين من شعارات الحركة الوطنية، وتوجيه مذكرة إلى إدارة الحماية في شأن النهوض بالقطاع الحرفي، وتوجيه دعوة إلى المواطنين إلى تكثيف استعمال العمامة بدل الطربوش خاصة بمدينة فاس [52].

ولم تحقق هذه الحملة النتائج المرجوة منها، فازدادت الأزمة استفحالا، وأصبحت تشمل مجموع الإنتاج الحرفي، فأصاب الإفلاس أغلب الحرفيين والتجار الذي تنتعش تجارتهم من وراء الحرف التقليدية، فتحول الكل إلى عاطلين أو في أحسن الأحوال إلى احتراف مهن شاقة أو وضيعة، ولعل في قول أحد الوطنيين: " **ارحموا أرباب الحرف، فلقد أصبحوا في شوارع المدن المغربية يسبحون.**" ،ما يترجم الوضعية المزرية التي وصل إليها حرفيو المدينة الإدريسية، الذين لم يجدوا بدا من الالتحاق بالفئات التي هاجرت من البادية إلى المدينة بعدما سلبت منها أراضيها.

وهكذا لعبت كافة الفئات المتضررة من الاقتصاد الاستعماري (الحرفيون، الفلاحون، التجار الصغار.)، دورا بالغ الأهمية في إعطاء ديناميكية كبيرة لعمل الحركة الوطنية بفاس، في مناهضتها للوجود الاستعماري [53].

وكخلاصة أولية، يمكن القول بأن بسط نظام الحماية الفرنسي لسيطرته على المغرب لم يؤد، كما روجت لذلك الدعاية الاستعمارية إلى تحسين ظروف اشتغال الحرفيين، فإلى جانب ما كان يعانيه الصناع في ورشاتهم بسبب تراجع إنتاجهم، كانت هناك الشروط العامة التي أصبح يتحرك في إطارها الاقتصاد المحلي. وكان من شأن هذه الظروف أن يؤدي إلى أزمة أصابت أغلبية السكان المغاربة النشيطين آنذاك، حيث أصيبت معظم الصناعات اليدوية الحرفية، بالشلل والتدهور.

خاتمة

هل كان انفتاح الاقتصاد التقليدي المغربي على الرأسمال الأجنبي مفيدا في تطور الدولة والمجتمع المغربيين؟هل كان لصالح تحسن الصناعة الحرفية؟هل أفادها في تحريرها من جمودها وتعثراتها؟

لقد كان من الممكن أن يكون ذلك متيسرا، لو أن الانفتاح كان مصحوبا بإجراءات حقيقية وملموسة تتغيا النهوض بقطاع الحرف التقليدية، لكن لم يحصل من ذلكشيء، والدليل ما عرفه القطاع من أزمات، لمتظاهر بصفة رسمية إلا مع بداية فرض نظام الحماية الفرنسية على المغرب، نظام ساهم بقدر كبير في إعاقة التطور الطبيعي للحرف التقليدية، التي وجدت بعض منتوجاتها الموجهة للتصدير صوب بعض الدول كالجزائر ومصر والسنيغال ، نفسها مفصولة عن أسواقها التقليدية ، وأصبح الصانع يعيش أزمة مركبة تتجلى في ضعف مدخوله، ونقصان مستمر في كفاءاته، وانعدام الحماية ، ومواجهته اليومية لصعوبات التموين والتجهيز، هذا ناهيك عن خضوعه لسيطرة الوسطاء والمحتكرين، وعجز الحرفيين عن مواكبة مكننة الإنتاج، بالنظر لافتقادهم لرساميل تمكنهم من تطوير المنتوج التقليدي، وعدم قدرتهم الوقوف في وجه تغير المزاج العام للمجتمع في مجال استهلال المنتوجات التقليدية المغربية، إذ لم يعد تشكل أولوية لدى ساكنة فاس وغيرها من المدن المغربية، بل أصبحت المزاوجة بينها وبين اللباس الأوروبي الحديث.

أما التنظيم المهني السائد في فاس قبل الحماية، فقد فعاليته، وكانت النتيجة أن تقلص دور المحتسب

وخف وزنه، وأصبحت اختصاصاته مهنية محضة، ولكثرة البضائع المستوردة، لم يعد قادرا على كشف غشها وتدليسها، مما أدى إلى تفكك أوصال الهياكل الاقتصادية القائمة، واختلال بعض الأنظمة الاجتماعية القديمة المميزة للإنتاج الحرفي المغربي كالجمعيات الحرفية، بعدما كانت الحرفة إحدى العوامل الرئيسية التي تربط الأفراد داخل الهيكل الاجتماعي والاقتصادي.

ولصرف نظر الصناع التقليديين المغاربة عن التفكير في مسببات أوضاعهم المزرية، اتجهت سلطات الحماية إلى تسطير عدة إجراءات، بقيت هي الأخرى قاصرة عن إخراج هذا القطاع من أزمته، لكونها لم تنبع من إرادة حقيقية لتطوير قطاع الحرف التقليدية، وجعله يواكب التطور الاقتصادي الذي شهده المغرب آنئذ، ولو في حدوده الدنيا، بقدر ما حكمها هدف وحيد يتجلى في ضمان استمرار الوجود الاستعماري الفرنسي بالمغرب. من هنا كان تأكيد الدراسات المغربية على أن ما اعتبرته فرنسا " إصلاحا" لم يكن في الواقع إلا مطية لتحقيق مصالحها [54] .

وباختصار، لا تطبيق لبنود معاهدة الحماية التي نص فصلها الأول على إقامة نظام جديد يتضمن إصلاحات من بينها الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية.

الهوامش

1-أقر العلامة ابن خلدون في سياق حديثه عن الصنائع ببلاد المغرب خلال الفترة الوسيطية، بإتقان المغاربة لصنعة نسج الصوف ودبغ الجلد وخرزه، والتفسير الذي قدمه لهذا الأمر هو الوفرة الكبيرة التي كانت عليها المواد الأولية، على الرغم من إشارته إلى قلة الصناعات اليدوية مقارنة مع المشرق بشكل عام.راجع:

-موجز تاريخ المغرب، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعرف الجديدة، الرباط، ، الطبعة الأولى ، 2015، الفصل الخامس، ص 132.

2-محمدفتحة: " تنظيم المجال الحضري داخل المدينة المغربية في نهاية العصر الوسيط" ، ضمن مؤلف جماعي : وقفات في تاريخ المغرب، تنسيق عبد المجيد القدوري ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، الطبعة الأولى 2001، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، ص .69

3-محمدفتحة: " تنظيم المجال الحضري داخل المدينة المغربية في نهاية العصر الوسيط" ، م س ، ص .70

4- نفسه، ص 75

5- نفسه، ص 76

6- موجز تاريخ المغرب، إشراف وتقديم محمد القبلي ، م س ، ص 133

7- نفس المصدر، ص 134

8- أورده محمد بوكبوط عن الضعيف، في دراسته عن: فاس في العصر العلوي الثاني: الواقع والدلالات، ضمن مؤلف جماعي حول تاريخ مدينة فاس، تحت إشراف محمد مزين، الطبعة الأولى 2010، ص 233

9- نفس المرجع

10- نفسه ص 235

11- محمد بوكبوط : فاس في العصر العلوي الثاني ، م س ، نفسه ص 236

12- موجز تاريخ المغرب، إشراف وتقديم محمد القبلي ، م س ، ص277

13- Roger Le Tourneau : La vie quotidienne à Fès en 1900,Paris, Hachette, 1965,p 99.

نقلا عن محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار 1792-1822، ترجمة محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية، 2012 ص 81

14- D.Rivet : Lyautey et L'institution du protectorat française au Maroc ,1912-1925 , p 191

15- Roger Le Tourneau : La vie quotidienne à Fès en 1900, op cit p 98

16-الحنطة، جمع حنطات، هي تجمع لأصحاب الحرفة الواحدة داخل سوق أو فندق أو حي، يحمل إسم الحرفة، وتخضع هذه الحنطات في تسييرها لأعراف وتقاليد متعارفة عند الحرفيين أكثر منها ضوابط مدققة ومدونة.

17- Massignon (R) : Enquêtes sur les corporations musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc d'après les réponses à circulaire résidentielle de 15-11-1923 , Ed,E,Le Roux.

نقلا عن : Boumont (Guy) : L'avenir des corporations artisanales au Maroc ,l'exemple de Meknès, 1949.

وبوشتة بوعسرية، مكناس وأحوازها 1900-1939،الاقتصاد – المجتمع- التنظيم الإداري، تنسيق ومراجعة محمد الشريف، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، 2005 ، ص 160

18- ألبير عياش : المغرب والاستعمار ، حصيلة السيطرة الفرنسية ، ترجمة عبدالقادر الشاوي ونورالدين سعودي ، دار الخطابي ط1 ، 1985، ص 266

19- محمد فتحة : " جوانب من الحياة الاقتصادية المغربية خلال العصر المريني"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، ع 2 ، 1985 ، ص 152

20- روجي لوطورنو : فاس قبل الحماية ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي، 1992 ، ص 430.

21- يشرف المحتسب على مراقبة الأسواق، وحمايتها من الغش في الأوزان والمكاييل والمنتوجات الحرفية، وهو بذلك يقوم بدور محوري في الحفاظ على استقرار الأسواق وسلاسة الدورة الاقتصادية ، من منطلق السلطات الممنوحة له، التي قد تتعدى إلى الحفاظ على الأخلاق العامة بالحواضر، وتحديد الأثمان بناء على أسعار المزايدات العامة، والحفاظ على استقرار أسعار الصرف . أنظر: محمد المنوني: "خطة الحسبة في المغرب"، مجلة المناهل، ع 4، السنة السادسة مارس 1977، ص 212

22- روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية ، م س، ص 437

23- محمد فتحة، م س، ص 151

24- بوشتة بوعسرية، م س ، ص 161

25- محمد فتحة، م س، ص 162

26- عبد السلام الضعيف: تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، 1986، ص 336

27- محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار ، م س ، ص 83

28- نفس المرجع، ص 84

29- بوشتة بوعسرية: مكناس وأحوازها، م س، ص 157

30- يقول احد المستكشفين الإنجليز: " في تمبكتو يمكن للمستهلك أن يعثر على البلغة الفاسية والحايك الفيلالي" ، أورده محمد المنصور في دراسته، المغرب قبل الاستعمار ، م س ، ص 85

31- أحمد تافسكا : تطور الحركة العمالية في المغرب ، 1919-1939 ، الطبعة الأولى، بيروت، 1980، ص 55

32- تقرير قام بتعريبه محمد المكي الناصري، وصدر سنة 1957 ، ص 19، أورده بوشتة بوعسرية في دراسته الآنفة ذكرها.

33- تمثل هاجس الفرنسيين ، وخاصة ليوطي أول مقيم عام فرنسي، إبعاد المغاربة عن أي مخطط من شأنه عرقلة انتشار الاحتلال الفرنسي بالمغرب، لذلك سعت إلى تنظيم هذه المعارض ، بهدف إلهاءهم وصرف نظرهم .

34- أحمد تافسكا: تطور الحركة العمالية، م س، ص 56

35- Bulletin Economique et Social du Maroc , octobre 1938

36- Bulletin Economique et Social du Maroc, janvier 1938

37- كان عدد الحناطي في باقي المدن على الشكل الآتي: مكناس 3000 حرفي، مراكش : 115 حنطة وتشغل 10.000 حرفي، سلا : 90 حنطة وتشغل 1800 حرفي، الرباط : 89 حنطة وتشغل 5000 حرفي.

معطيات أوردها المرحوم بوعسرية بالاعتماد على بعض الوثائق الفرنسية حول التنظيمات الحرفية بالمغرب. هامش : 41 ص 170 من دراسته السالفة ذكرها

38- أحمد تافسكا ، م س ، ص 57

39- يشير روجي لوطرنو، إلى أن البلغة الفاسية تلقت ضربة موجعة بالسوق المصرية ، لما تم تصدير منتوجات جلدية ذات جودة رديئة، أمر دفع المصريين إلى نهج سياسة حمائية، وفرض رسوم جمركية قيمتها 25 فرنك عن كل بلغة تلج السوق المصرية في عشرينيات القرن الماضي، وهي رسوم باهظة أثرت بشكل كبير على تجارة الجلود ومنتجاتها. ونفس الأمر ينطبق على السوق السينيغالي التي كان الخرازون الفاسيون يصدرون إليها كل سنة من 10.000 إلى 15000 زوج من أحذية الرجال و2500 «شربيل" للنساء بثمن 16 فرنك للزوج، لكن وكنتيجة للمنافسة سواء الداخلية أو الخارجية، فقدت حرف الدباغة بالمدينة بريقها وزبنائها التقليديين.

40- R. Le Tourneau : « Les cordonniers de Fès » , hespris, 1936,2 trimestre.

41- أكثر من 350.000 زوج من الأحذية اليابانية تم تصديرها إلى فاس لوحدها، وهو ما خلف أثرا عميقا على صانعي البلغة بالمدينة. بوشتة بوعسرية، م س ، ص 171 ، هامش 46.

42- بوشتة بوعسرية: م س ، ص 164

43- موجز تاريخ المغرب، مس ، ص 34

44- أورده أحمد تافسكا في دارسته، م س ، ص 99

45- أحمد تافسكا في دارسته، م س ، ص 56

46-Jean Mothes : « Considération sur Les divers Aspects du problème de L'artisanat Marocaine », BEM , n°26, 1945, p 30

47- Prosper Ricard : « Pour une première étape dans la modernisation de L'artisanat Marocaine », BEM, 1945

48-عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، م س، ص 130

49- Jean Mothes : Considération, op cit p 32

50- René Gallissot : Le patronat Européen au Maroc (1931-1942), Edition technique Nord Africaine , Rabat, 1964 pp 30-32

51-عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، م س، ص 130

52-نفسه

53-حمادي أشيبان: " انعكاسات الأزمة الاقتصادية العالمية 1929 على المغرب"، مجلة أبحاث، عدد 54، السنة الخامسة، 1991، ص 54

54-موجز تاريخ المغرب، م س ، ص 309

المصادر والمراجع

أولا: العربية

1-أحمد تافسكا: تطور الحركة العمالية في المغرب، 1919-1939، الطبعة الأولى، بيروت، 1980.

2-ألبير عياش: المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونورالدين سعودي، دار الخطابي، ط1، 1985.

3-بوشتة بوعسرية: مكناس وأحوازها، 1900-1939، الاقتصاد- المجتمع-التنظيم الإداري، تنسيق ومراجعة محمد الشريف، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، 2005.

4-تقرير قام بتعريبه محمد المكي الناصري، وصدر سنة 1957.

5-حمادي أشيبان: " انعكاسات الأزمة الاقتصادية العالمية 1929 على المغرب"، مجلة أبحاث، عدد 27، السنة الخامسة، 1991.

6-روجي لوطورنو: فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، 1992

7-عبد السلام الضعيف: تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، 1986.

8-عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، الشركة المغربية للطبع.

9-محمدبوكبوط: فاس في العصر العلوي الثاني، الواقع والدلالات، ضمن مؤلف جماعي حول تاريخ مدينة فاس، تحت إشراف محمد مزين، الطبعة الأولى 2010.

10-محمدفتحة: " تنظيم المجال الحضري داخل المدينة المغربية في نهاية العصر الوسيط" ، ضمن مؤلف جماعي : وقفات في تاريخ المغرب، تنسيق عبد المجيد القدوري ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، الطبعة الأولى 2001، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء.

11-محمد فتحة: " جوانب من الحياة الاقتصادية المغربية خلال العصر المريني"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ع 2، 1985.

12-محمد المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ط1، مطبعة الأمنية، الرباط، 1973.

13-محمد المنوني: "خطة الحسبة في المغرب"، مجلة المناهل، ع 4، السنة السادسة مارس 1977.

14-محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار 1792-1822، ترجمة محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2012.

15-موجز تاريخ المغرب، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعرف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى،2015.

ثانيا: الأجنبية

1- Boumont (Guy) : L'avenir des corporations artisanales au Maroc, l'exemple de Meknès, 1949.
2- Bulletin Economique et Social du Maroc, octobre 1938.
3- Bulletin Economique et Social du Maroc, janvier 1938.
4- D.Rivet : Lyautey et L'institution du protectorat française au Maroc, 1912-1925.
5- Jean Mothes : « Considération sur Les divers Aspects du problème de L'artisanat Marocaine », BEM, n°26, 1945.
6- Les Métiers Manuels à Fès, Hespris, 1924.
7- Massignon (R) : Enquêtes sur les corporations musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc d'après les réponses à circulaire résidentielle de 15-11-1923, Ed, E,Le Roux.
8- Prosper Ricard : « Pour une première étape dans la modernisation de L'artisanat Marocaine », BEM, 1945
9- René Gallissot : Le patronat Européen au Maroc (1931-1942), Edition technique Nord-Africaine, Rabat, 1964.
10- Roger Le Tourneau : La vie quotidienne à Fès en 1900,Paris, Hachette, 1965
11- Roger. Le tourneau : « Les cordonniers de Fès », hespris, 1936,2 trimestre.

ملحـــــــق :دليل الحرف التقليدية

الحرفة	المنتوج
	حرف الجلد
خراز	صانع البلاغي للرجال وإصلاح البالي منها
شرابلي	صانع شرابيل النساء
روايحي	صانع المشاية للسناء
صبابطي	صانع الصباط
شكايري	صانع الشكاير
بزاطمي	صانع البزاطم
سطارمي	صانع الأرائك
الدباغون	تهيئ الجلود حتى تصبح جاهزة
الجبابديون	صناع النطاقات الجلدية والأجرية أي الشكاير والمخاد واغشية المكاحل
السراجون	صناع اللبد للسروج
الركايبية	صناع ركابات السروج للخيل والبغال
البرادعيون	عملة الأكافات للدواب والسرج بخصوص البغال
	حرف الحجر والطين
الزلايجيون	صانع الزليج
الرخاميون	صانع الرخام أو نقاش
اللواجريون	صانع الآجور
الجيارة	يطبخون الحجر لصنع الجير
المسامرية	بائع المسامير
القزادريون والفنايريون	صانع وأدوات القصدير
القدارون	صناع القدور للطبخ
الركازون	الذين يجصصون السطوح والأرض
اللواحون	يبنون الجدران بالجير مضاف إليه التبن
القلالون	باعة أنواع الخزف
الجباصون	النقش على الجدران والأبواب
الفخارون	صناع الخوابي والأكواب والمجامير والمقلات
	حرف الفلاحة
الرحويون	يسهرون على طحن القمح وباقي أنواع الحبوب كالشعير والذرة
الوظافيين	يضفرون ورق النخيل والدوم لصنع القفف
السلالين	صانعي السلات من القصب
الحصارين	صانعي الحصر
البيطاريين	معالجو الدواب والمواشي
العيارين	سماسرة الحبوب والسكر والفواكه البابسة والصابون
الشماعون	صناع الشمع
البقارين	يتاجرون في لبن البقر

اللبانين	يتاجرون في اللبن والزبدة بالتقسيط
الشراطين	يغزلون القنب لصنع رباطات الدواب والشباك لنقل المحصولات والتبن
الصباغين	يصبغون القطن والحرير والكتان والصوف والثياب
الحرارين	صناع الحرير
الخراطين	صناع دواليب غزل الصوف
الخبازين	صناع الخبز
	حرف الغزل والنسيج
زرادخي	صناع قماش الزردخان
شراط	صانع شريط الدوم والقنب
طرابشي	صانع الطرابيش
نيار	صانع النير أي نول المناسح للحرارة والدرازة
مصار	صانع الحصر
دراز	صانع النسيج والزربية والحنبل والأغطيات
مضايمي	صانع مضمات النساء
البزازين	باعة البز وهو الثوب
	حرف الخشب
العوادين	صانعي الأدوات الفلاحية كالمحاريث، المدراة، ألواح تصفية الحبوب، المغرف، الأقداح، القصع، عصي الفؤوس، الأخبية، الأكواب الخشبية
القبابين	صانعي مكاييل الحبوب التي تعرف بالمد، سعته 28 كلغ
السرايرية	صانعي أسرة المكاحل
الروابزية	صانعي الرابوز او الكيارين
القراشلية	صانعي القراشل
النشارون	ينشرون الخشب
الزواقين	يرسمون أشكالا ملونة على الخشب بالصباغة
	حرف التجارة
سقاط	البائع بالتقسيط
جمال	من يتاجر بالجملة
حوانتي	صاحب حانوت او دكان
القشاشون	بائعوا الفواكه اليابسة
الصابونيون	يصنعون الصابون البلدي
	حرف أخرى
براح	منادي
دلالة	للتوسط في عملية البيع والشراء
قابض	للأكرية والغلات
الحدادين	صناع سكك المحاريث وصفائح البهائم وشبابيك المنازل والمداري الحديدية والفؤوس
القفايلية	اللوازم المعدنية التي تخص الأبواب كالمفاتيح والأقفال و " الزكارم"

دور المرابطين في ربط المغرب الأقصى بإفريقيا جنوب الصحراء القرنين 5و6هـ/11و12م

عبد الواحد غنامي
باحث في التاريخ الوسيط

التأصيل للمرابطين:

هم كافة القبائل الملثمة التي تشكلت من قبائل كبيرة ذات انتشار واسع على الحافة الشمالية للصحراء الإفريقية الكبرى إلى غاية الحدود الجنوبية للمغرب، وخاصة قبائل كدالة ومسوفة ولمتونة.

ـ **لمتونة:** وهي أقوى القبائل، وأهم مجالاتها وسط وشمال غرب الصحراء الكبرى وتراقب خط التجارة بين درعة شمالا و أودغشت جنوبا، وهو أهم الطرق لوجود الآبار والعشب في مجالها؛ كما تراقب لمتونة قسما من طريق الساحل بين نول لمطة شمالا، ومصب نهر السنغال جنوبا[1]

ـ **كدالة:** ومجالاتها جنوب غرب الصحراء الكبرى وهي أقرب إلى بلاد الزنج(غرب موريتانيا حاليا) قال البكري عن بني جدالة " وهم يجاورون البحر وليس بينهم وبينه أحد".

ـ **مسوفة:** لعبت دورا بارز في صلة المغرب بمجاله الصحراوي من خلال انتشارها وتحكمها في مجالات قاسية وقليلة الخصوبة، امتد من سجلماسة بتافيلالت إلى أودغشت جنوبا. قال ابن حوقل عن مسوفة " لهم لوازم (ضرائب) على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل، ومن الراجعين بالتبر من بلد السودان"[2].

وتميزت قبيلة كدالة بكثرة العدد، بينما اشتهرت قبيلة مسوفة بقدرتها العسكرية، وبأن أفرادها أجمل البربر صورا[3]. وتمتاز هذه القبائل بالشجاعة الفائقة، والقدرة على تحمل الصعاب والمشاق، والتحرك السريع ففيهم البسالة، والجرأة، والمهارة في ركوب الإبل.

لقد تحدث عنهم عبد الرحمان ابن خلدون، واعتبرهم الطبقة الثانية من صنهاجة، كما حدد مجالات انتشارهم وتحركاتهم وبعضا من خصائصهم، وما كان لهم من الملك والسلطة بالمغرب قائلا: **"هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها. فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد، وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذا**

---

[1]ـ أحمد عزاوي، مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي، الجزء الثاني، ط 3، سنة 2012، ص 14.

[2]ـ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 99، ط. دار الحياة بيروت، البكري المسالك والممالك، ص 866-867 رقم 1447.

[3]ـ عبد الرحمان إبن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 6 ص 373.

عن العمران، واستئناسا بالأفراد، وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر".[1]

كانت هذه القبائل الصنهاجية تراقب إذا التجارة القفلية وتتأثر بالظروف السياسية شمال وجنوب الصحراء، وكان يظهر داخلها أحيانا تكتلات سياسية لمواجهة الخطر الزنجي القادم من الجنوب، منها حلف القرن الهجري الذي أوصل مجال كدالة إلى مصب السنغال، وحلف أخر بزعامة لمتونة فشل في نهاية القرن الرابع. وكان التنافس قائما بالأساس حول بسط النفوذ على المراكز التجارية جنوب الصحراء وخاصة أودغشت، بصفتها أكبر مركز تجاري يربط بين ممالك السودان الغربي جنوبا والإمارات المغرب الأقصى شمالا (**الإدريسية ـ المدرارية ـ بورغواطة....)** وسينجح الحلف الجديد في إطار الحركة الإصلاحية التي تزعمها عبد الله ابن ياسين[2].

عرفت قبائل لمتونة ومسوفة وكدالة بالملثمين، لاتخاذهم اللثام شعارا لهم، يميزهم عن سائر قبائل المغرب، وهم يأخذون اللثام منذ طفولتهم فيعتقدون أن ظهور الفم عورة يجب إخفاءها، أو أن الفم سوءة تستحق الستر كالعورة[3] فلا يتركون اللثام ليلا، أو نهارا فيذكر البكري أنهم؛ لا يفارقون ذلك **(اللثام)** في حال من الأحوال[4] بل إنهم لا يعرفون بعضهم البعض إلا بهذا اللثام، ولا يستطيعون التمييز بينهم إلا به، ولا يميز الرجل من وليه، ولا حميمه إلا إذا تنقب، وكذلك في المعارك، إذا قتل منهم القتيل، وزال قناعه، لم يعلم من هو حتى يعاد قناعه، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم، وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان[5].والرجال هم فقط الذين يتلثمون، أما نساؤهم فهن حواسر الوجوه، ويبذو أن العرب هم الذين أطلقوا عليهم هذه التسمية، كما يبدو أنهم لم يكونوا محجبين أيام الرومان، والبيزنطيين، لأن لاذكر لهذه الخصلة المميزة في كتابات القدماء[6].

وقد ذهب المؤرخون والرحالة مذاهب شتى في تفسير أسباب اتخاذهم اللثام، من ذلك ما ذكره المؤرخ ابن خلكان من أن اللثام كان سنة لهم يتوارثوه خلفا من سلف، وفسر سبب اتخاذهم اللثام بأمرين، الأول؛ أن الخاصة كانوا يتلثمون لشدة الحر والبرد، ثم قلدهم العامة؛ والثاني أن قوما من أعداءهم كانوا يقصدون غفلتهم عند غيابهم، فيأخذون أموالهم، ويسبون حريمهم؛ فأشار عليهم بعض مشايخهم أن تتخذ النساء زي الرجال، ويرسلوهم في ناحية، وأن يقعدوا هم في البيوت ملثمين في زي النساء فإذا أتاهم العدو، وظنوهم نساء خرجوا عليهم، ففعلوا ذلك، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم فلزموا اللثام تبركا بما حصل لهم من الظفر بالعدو[7]. وهناك من ربط ارتداء هذا اللثام والعقلية الخرافية التي ظلت مهيمنة على أذهان المجتمعات الصحراوية، فكان هذا الرداء نوعا من السحر يعتقد صاحبه أنه يدفع عنه الأذى ويجلب له الخير والمنفعة ثم أصبح عادة[8] .

وبعد اندثار الدولة المرابطية، بدأ يظهر مصطلح جديد يطلق على قبائل الملثمين، وهو ما يعرف ب: **الطوارق؛** بحيث اعتبر بعض الدارسين أن كلمة الطوارق مشتقة من كلمة تركة، وهي قبيلة من قبائل الملثمين في العصور الوسطى. كانت تنتشر في واحة درعة بجنوب المغرب الأقصى، ولما انهارت الدولة المرابطية، وتلاشى الحلف المرابطي، تفرقت هذه القبائل في الصحراء الإفريقية الكبرى، وأخذت تنمو تدريجيا، ملامسة التخوم الشمالية للصحراء المذكورة. فهيمنت على قبائل الملثمين وضمتها إليها، مما دفع قبائل ترغة إلى الهجرة نحو الشرق، فبقيت في هذه المجالات إلى يومنا هذا فعمم اسمها على باقي

---

[1]ـ المرجع نفسه، ص 373.
[2]ـ أحمد عزاوي، مرجع سابق، ص 15.
[3]ـ إبن حوقل، مرجع سابق، ص 99.
[4]ـ أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص170.
[5]ـ المرجع نفسه، ص 170.

[6] -BOVILLL ;E ;W ; The Golden trade of the moors.p51
[7]ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء الزمان، ج 7 ص129، مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص 28،إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9 ص 260، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج 22 ص 62.
[8]ـ أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين،ص 62.

الملثمين، فأصبحوا كلهم يعرفون ب الطوارق. بينما هناك من اعتبر أن اسم الطوارق مشتق من كلمة **تاركا** أو **تريكة**، بدليل أن قبيلة تاركا كانت في القرن 8هـ / 14م تتوسع وتنتشر لتشمل البلاد الواقعة شرق جبار الهكار الجزائرية، وبفعل قوتها استطاعت أن تسيطر على القبائل المجاورة، فبدأ اسمها يسحب على مجمل القبائل الواقعة تحت نفوذها، فظهر شعب الطوارق كقوة بديلة متعددة الأعراق، ينتشر فوق مجالات شاسعة بمحاذاة الصحراء الإفريقية الكبرى.

الخصائص الطبيعية والمكونات الجغرافية لغرب إفريقيا أو السودان الغربي:

قبل الحديث عن انتشار الدعوة الإسلامية و العلاقة التجارية في غرب افريقيا، يجدر بنا أن نحدد بعض المفاهيم الجغرافية التي سيتعرض لها مقالنا هذا. ومن المفاهيم اصطلاح غرب افريقيا والسودان الغربي وكلاهما يدل على ما نسميه بمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء التي تمتد في القارة من بحيرة تشاد في الشرق حتى ساحل المحيط الأطلنتي في الغرب، وقد عرفها الكتاب العرب ورحلاتهم على أنها البلاد التي يحدها بحر الظلمات (**المحيط الأطلنتي**) من الغرب، وحدود بلاد الحبشة الغربية من الشرق.

ويمتد السودان الغربي حسب هذا المفهوم من ساحل السنغال حتى حدود نيجيريا الشمالية؛ ونقطة ارتكازه هي حوض السينغال وحوض نهر النيجر الأعلى والأوسط[1].

يبذو أن أهم سمة تميزت بها إفريقيا جنوب الصحراء هي القحط والجفاف إذ " **يشكل سقوط المطر في إفريقيا مشكلة خاصة لأنه يتركز عادة في فصل واحد من السنة وغالبا ما لا يكفي لسد المطالب المفروضة على الأرض**"[2]،مما أدى إلى ندرة المياه التي اعتبرت دوما أم القضايا بالنسبة إلى الشأن السوداني خاصة، والإنسان الصحراوي عامة، إذ تتحدث المتون التاريخية عن حيوية هذه المادة وكيف كانت عقبة كأداة أمام كل من سولت له نفسه اقتحام مجالات هذه الأمم الزنجية. كان مشكل الماء من المشاكل المؤرقة جدا للتجار والرحالة والمستكشفين ولكافة البعثات الدبلوماسية والسياسية نحو الديار السودانية.

اضطر المتجهون إلى هذه البلاد إلى قطع أميال كثيرة ومسافات طوال فوق مجال صحراوي حار، خال من نقط الماء، ولا وجود فيه لأنهار أو أبار برك مائية، أو عيون ومنابع معينة؛ وفي حالة وجود بعض منها فإن صعوبات كثيرة تلوفها؛ منها أن ماءها يكون أُجاجا شديد الملوحة ومنها أنها توجد على عمق شديد يصعب معه اغتراف الماء لانعدام حبال توصل الدلاء إليه. ورغم صعوبة الصحراء فإنها شكلت مجالا لتلاقح الحضارات والتفاعل الإيجابي بين ضفتيها الشمالية والجنوبية تماما كما كان الحال بالنسبة إلى البحر الأبيض المتوسط الذي شكل عامل التقاء واجتماع لمختلف الشعوب أكثر مما فرق بينها إلى أن صارت البحيرة المتوسطية مهدا للحضارات القديمة التي امتازت بقوتها وسموها وخصوبتها فكرا وعقيدة واجتماعا وعمرانا وزراعة وصناعة وتاريخا.....، لكن السؤال الملح في هذا الباب هو ما الباعث على تحمل الإنسان لكل صعوبات الصحراء بأهوالها وحرها وقرها؟ هل هناك من شيء امتازت به عن غيرها من المجالات حتى أرغمت المستكشفين وكافة البعثات ـ الدبلوماسية ـ والحمالات العسكرية على المخاطر بأرواحها والمغامرة بالنفس والنفيس في عالم يكاد أن يكون كله عجيبا وغريبا، لا مألوف فيه ولا معتاد، كل ليلة من لياليه فيها جديد لزائرها، وكل فضاء من فضاءاته مشفر ومحتفظ دوما بسره وكنهه بالنسبة إلى واصليه؟

مهما يكن فهذا لا يخفى عن الدولة المرابطية فهي ولدت من رحم الصحراء؛ وبالتالي فدخول تحدي السفر والزيارة لمثل هذه المناطق تعودت عليه القبائل الصنهاجية، إذن فهذا التفسير لا يخرج عن كون إفريقيا جنوب الصحراء تتوفر على أشياء نادرة لا توجد في مجالات غيرها، وأن هذه الأشياء تعد المفتاح الأساس لأسرار العظمة والقوة والرغد بالنسبة إلى المتحكمين فيها والمستفيدين منه؛ إذ مهما كانت ادعاءات الكتاب والمؤرخين بأن تحمل

---

[1] ـ عبد الله عبد الرزاق إبراهيم و شوقي الجمل، دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث، القاهرة 1998، ص 5.

[2] ـ رونالد ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمه من الإنجليزية إلى العربية الدكتور راشد البراوي، الفجالة، 1996، مكتبة الوعي العربي، ص 11.

كل تلك الظروف المهولة كان من أجل محاربة أو نشر فكر ما، أو بغية إيصال رسالة حضارية ما إلى مجتمعات الصحراء، فإن ذلك غير كاف ولا مقنع لتبرير كل أنواع العذاب الذي كان يلاقيها قاصدو إفريقيا جنوب الصحراء.

ولقد حملت هذه المنطقة مشعل الحضارة الإسلامية، وتبنت شعوبها الدعوة لنشر الدين الإسلامي لأنها بيئة تسهل الهجرات وتساعد على انتقال الجماعات وتتيح الاحتكاك الثقافي، وهذا ما هيأ لهذه المنطقة فرصة قيام وحدات سياسية واجتماعية مترابطة بها ومنها التجربة المرابطية.

توسع ملوك الملثمين على حساب مجالات إفريقيا جنوب الصحراء:

كانت القبائل الملثمة تتنافس مع قبائل أخرى من أجل الحصول على مجال أكثر شساعة وأهمية في اتجاه الجنوب، وخاصة بعد تضايق هذه القبائل من ممارسات القوى السياسية خلال الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب انطلاقا من القرن الثامن للميلاد؛ إذ في كل مرة كان العرب الفاتحون يقتربون من المجال الصنهاجي، كان الملثمون يهاجرون جنوبا باتجاه إفريقيا جنوب الصحراء؛ حيث المجالات المائية الخصبة بحوضي نهر السينغال غربا ونهر النيجر شرقا، وصولا إلى نهر غامبيا جنوبا، إلا أن هذه الأحواض النهرية كانت تحث نفوذ قوى قبلية هائلة؛ **كالصونغاي والسوننكي والتكرور والسرير والولوف.**

تزايدت هذه الرغبة في التوسع لدى الملثمين مع مرور الوقت، حيث استطاع الملثمون التوحد فيما بينهم، وتكوين عصبية قبلية ذات شوكة ومناعة، مما أهلهم إلى الظهور على باقي القبائل في المجالات الصحراوية، وتنظيم أنفسهم بعد الفتح العربي الإسلامي فتخلصت من المجوسية، واعتنقت الدين الإسلامي، وظهر من بين أفرادها زعماء سياسيون كبار ينحدرون من لمتونة، قادوا الملثمين إلى الغلبة والهيمنة على غيرهم. الذين مهدو لظهور الرعيل الأول من حكام المرابطين بعد القرن العاشر للميلاد مع زعماء كبار من لمثونة وهم الإخوان؛ **الأمير يحي بن عمر اللمتوني**(1056م/448ه) **والأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني**(1086م/480ه) وابن عمهما **يوسف بن تاشفين**(1106م/500ه).

لقد كانت قبائل الملثمين خلال هذه الفترة قد خبرت هذا المجال وتركزت كل قبيلة في جهة معينة، وقد تحدثت المصادر التاريخية عن العوامل التي ساعدت هذه القبائل الصنهاجية على اكتساح هذه المجالات الصحراوية القاسية من جنوب المغرب إلى إفريقيا جنوب الصحراء وتغلبهم على من كان يسكنها قبلهم، ففسروا ذلك بما امتازت به هذه القبائل من الشجاعة والقوة وتحمل الصعاب والعناء والتأقلم السريع من مقتضيات الأوضاع في الفيافي والقفار، اتخذوا من الجمال مطايا لهم، ومن الطوب والحجارة سكنا لهم، وبذلك فالمغرب قد ارتبط بجنوب الصحراء قبل اعتلاء المرابطين الساحة السياسية في الغرب الإسلامي لعقود خلت.

كل هذه التراكمات التجارية والاقتصادية والسياسية مهدت السبيل أمام عمليات اتصال مستقبلية بين المغرب والسودان الغربي، خاصة بعد نجاح المرابطين في فرض سيطرتهم على الشأن السياسي بالمغرب والأندلس حيث جعلوا من افريقيا جنوب الصحراء هدفا استراتيجيا لهم ، فقد بدأ **الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي** جهاده بتطويق قبائل كدالة ثم انتقل إلى قبائل لمتونة، ومن بعدها قبائل مسوفة حتى امتلك جميع بلاد الصحراء وتوجه نحوى الشمال، ثم عاد إلى الصحراء لنشر الإسلام في أهلها فسلك في ذلك مسلك الغلظة والشدة، لم يرافق أبو بكر بن عمر اللمتوني شيخه عبد الله بن ياسين في هذه العودة نحو الصحراء؛ بل عينه أميرا على درعة من أجل تثبيت أمر المرابطين بها، وكلفه بمراقبة ما قد يحدث في سجلماسة من قبل بقايا **مغراوة** ومن يساندهم من القبائل **الزناتية**، أما عبد الله بن ياسين ويحي بن إبراهيم فقد نزل نحو إفريقيا جنوب الصحراء من أجل إخماد نار الفتن التي اشتعلت بعد استشهاد **ابن تيفاوت الصنهاجي** في معاركه ضد مملكة غانا وأوداغشت؛مما سبب في تلاشي روابط الحلف الصنهاجي وتراجع هيبة اللمتونين كل هذا وذلك حتمت الظروف المحلية بالمغرب الأقصى تدخلات عبد الله بن ياسين محدودة

نسبيا مما سيهيئ الظروف لأبوبكر بن عمر اللمتوني الغوص في المجال الصحراوي الغربي.

تولية أبو بكر بن عمر اللمتوني الحركة المرابطية:

كان أبو بكر بن عمر اللمتوني الرجل المناسب للحركة المرابطية، وخاصة فيما يتعلق بنشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء بعد وفاة شيخه عبد الله بن ياسين 1059م/451ه أثناء حربه مع **إمارة بورغواطة** في تامسنا؛ إذ انصبت جهوده على إفريقيا جنوب الصحراء، فبينما كان منهمكا في أشغال بناء مدينة مراكش عام 1062م/ 454ه، جاءته أنباء من الصحراء تتحدث عن اندلاع الاقتتال بين أبناء الحلف الصنهاجي، وما لذلك من انعكاسات على التواجد المرابطي في التخوم الصحراوية فاتخذ ثلاثة إجراءات قبل العودة إلى الصحراء:

ـ تعيين ابن عمه يوسف بن تاشفين لينوب عنه في قيادة الحركة المرابطية في المغرب: فهذا الرجل ذو سداد وورع وقوة وخبرة في الشأن الحربي، وفي تسيير وإدارة مناطق خطيرة؛ مثل واحات درعة وتافيلالت خلال فترة عبد الله بن ياسين.

ـ تطليق زوجته زينب النفزوية ووصيته لإبن عمه يوسف بن تاشفين بالزواج منها، قائلا إياه **"تزوجها فإنها امرأة مسعودة"**، وفي ذلك دلالة على الأهمية الكبيرة التي أولاها أبو بكر للصحراء.

ـ اختياره لخيرة أفراد جيشه لمرافقته في مغامرته في الصحراء:

كان أبو بكر بن عمراللمتوني على قدر كبير من الفهم والإدراك لواقع الحلف الصنهاجي بالصحراء هذا الإجراء العسكري كان سيَفا ذا حدين بالنسبة له؛ فهو من جهة كان الحل الناجح بالنسبة إليه من أجل ضبط شؤون أهل الصحراء، ودرء أخطار ممالك السودان، وإيقاف أطماعها في المجالات المرابطية؛ لكن من جهة أخرى كان وَبلا على أبي بكر ، وأفقده القدرة على السيطرة على المجال المغربي؛ لأبن عمه يوسف بن تاشفين أسس جيشا جديدا يأتمر بأوامره، ويكن له ولاء شخصيا، وليست له أية علاقة بأبي بكر، ولا يعرف عنه الشيء الكثير، وهو ما أهل ابنتاشفين إلى تولي القيادة السياسية الفعلية للحركة المرابطية مستقبلا.

بعد هذه الإجراءات ارتحل أبو بكر إلى الصحراء عبر سجلماسة، فوصلها وشرع في تهدئة أوضاعها المترجرجة، بعد ذلك توجه إلى محاربة الوثنين من بلاد السودان مثل **زنوج السوننكي**[1] ، وقد دامت الحملة العسكرية زهاء عشرة أعوام؛ وبعدها عاد إلى المغرب من أجل التباحث مع ابن عمه يوسف بن تاشفين في شأن الحكم وبعد نقاش طويل خطباه أبو بكر قائلا:" **يا يوسف، أنت أخي وابن عمي، ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك، ولا أحق به منك، وأنا لا غناء لي عن الصحراء، وما جئت إلا لأسلم عليك ، ونسلم الأمر إليك، ونعود إلى الصحراء مقر إخواننا، ومحل سلطاننا**"[2].وعاد من حيث أتي، ليستقر في الصحراء مجددا لاستكمال عمليات الجهاد ونشر الإسلام بداخلها، فكان هدفه خلال هذه المرة هو تطويع إمبراطورية غانة الوثنية وإخضاعها للسلطة المرابطية.

كانت الإمبراطورية الغانية أخذة في التوسع منذ القرن الثامن الميلادي خاصة مع أسرة السوننكي، مما حتم على أبي بكر بن عمر اللمتوني في مغامرته الثانية في الصحراء هو الوصول إلى مركزها والإطاحة بعرشها، وجعلها تابعة للنفوذ اللمتوني، فكان الاستعداد لهذه الحملة قويا، فركز على الجوانب التنظيمية من مؤن وذخائر وأسلحة، وحمس جيشه إلى الجهاد في سبيل الله ومحاربة أهل البدع وعبدة الأوثان، فدخل مع القبائل التابعة للسلطة الغنية في حرب مريرة استطاع أن يلحق بها هزائم متكررة، قبل أن يتمكن من الإطاحة بإمبراطوريتها الشهيرة وذلك عام 1076م/469ه. فكانت المدة التي قضاها أبو بكر بن عمر في جهاده داخل السودان من خلال الحملة الأولى **(من 1062م/454ه إلى 1071م/464ه) والثانية (من 1071م/464ه إلى 1087م/480ه)** حوالي ربع قرن فخلفت حملتاه بالسودان عدة نتائج سياسية واجتماعية وعسكرية ثم اقتصادية...

ـ سياسيا واجتماعيا: إسقاط أكبر إمبراطورية سياسية في إفريقيا جنوب الصحراء، ممثلة في إمبراطورية غانة الشهيرة بقوة ملوكهم وغناهم مما جعل نفوذها يتسع

---

[1]ـ على بن أبي زرع، الأنيس المطرب روض القرطاس، ص 134.
[2]ـ المرجع نفسه، ص 135.

شمال وجنوب الصحراء الإفريقية الكبرى، فصار للمرابطين إمبراطورية هي الأكبر من نوعها في تاريخ المغرب الوسيط خصوصا بعد انتصار يوسف ابنتاشفين على المماليك المسحية في معركة الزلاقة بالأندلس 479ه.

ـ عسكريا: لقد استفاد المرابطون من حملاتهم العسكرية في المجالات السودانية، فاكتسبوا خبرة عالية في مجال التنظيم والإعداد وخوض المعارك خارج مجالاتهم، كما تقوى جانبهم العسكري من خلال الأعداد الهائلة من الرجال الذين توافدوا على معسكراتهم وانضموا إلى صفوفها.

ـ اقتصاديا: كانت النتائج الاقتصادية من أهم ما أسفرت عنه حملتا الأمير أبي بكر في بلاد السودان؛ لأنه تمكنه من إسقاط الإمبراطورية الغانية والسيطرة على مجالاتها البشرية والطبيعية؛ مما مكن المرابطين من وضع يدهم على أهل المسالك وطرق القوافل التجارية الصحراوية المتجهة إلى السودان شرقا وشمالا أضف إلى ذلك ما عثر عليه جيش أبي بكر من كنوز قدرت بعشرات الأحمال من التبر والنفائس، فضلا عن كون المرابطين أصبحوا بفضل هذه الحملات التوسعية جنوبا يأخذون بها؛ مثل المذهب المالكي الذي ترسخ في السودان، وصارت كتب ـ الموطأ ـ وما يدور حولها تغزو السوق السودانية، وانتعش الفكر المالكي في مجتمعات إفريقيا السوداء نظرا إلى ما فيه من قيم ومبادئ تناسب عقلية هذه المجتمعات. ناهيك عن التأثيرات العمرانية سواء على مستوى طبيعة المباني من قصور وقصبات، أو حتى الأشكال الهندسية التي أصبحت تطبع مختلف البنايات من دور ومساجد وأضرحة وغيرها.

خاتـــمة:

يمكن القول بأن المرابطين أسهموا بما فيه الكفاية في فتح صفحة جديدة من تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء حيث أسقطوا أكبر إمبراطورية سياسية ضمن المجال السوداني الغربي مما جعل السلطة المرابطية توسع مجال نفوذها شمال وجنوب الصحراء الإفريقية الكبرى، وجعلوا هذه الأقاليم والجهات الشاسعة منفتحة على الحضارة المغربية مع توالي الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، بحيث صارت بلاد السودان بمثابة عمق استراتيجي لكل القوى السياسية التي تشكلت فوق أرض المغرب بعد الإمبراطورية المرابطية.

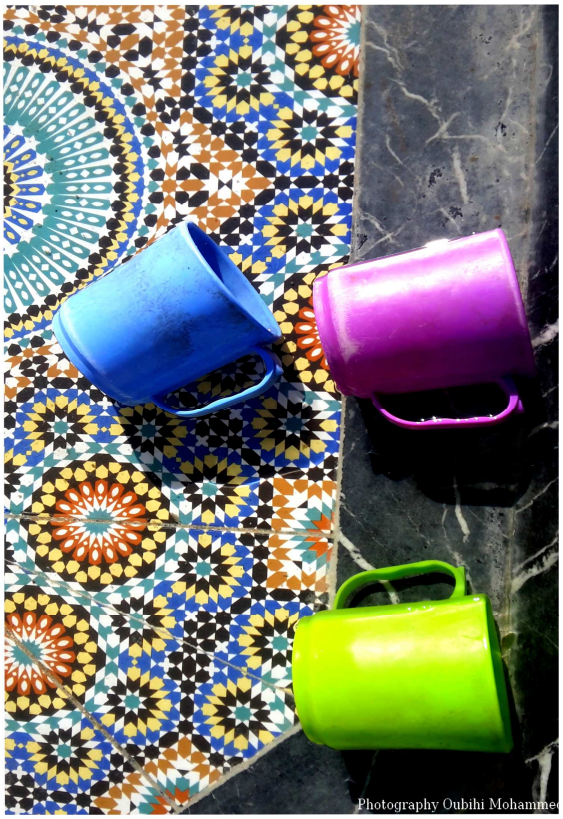

القرصنة في المتوسط خلال الفترة الحديثة: الحيثيات و التداعيات

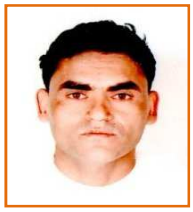

د.عبدالقادر سوداني
باحث في التاريخ – جامعة صفاقص

تلخيص

بدت ظاهرة القرصنة من أكثر المواضيع المثيرة للجدل و اللغط بين الباحثين، لأن هذا المبحث يحمل في طيّاته عدة منزلقات في الإعتماد على مصادر تناولت هذا الموضوع إنطلاقا من زاوية نظر متحاملة لأن الصراعات البحرية كانت نتيجة لإختلافات حضارية و دينية بين عدوتي المتوسط، كما أن القرصنة باتت رهانا لتباين بين مصالح متعارضة بين ضفة فقدت سيطرتها على البحر و بين عدوة تريد أن تستعمل المتوسط مطية لسيطرتها على التخوم الجنوبية .كما أن العمل البحري كان المحرار الذي حدد التواصل السياسي و التجاري بين القوى الغربية و بين الأوجاق المغربية كما ساهمت القرصنة في تطعيم الجهاز السياسي للمغارب بعناصر متأوربة حملت معها ثقافتها و نمط عيشها للكيانات المغربية.

Résume

Les guerres entre les deux côtés de la méditerranée, entre les musulmans et les pays chrétiens, ont eu de grave répercussions sur le commerce et la stabilité dans les pays méditerranéens à la suite des efforts qui visant à renforcer les aspects militaires. Mais dans le revers de ce phénomène la piraterie demeure un facteur d'acculturation et de rapprochement des deux rives de la Méditerranée dont les prisonniers et les captifs ont contribué à la diversification des connaissances et de l'artisanat et étaient des agents du pouvoir Husseinite en Tunisie.

On essai de découvrir la vérité de la piraterie, qui a été caractérisée par des inexactitudes que bon nombre des activités maritimes était faite par les puissances occidentales (singulièrement la France et l'Angleterre) sont derrière les bateaux du Maghreb afin de cibler leurs adversaires et le caractère unique du commerce en Méditerranée.

المقدمة

لا شكّ أن العمل البحري له إمتدادت راسخة في التاريخ[1]، و يحق لنا أن نزعم أن الصراع البحري كان المحرار الذي يحدد موازين القوى في البحر و تخومه حربا و سلما، وهو كذلك الإطار المحدد لطغيان ضفة على أخرى، كما أن القرصنة هي مواصلة الحرب أو الجهاد بطريقة غير رسمية و في معنى آخر هو تجارة عنفية وإعادة تشكيل الثروة و القوة بين الدول الساحلية .

منذ القرن 16 ومع بداية إنكفاء السلطة الفعلية للسلطان العثماني في الجزء الشرقي للمتوسط ، ترك الجناح الغربي للإمبراطورية تحت رحمة هجومات الإسبان، وتميزت العلاقات المغربية والأروبية بالصدام العلني والمضمر في أغلب أطوارها . وتدرج مسار السيطرة الغربية في المنطقة من التخفي وراء التبشير ومقاومة القرصنة إلى المناداة بضرورة تمدين المجتمعات التي بقيت دون مستوى تنظيم الدولة[2].

بذلك عدت السياسةالبحرية الغربية مواصلة لممارسة الحرب ولكن بوسائل جديدة[3]، و قد إتخذ هذا الصراع أشكالا شتى من الحثّ على التفتت الداخلي إلى فرض خياراتهم السياسية على الواقع المغربي .

لا مندوحة أن القرصنة كانت من أبرز الأحداث تاريخية التي طبعت أغلب التحولات في المنطقة المتوسطية ، لكن وجب التمييز بين ما ينتمي إلى البنية و ما يتعلق بالحادثة، فالبنية إن القرصنة كانت صنيعا متبادلا زمن توازن القوى بين المسلمين و النصارى، وأما الحادثة أنه طوال القرنين 18 و 19 باتت القوى الغربية تطوع القرصنة لخدمة إستراتيجيتها. و لم تستطع السلطات الحاكمة في تونس وطرابلس و الجزائر التعامل مع المتوسط كفضاء للمبادلات التجارية مما جعل هذا الأمر يرتد على الوضع الداخلي لأوجاق المغرب .

حتى يكون عملنا رصينا لا بد من الركون إلى التحديد التضافري* لفهم هذا المعطى التاريخي، الذي تداخلت فيه جملة من العوامل السياسية و الدينية والإقتصادية ليخلق واقعا مركبا زادته الكتابات الإنطباعية تعقيدا.

هنا يعنّ ببال الباحث عددا من الإستفهامات الحارقة و المزعجة من ذلك كيف أمكن لتونس وطرابلس أن تبلغ شأنها من القرصنة و هي لا تملك الأدوات اللازمة لذلك ؟ و كيف لدول تكفكف فواضل قوتها أن تركب بحرا تمخر عبابه سفن أنقلترا و فرنسا ؟ هذا البحر الذي بات بحرا غربيا خالصا بينما إقتصر دور البحرية المغربية على الدفاع عن بقايا قوة ، و لا تملك الأليات و لا الوسائل الكفيلة بذلك.

[1] مارس الإغريق القرصنة في البحر الأسود و تمكنوا عن طريقها من ربط اتصال اقتصادي و حضاري مع بحر ايجة، فحيث وجد البحر فهناك القرصنة و للقرصنة فوائد و تقارب بين الجانبين، Courtinant (R) , La piraterie barbarèsque en Méditérranée *en méditérranée XVI-XIX siécle*, préface d'evelyne joyaux, dulapha édition, Paris 2008, p 15.

[2] لمزيد التعمق حول المجتمعات البدائية راجع : Claster (P), *La société contre l'état*, Edition Cérès Tunis et édition de minuit, Paris 1974.

[3] Foucault (M) IL faut défendre la société ,édition gallimard et seuil , Paris 1997, , p 43. إن السياسة هي إستمرار للحرب بوسائل جديدة

* التحديد التضافري La Surdétermination وهو تعدد الأسباب الكافية لتفسير ظاهرة ما، فتاريخ البحر قد شابه تداخل و توظيف بعض الأعمال القرصنية المغربية لجعلها عنوانا يميز تاريخ بلدان جنوب المتوسط، و قد إقتصر أغلب الباحثين على معالجة تاريخانية القرصنة من زاوية ضيّقة.

1.العمل البحري[1] و إختلاف إستراتيجيات الفاعلين

أ.حضور المغارب في المتوسط

بدت ظاهرة العمل البحري (القرصنة) في تاريخيتها حدثا يشوبه الخطأ التقويمي و المبالغة في إسقاط أحداث الفترة القروسطية على القرنيين 18 و 19 و الذي عرف إنحسارا للأنشطة العنفية .فعكس القرن 16 أين تمكنت الأقاليم العثمانية من مجابهة القوة البحرية الأروبية، و لكن ومنذ القرن 17بدأت الغلبة تميل لصالح الدول المسيحية. فسنة 1685 و كرد على القرصنة الطرابلسية قامت البحرية الفرنسية بقيادة المارشال" دي إستريي Destri " بمحاصرة طرابلس لأيام ثم بدأ بقصفها بشدة و قبل الباشا تحرير الأسرى و دفع خطية كبيرة ثم تكرر الأمر نفسه سنة 1693 و إنتهى بتوقيع صلح تجاري لفائدة فرنسا[2]. وخلال القرن 18 تحولت الإمبراطورية العثمانية إلى موقع دفاعي تنافح عن مجالاتها ، فقد باتت القوى الأروبية متحكمة تماما في المبادلات المتوسطية فسنة 1785 و من جملة 31 رحلة تجارية بين البلدان المغربية كانت 29 رحلة عن طريق سفن أروبية[3]، لكن التهويل من القوة البحرية للأوجاق المغربية كان لخدمة إستراتيجيات الصراعات الغربية الداخلية. فتونس فقدت أسطولها البحري وبالتالي القدرة على ممارسة القرصنة منذ 1820 بعد أن تضررت القطع البحرية الثمانية الراسية بغار الملح، ثم في فيفري 1821 دمّر الريح أسطول حلق الوادي مما جعل محمود باي يميل إلى مهادنة القوى الأروبية لعدم وجود أسطول يدافع به عن البلاد .

الواقع أن القرصنة ساهمت في تهاوي الضفة الجنوبية و إستفادة الدول الأروبية ، فقد نجحت الدول المسيحية في تسخير الوازع الديني الذي وجّه السفن الصليبية نحو موانئ المتوسط الإسلامي، و باتت القرصنة أداة تخدم إستراتيجيات السياسي و التجاري. أما في تونس و طرابلس و الجزائر فقد وجهت القرصنة لضخ الأموال اللازمة لديمومة تماسك الرابطة السياسية، ففي يوم 23 أكتوبر من سنة 1784 وصل الأميرال البندقي "أنجيلو إيمو " "Angelo emo" الذي كان يشتغل بأسطول قرصنة ضد بيك تونس إلى مياه طرابلس وتمكن من أن يفرض على الباشا تجديد المعاهدة السابقة و التي تعطي للبندقية دون غيرها إمتياز إستخراج الملح من بوكماش[4]. وهو ما يكشف أن العمل القرصني الأروبي كان يتم وفق إستراتيجيا رسمية تعمل على إستعمال القرصنة لممارسة الهيمنة التجارية على البلدان المغربية، مع العمل على عدم القضاء نهائيا على القرصنة المغربية حتى تجد الدول الأروبية مبررات للتدخل في الشأن المغربي .

و غني عن البيان أن أتراك تونس و طرابلس و الجزائر كانوا من المغامرين الباحثين عن الثروة، حتى أن القرصنة لبثت أهم رافعة للأعباء المالية للحكم، و أقامت عليها الأجهزة السياسية إستحقاقات الملك مما

---

[1] نحن نميل إلى إستعمال هذا المصطلح حتى ننأى عن منزلقات مصطلحات "القرصنة" أو "الجهاد البحري" و التي تحمل شحنات إيديولوجية و تيولوجية تحايث الواقع التاريخي الذي كثيرا ما ألصق تهمة البربرية البحرية على فريق دون آخر :القرصنة la piraterie هي صعلكة بحرية أما العمل البحري la course فيعمل بالتنسيق مع السلطة بمهاجمة سفن الدول المعادية. , Fontenay (Michel)

La Méditerranée entre la croix et le croissant , *navigation, commerce, course et piraterie XVI-XIX siècle*, Edition classiques Garnier, Paris 2010, p p 212-213

[2] Dierk (Lange), Un document de la fin du 17eme siécle sur le commerce transsaharien , in *revue Française d'histoire d'outre –mer*, Tome 66, N 242-243, 1 ere et 2eme trimestre, 1979, p 211.

[3] Panzac (D) , Les échanges maritimes dans l'empire Ottoman au 18 eme S, *in revue de l'occident Musulman et de la Méditerranée* , N 39, 1985, p 179.

[4] ابن غلبون (محمد خليل)، **التذكار فيمن ملك طرابلس و ما كان بها من الأخبار** ، تعليق و تصحيح الطاهر الزاوي، مكتبة الفرجاني، الطبعة الثانية ، طرابلس 1967، ص 104.

جعل هذه الأجهزة رهينة ما يسمح به من هامش الحركة في البحر.

ففي طرابلس كان لابد أن يحتاج أحمد باشا إلى المال الكثير لكي يوسع لأتباعه في الرزق و يقوم بإلتزامات الحملات الحربية المتكررة و كانت الوسيلة الرئيسية هي القرصنة و ترك الحرية في التصرف لرؤساء بحريته[1]، و قد بلغ نصيب حكومة طرابلس 1/8 جملة عائدات القرصنة[2].

كان إمتزاج القارمنليين بالبحر شديدا لضعف عائدات الضرائب الداخلية وعدم إنتظامها، دفع الطغمة الحاكمة إلى الإتكال الشديد على مردود البحر، أما في تونس فقد وازى الحسينيون بين العمل البحري والإهتمام بالظهير الزراعي و الفحوص الخصيبة، فكانت تداعيات منع القرصنة أخف في تونس مقارنة بطرابلس و الجزائر .

وقع التهويل من قدرة كيانات المغرب على التعاطي مع البحر، فقد إفتقرت هذه الدول إلى الآليات الكفيلة بإحكام سطوتها على المتوسط[3]، إذ تكّونت القوات البحرية الطرابلسية سنة 1765 من ثلاثة سفن من نوع شابيكي ذات عشرين طلقة و 5 سفن غليوطة أسر الأروبيون منها 3، و في عهد يوسف باشا سنة 1796 كانت مجموع قوته 70 مدفعا موزعة على عدة نقاط[4]. في تونس بلغت القوة البحرية ذروتها سنة 1799، بعد إن بلغ عدد الأسطول 94 قطعة مسلحة[5]. لكن هذه القوة سريعا ما ستعرف التراجع، ذلك أنه وفي سنة 1811 وعند ورود معلومات عن هجوم بحري جزائري لم يجد حمودة باشا غير 14 مركبا حربيا لمجابهة هذا الهجوم ، و لنا أن ندرك أن حمودة باشا قد إستفاد من الحروب الأنقليزية الفرنسية ليشن غاراته البحرية على البلدان الأقل سطوة في أروبا [6] في محاولة لزيادة عدد سفنه من خلال أسر بعض القطع البحرية، والتي قد يحتاجها في حربه المرتقبة ضد داي الجزائر.

ب.البحر المتوسط و الإستراتيجيات الغربية :

في مقابل محدودية القدرات البحرية لتونس و طرابلس فان القوى الغربية إستعملت القرصنة للهيمنة على المنطقة المغربية من خلال التركيز على الإختلافات الدينية بين ضفّتي المتوسط بهدف جعله بحرا أروبيا خالصا،و لا أدل على ذلك من أن أغلب ربابنة البحر في تونس وطرابلس كانوا من الأروبيين ذاتهم و أساسا من الأرنؤوط الذين دخلوا الإسلام وتحالفوا مع السلطة وإستحوذوا على قيادة السفن. فبين 1774-1795 تولى الاسكتلندي بيتر ليسلي إمارة بحرية طرابلس وتسمى بمراد ريس بعد أن كان يعمل مع سفينة "هامبدن" وأعلن إسلامه ليتفادى محكمة عسكرية للسرقة والعصيان[7]، وكان نفس الامر في تونس فقد إحتكر المماليك القيادة البحرية[8] .

---

[1] قاسم(عبده قاسم)، **ماهية الحروب الصليبية : الإيديولوجيا الدوافع النتائج**، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية، الطبعة الأولى ، القاهرة 2004،ص 13.

[2] أبو عجيلة (محمد الهادي عبد الله) ،**النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القارمنلية و أثره على علاقاتها بالدول الأجنبية**، منشورات جامعة قار يونس، الطبعة الأولى ، بنغازي ،ص 137.

[3] ترى لوسات فالنسي أن ادعاءات القرصنة بشان دول المغرب هي ادعاءات مزعومة.....، فالنسي(لوسات) ، **المغرب العربي قبل إحتلال الجزائر 1790- 1830**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس ،ص 80.

[4] روسو(الفونس) ، **الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى إحتلال فرنسا للجزائر**، نقل عن الفرنسية و تحقيق محمد عبدالكريم الوافي، منشورات جامعة قار يونس، الطبعة الأولى ، بنغازي 1992 ، ص 302 و 315.

[5] العربي(إسماعيل) ،**العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب و الولايات المتحدة 1776 -1816**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، الجزائر 1984،ص 17.

[6] محمود الجلولي قايد صفاقس قد اغتنم هذه الظرفية و بات أحد أهم المشتغلين في القرصنة كان يملك 23 سفينة للعمل البحري، Maaly (A), Le makhzen *en Tunisie*, Maison tunisienne de l'éditio, P 55

[7] فوليان (كولان) ، **ليبيا أثناء حكم يوسف باشا قارمنلي**، ترجمة عبدالقادر مصطفى، مراجعة صلاح الدين السوراني، منشورات دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، الطبعة الأولى، طرابلس ،ص 46.

[8] كان بتونس قرابة 12 ألف مسيحي و بالجزائر 50 ألف يشتغلون في القرصنة ، مما يعني أن هياكل القرصنة كانت في بعض وجوهها

تعرض أوجاق المغرب إلى حملات بحرية دائمة عاقتها عن التفاعل مع المتوسط و تشكيل رؤية للتعامل مع الضفة المقابلة الآخذة في الاستحواذ على حوض البحر،فتفوق فرنسا و سيطرتها على التجارة في المتوسط كان بفضل التعاون و التكامل بين النظام السياسي و بين المبادرات الفردية[1]، وعولت الدول الأروبية على التأثيرات الدينية لتبرير الصراع الاقتصادي. فقد وجهت مالطا كل جهودها نحو مهاجمة المدن الساحلية لتونس و طرابلس منذ أن إستقر بها القديس يوحنا الأرشليمي و قد عمل القساوسة على تحديث القطع البحرية حتى يتفوقوا في حرب المسلمين، ففي سنة 1702 كانت بمالطا 16 سفينة موجهة للقرصنة،و قد إختصت بعض العائلات بالنشاط القرصني مثل عائلة " كاميلاري "، و رغم إن فرسان القديس يوحنا كانوا أساسا من القساوسة إلا أنهم كانوا لا يطيعون الكنيسة في الإحجام عن إستهداف المسلمين. ففي أواسط القرن 18 وجد 9 ألاف أسير من المغاربة لدى فرسان مالطا[2]، و إنضموا إلى القراصنة الانقليز والهولنديين خلال القرن 18 ثم عدلوا عنها نحو التجارة في القرن 19، لكن ذلك لم يمنعهم من المشاركة في الإعتداء على السفن المغربية مثلما حدث سنة 1770 بمشاركة السفن الحربية الفرنسية في قصف الساحل التونسي. في أواسط القرن 18 و بمناسبة التقارب التجاري بين طرابلس و أنقلترا حشدت فرنسا أكثر من 300 قطعة بحرية للممارسة النشاط القرصني ضد السفن الطرابلسية لمنع هذا التقارب. كانت الدول تنظر إلى قراصنتها على أنها قوة بحرية غير رسمية مهمتها حرب من لا يمكن حربه علنا و تتظاهر بالتبري من أعمالهم و تمدهم سرا بالمساعدات[3].

في الحقيقة فقد تكررت الأحداث الدالة على توظيف فرنسا و أنقلترا " القرصنة " المغربية لخدمة أهدافهما في المتوسط، مثال ذلك أن بونبارت قد قام سنة 1798 بتحرير قرابة الألفين من الأسرى المسلمين المشتغلين في البحر كرد على مساعي أنقلترا ضمّ جزيرة مالطا[4] .

عكس هذا الإجراء السياسي حقيقة التاريخ البحري للجناح الغربي للمتوسط الذي أستعملت فيه القوى الغربية القرصنة المغربية في الصراعات الداخلية بين الدول الأروبية و لا أدل على ذلك أن محاولة بونبارت محاربة أنقلترا بواسطة القراصنة المغاربة قد قابله في نفس الوقت تكثيف إسبانيا لأعمالها البحرية تجاه البحرية المغربية مغتنمة إنشغال فرنسا و أنقلترا بصراعهما في المتوسط.

في مقابل الإستثمار الأروبي للقرصنة لم ينفك القراصنة المغاربة على إستهداف بعض الدول الأروبية الضعيفة و التي لم تجد حماية سواء من أنقلترا أو من فرنسا.فقد إستغلت تونس وطرابلس فترات الحروب الأروبية لممارسة القرصنة مثل حرب الخلافة في النمسا بين 1740 و 1748 ثم حرب السنوات السبع (1756 و1763) بين فرنسا و أنقلترا.

دفع ضعف أدوات التعامل مع البحر و إهتزاز شرعية أداء النظامين الحسيني و القارمنلي إلى إنتقال

أدوات أجنبية مقيمة في اوجاق الغرب. Henry (Dunant), Notice sur la régence *de Tunis*, Société tunisienne de diffusion, Tunis 1975, P 41.

[1] Clerc (M), Masson (P), Histoire des établissements et du commerce Français dans l'Afrique barbaresque 1560-1793, in *Annales di Medi ; revue Archéologique historique et philologique de la France Méridionale*, T 17, N 65, 1905, p 83.

[2] Mathieux (J), Trafic et prix de l'homme sur la Médidérranée.in *Annales*, N 2, 1954, P 164.

[3] الساحلي(خليل) ، الصراع بين قراصنة تونس و الجزائر و البندقية في القرن 17، **المجلة التاريخية المغربية**، عدد 6، جويلية 1976، ص 105.

[4] La course barbaresque revisité aux17^{eme} et 18 ^{eme} siècle , In *la guerre de course En Méditerranée 1515- 1830, les journées universitaires de ville de Bonifacio 1999*, Préface de M le maire de Bonifacio, Coédition presse de l'université de Paris 4 Sorbonne et Alain pizazole, Ajaccio, p 28.

تونس و طرابلس إلى موقع المستجيب للحدث التاريخي الذي يصاغ في قصري فرساي وبرمنغهام. ووصل الحال في تونس إلى طلب حسين بن علي من سلطان مالطا سنة 1735 بعث مراكبه والتعرض للسفن بين تونس و صفاقس و جربة[1] لمحاولة ضرب خصمه علي باشا، أدت رغبة حسين بن علي في قطع أجهزة دولة علي باشا إلى التحريض على ممارسة القرصنة ضد بلاده حتى تنهار سلطة سلفه .

إغتنمت فرنسا مرور البلاط الحسيني بأزمة صراع الأجنحة إبتداء من سنة 1728 لتتهم حسين بن علي بعدم إحكام سطوته على القراصنة و بعثت ببوارجها قبالة حلق الوادي لتدفع الباي بأن يقر لها تنازلات تجارية. و قد سخرت فرنسا و انقلترا بعض أعمال القرصنة في تونس وطرابلس لأجل تمرير مشروعاتها التجارية والسياسية، فالعلاقة بين تجار مرسيليا و قراصنة مالطا تزداد وثوقا خاصة عند وجود أزمة تجارية بين فرنسا وإحدى الدول المغاربية، ففي سنة 1728-1729 إندلعت حرب بين فرنسا وطرابلس فنشطت الأعمال القرصنية للمالطيين في سواحل طرابلس[2].

كانت الأعمال القرصنية إذا ذراعا عسكريا للمعاملات التجارية، و في الآن نفسه كانت الدول الاروبية كثيرا ما تستفيد من قرصنة تونس و طرابلس لتدفعهما إلى مزيد التقوقع على ذاتها. فإذا تمعنا في الضغوطات العسكرية الغربية على البلدان المغربية التي تزايدات منذ 1815 نرى أن العمل التجاري المغاربي مع الآستانة قد تزايد في هذه الفترة .

قد يعكس هذا التحول أن العلاقات الديبلوماسية لتونس و طرابلس كانت رهينة الإستراتيجيات الأروبية التي حددت الوجهة البحرية لتونس وطرابلس أكانت بإتجاه الشرق أو بإتجاه الغرب.

أدت حسابات المصلحة و القوة في تجذير الفعل العنفي في المتوسط في دفع بلدان شمال إفريقيا إلى المساهمة في الإستقطابات بين القوى الغربية. ففرنسا و أنقلترا بدتا قطبين متصارعين" بحرب باردة" ولكنهما سريعا ما يلتحمان عند تهديد مصالحهما من قبل مزاحم خارجي و يتحزبان لمنع نشوء دولة تنافسهما في السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط. وجدت أنقلتراو فرنسا في القرصنة الضالة المنشودة التي إستحالت إلى تهديد لزئبقية إستعمالها، فدولة القرصنة[3] في أروبا قد حاربت النشاط العنفي في الظاهر لكنها لا تريد إعدامه تماما حتى توجّهه صوب البلدان المنافسة أو التي قد تشكّل خطرا على القوى المتحكمة في البحر. في المقابل كانت الكيانات المغربية تستثمر بدورها في القرصنة و ذلك من خلال ربط ممارسة السلطة بالمقدس، لتدعيم شرعيته في الداخل وكذا تدعيم خزانته بالأموال، لذلك سارع حسين بن علي سنة 1711 بالإلتزام بمحاربة أعداء الإسلام لأن الباي كان يرنو إلى تكوين بحرية تزوده بالأموال اللازمة لديمومة الحكم و تشكيل نواة من القوة النظامية، فالسلطة الفتيّة في تونس تستحضر إرث الغزو "الجهاد" و بذلك ينتصب الباي بمثابة حامي الدين و الناصر لمصالح غزاة البحر. كما أن حسين بن علي سعى للتماهي مع المخيال السكاني الذي مازال يعلي من شأن القراصنة "المجاهدين في سبيل الله"، ويحتفي بالمغامرين لذلك لبس الباي هذا اللبوس"الشريف" لشدّ أركان عرشه والإيحاء أنه جزء من المنظومة المحلية .

[1] بن يوسف (محمد الصغير) ، **المشرّع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي** ، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي ، المطبعة العصرية ، الطبعة الأولى ، تونس 1998. المجلد الثاني تونس 2009، ص 156.

[2] Matieux (J) , Sur la marine marchande barbaresques, in *Annales*, 13 années, N 1 .1958, p 89.

[3] Fontenay (Michel), La méditérranée entre la croix et le croissant……, *op.Cit*, p 214.

دفع إعتماد القارمنليين المفرط على قوة العسكر في ممارسة السلطة إلى الحاجة المتزايدة للمال لخلاص الجند و أمام شحّ أموال الجباية لم يكن أمام باشاوات طرابلس من خيار سوى التعويل على عائدات القرصنة "كان من شأن تأسيس حكم مطلق و إنشاء جيش مرتزق باهظ النفقة أن يظهر ولاية طرابلس إلى التفتيش عن أصول موارد مالية أخرى غير فرض الضرائب على شعب فقير وغير التجارة، ووجدت أن تجارة الرقيق والنهب ضروريتان لإقامة إقتصاد البلاد"[1]

و قد ذكر إبن غلبون في صيغة المدح إنصراف الناس في دولة مخدومه أحمد باشا قارمنلي إلى الجهاد البحري[2]، مما يعني أن البحر كان رهانا من رهانات الحكم و وسيلة للتأثل و الإندماج مع البنية السكانية المحلية و الوافدة.

كما كانت طرابلس مفتوحة في واجهتها البحرية على إيطاليا و البحر الأدرياتيكي والجزر اليونانية إلا أن فاعليتها البحرية كانت في تراجع مستمر .

نشطت القرصنة الطرابلسية أثناء حرب السنوات السبع بين فرنسا و انقلترا 1756-1763 و خاصة ضد الدول الصغرى و هي كلها روافد لهذا البلد أو ذاك، ثم كان عزم هذين البلدين هو ضرورة السماح لطرابلس بحرية الملاحة. لنا أن نستحضر أنه عندما كانت الولايات المتحدة تحت هيمنة الإحتلال الفرنسي و الأنقليزي كانت في الآن نفسه تنعم بحرية الإبحار و الملاحة في المتوسط ،ثم بعد إستقلالها باتت سفنها الأكثر عرضة للقرصنة. وما يدعم هذا الزعم تغاضي فرنسا عن أسر باشا طرابلس سفينتين أمريكيتين ثم تعامت تاليا عن نقض باي تونس لاتفاقه مع أمريكا سنة 1796 بعد استيلائه على سفينة " إيلز" فعملت أمريكا على تكوين حلف عسكري ضد دول المغرب وبذل الرئيس الأمريكي "جيفرسون" جهودا محمومة لأجل ذلك لكنه لم ينجح سوى في كسب دعم البرتغال في حين إمتنعت جل البلدان الأروبية لأن موانئها وسفنها آمنة، و هو ما يدل على أن واقع القرصنة التي يقوم بها الطرابلسية و التونسيون قد وقع التهويل في أمرها.

لا ريب أن التنافس الدولي في الحضور في المتوسط ألقى بتداعياته على دول الشمال الإفريقي التي دفعت إلى الإنخراط في هذه الصراعات، بل إن دول المغرب أستخدمت لأجندات خارجية كحض فرنسا لقراصنة تونس و طرابلس على إستهداف سفن بروسيا، وسخرت فرنسا أكثر من 30 قطعة بحرية لممارسة النشاط القرصني ضد طرابلس بمؤازرة سفن من إسبانيا و البرتغال و مالطا و موناكو والمدن الإيطالية عند بداية تنامي الخطر البروسي، و كان إستخدام القراصنة لأجل إخضاع الدول المغربية تجاريا يتم بصفة سرية ، فسنة 1729 تم صرف بين 30 و 40 ألف ريال لأجل إستخدام بعض القراصنة سرا.

كان إستراتيجية فرنسا مثلا تهدف إلى إضعاف القرصنة المغربية دون أن تقضي عليها نهائيا على لإستخدامها في ضرب منافسيها التجاريين[3] ، و لذلك تعددت المراسلات الصادرة عن بعض قناصل الدول الأروبية والمتعلقة بتضرر التجار الأجانب من تجاوزات الدولة التونسية لما نصّت عليه المعاهدات التجارية المبرمة بينهما[4] ، حتى أن فرنسا بدورها كانت لاتخفي

---

[1] توللي(ريتشارد) ، **عشر سنوات في بلاط طرابلس وصف شامل لذكريات صادقة عن طرائق البلاط و باشا الإيالة الحاكم وعادات و تقاليد مسلمي المغرب والعرب و الاتراك** ، نقله إلى العربية عمر الديراوي أبو حجلة، مكتبة الفرجاني، طرابلس 1956، ص 11.

[2] و إشتغال اهل طرابلس بالجهاد برا و بحرا أشهر من أن يذكر ، فجاهدها بحرا في الروم و في البر في محاربي الأعراب . إبن غلبون الطرابلسي (أبي عبدالله محمد بن خليل) ، تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس و ما كان بها من الاخبار .....، **نفس المصدر**، ص217 .

[3] كان فعل القرصنة يساعد دولة أروبية منافسة على حساب أخرى، و من هنا شاع في انقلترا المثل " لو لم تكن الجزائر موجودة لكان من الواجب خلقها "....العربي (إسماعيل) ، العلاقات الدبلوماسية....، **نفس المرجع**،ص 12.

[4] **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية ، صندوق 72، ملف 853، تاريخ 1820.

تبرمها أحيانا من القرصنة التونسية[1] لكنها لم تكن حازمة في منعها إلا بعد أن سوّت خلافاتها مع أنقلترا منذ 1818.

تغيرت مقاربة الدول الاروبية خلال القرن 19 بشأن القرصنة، فقد طرح مسالة أمن المتوسط وزير خارجية سردانيا البارون" فاليزا"على مؤتمر فيينا و كانت أنقلترا غير متشجعة لإلغاء القرصنة وإسترقاق المسيحيين[2]. بقي مؤتمر فيينا رهين صراعات فرنسا و أنقلترا حتى مؤتمر " أكس لا شابيل" سنة 1818 والذي حسم في أمر قرصنة الإيالات المغربية، لتزيد من وطأة الإنهيار لهذه البلدان وتؤكد الزعم القائل إن القوى الأروبية كانت تدير الأعمال البحرية في الواضحة و من وراء حجب.

عوّل البلاطين الحسيني و القارمنلي على مردود ربابنتهم، وهيكلوا موارد الدولة آخذين في الاعتبار أسلاب البحر، و قد وجد حكام تونس و خاصة باشاوات طرابلس عنتا في الإنتقال من إقتصاد الغنائم إلى إقتصاد الإنتاج، فقد كانت ثورة جويلية 1752 التي قام بها البحارة في طرابلس ردا على ضغوطات فرنسا وأنقلترا على محمد باشا قارمنلي، في تونس و في سنة 1770 قصفت السفن الفرنسية ساحل البلاد بعد إقدام قراصنة تونسيون على أسر مركب من كورسيكا رغم تحذير حمودة باشا من مغبة التعرض إلى غضب فرنسا، و منذ 1814 لم تعد عائدات القرصنة تذكر في زمام البايليك[3].

إعتادت منظومة الحكم في تونس و طرابلس على الإقدام على القرصنة التي أفسحتهما لهما القوى الغربية، و لئن خدمت هذه القرصنة مشروعات غربية فإنها في آخر الأمر عادت وبالا على إيالات المغرب التي فتحت ثغورها و رباطاتها إلى المنتجات الأروبية، و قد بقيت تونس و طرابلس بمنزلة بين المنزلتين فلم تعودا قادرتين على إنتهاج القرصنة سبيلا ولم تستطيعا مجابهة متطلبات الإنفتاح التجاري، وقد تعدت تأثيرات منع القرصنة العلاقة مع البحر لتمس سيادة البلاطين الحسيني و القارمنلي.

تجلت ملامح الإنهيار و عدم قدرة السلطة السياسية في تونس و طرابلس على التعاطي مع متطلبات ممارسة القرصنة ثم مع تحجيرها منذ 1818. كانت القرصنة تدر على يوسف باشا زهاء 600 ألف دولار سنويا ثم بدأ هذا المبلغ في التراجع، و لئن عرف في البداية كيف يجاري الوضع ببعض التقشف في نمط عيشه فإن إشتداد ولعه بالنساء زادت من صعوباته في ممارسة السلطة[4]. في هذه الفترة بدأت أمور السلطة القارمنلية تسوء مع إشتداد العسر المالي و نضوب الموارد ، كما أحكمت الدول الأروبية قبضتها على مبادلات تونس و طرابلس مستعملة في ذلك قوتها البحرية أمام سواحل الإيالات المغربية.

لم تستطع الإيالات المغربية التكيف مع حالة ما بعد القرصنة فربابنة البحر الذين كانوا مرتبطين بالدائرة القائدة في كل من طرابلس وتونس قد وطّنوا معاشهم على عائدات الصدام البحري و إذا نجح بعض رؤوساء السفن في تسخير مراكبهم في المبادلات التجارية فإن الغالبية الكبرى قد تاهت في خضّم هذا النظام الإقتصادي الجديد المفروض قسرا من قبل القوى الغربية. أمام قبول السياسيين لهذا الواقع الجديد ثار بعض الأتراك على محمود باي وإتهموه بتعريض جهودهم القرصنية للتنازلات السياسية بعد زيارة ملكة بريطانيا للباي وإفتدائها لكل الأسرى المسيحيين و تحصلت على إلتزام من محمود باي بمنع

---

[1] **المصدر نفسه**، س ت ، ص 206، م 82، ت 1816.

[2] ابن إسماعيل (عمر علي) ، **إنهيار الحكم القارمنلي بليبيا** ، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس ،ص 143.

[3] Chater (khalifa), Dépendances et Mutations *précoloniales ; la régence de Tunis de 1815 à 1857*, P-U-T, Tunis 1984, P 89.

إسترقاقهم لذلك عملوا على الفتك به لمعاودة نشاطهم. أما قباطنة السفن الطرابلسية فقد حملوا إلى البك عدم رضاهم عن معاهدات الصلح التي تقطع مع ما ألفوه من الثروات المتأتية من العمل البحري. بعد إمضاء الكثير من المعاهدات التي تمنع على طرابلس ممارسة القرصنة بدا أن ريّس البحر و قباطنة سفن البك غير راضين عن الصلح الذي عقده الباشا مع إسبانيا و "كيف يرضون و قد حررهم ذلك الصلح من الثروات التي كانوا يتطلعون إليها والغنائم التي تظل تلهب خيالهم حين يهاجون السفن الإسبانية" [1]، فأحالت الكثير من المعاهدات قطاعا إجتماعيا من الربابنة والتجار إلى العوز و الهامشية الإقتصادية. نصّت المادة التاسعة في معاهدة البندقية وطرابلس سنة 1764 على منع شراء الغنائم في أسواق طرابلس و التي يضخها قراصنة تونس و الجزائر وفي مقابل ذلك تمتعت سفن البندقية بحق تسويق غنائمها في طرابلس ودون رسوم جمركية[2]. أعقبت كل عملية قرصنة تونسية على السفن الفرنسية إمضاء صلح "مذل"، يقدم خلالها البايات تنازلات تجارية مثل معاهدتي 1728 و 1770.

ألبست القرصنة المغربية أكثر من دورها الحقيقي لأن الواقع أن فرنسا و أنقلترا كانتا تدفعان تونس وطرابلس إلى ممارسة القرصنة لكن مع بقاء هذا النشاط مراقبتهما[3]، فتحولت القرصنة المغربية من فعل عدائي ذو خلفية دينة إلى تجارة تربط جانبي المتوسط [4].

2.داعيات الصراع في المتوسط على الإستراتيجيات الداخلية لدول المغارب

أ.المغارب : ضعف فوهن فخضوع

أيقن الغرب أن السيطرة على السلط الحاكمة في تونس وطرابلس تسمح له بتهيئة الأرضية السياسية للحضور التجاري المباشر في الفضاء الطرابلسي و التونسي وهوما يعني فرض خيارات تتعارض أحيانا مع الإستحقاق الداخلي للسلطة السياسية، ولا أدل على ذلك أن تونس بدأت منذ 1819 في الإستنباط من التنظيم الإداري الفرنسي وخاصة الجهاز الضريبي[5] الذي كان أبرز دعائم ممارسة السلطة في تونس وطرابلس .

تنوعت أساليب التسرب الغربي على الجهاز السياسي في تونس و طرابلس مثل الدفاع عن حقوق الأقليات المسيحية في المجتمعات المغربية و أولئك الذين وقعوا في الأسر و لذلك تم تأسيس مستشفى للعناية بالأسرى المحررين بتونس سنة 1720 ليكون هذا الأمر مطية لتسويغ الوجود الأروبي داخل النسيج الإجتماعي المحلي . وقد مر هذا الأمر من التحدث بإسم المسيحيين إلى محاولة فرض حملات التبشير التي تكثفت بالجزائر و تونس منذ القرن17 . هذا النشاط الذي إستفاد من وفرة الحضورالبشري المسيحي في تونس "تونس كانت من أكثر الدول إنفتاحا على العالم غير الإسلامي و الحاضرة كان بها بين 120 و130 ألف منهم 30 ألف يهودي وفرنسا كان لها 100 رجل

---

[1] توللي(ريتشارد) ، عشر سنوات في بلاط طرابلس.....، **نفس المصدر**،ص 172.

[2] ابوعجيلة (محمد الهادي عبدالله) ، النشاط الليبي في البحر المتوسط.....، **نفس المرجع**،ص 334.

[3] عندما انقرضت فرقة القديس يوحنا سنة 1798 ظهرت 19 سفينة تجارية تونسية بمالطا مما يعكس الدور الكابح لهذه الفرقة لتجارة تونس التي أعاقتها بالقرصنة....فالنسي (لوسات) ، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر.....، **نفس المرجع**،ص 80.

[4] بدت القرصنة عامل اتصال و احتكاك بين ضفتي المتوسط و مثلت احد الأقبية التي تساوقت بها الحضارة الاروبية نحو بلدان الشمال الإفريقي ، وهو ما ينفي الرأي القائل بان القرصنة كانت عاملا للقطيعة مثلما ذهب إلى ذلك الأستاذ عبد الجليل التميمي، العلاقات الحضارية بين اروبا والإسلام في العهد الحديث بين الإنفصال و الإتصال، **المجلة التاريخية المغربية**، عدد 85-86، تونس ماي 1997، ص 67.

[5] Abel (clarim de la rive), *Histoire générale de la Tunisie dépuis l'an 1590 avant jésus – christ jusqu'en 1883*, Introduction par P. mignand, librairie E. demoflys. Paris 1883

لغايات تجارية في كامل الإيالة"[1]. فلا ريب أن حضور عدد غير هيّن من الأروبيين في تونس أوجب على السلط الغربية الحرص على مصالح منظوريها ومطالبة بايليك تونس و باشوية طرابلس بضرورة إيلاء الأوروبيون معاملة حضوى، لأجل ذلك تمتعت العائلات المسيحية والقناصل بتونس وطرابلس بحماية خاصة عكس ما هو الأمر في الجزائر إذ تجبر العائلات المسيحية على إيواء حرس الداي يكون عينا عليهم ، كما إستغل الغرب عدم تمتع الانظمة الحاكمة في تونس وطرابلس على حاضنة شعبية قوية قد تسندها أثناء الأزمات السياسية ولذلك لم يجد الفرع الحسيني أثناء فترة الصراع مع علي باشا بدا من طلب المدد من لويس 15 أمام إنسداد أفق الدعم المحلي جانبا من المشروعية السياسية للنظام التونسي يستمده من السند الخارجي. تواصل هذا الإعتماد على الدعم الفرنسي طوال الفترة الحسينية ، في هذا السياق إمتنت السلطات الفرنسية للخدمات التي يقدمها الباي للمصالح الفرنسية في تونس : رسالة تقدير و إحترام و إعتراف بالجميل والخدمات التي يقدمها الباي لمصالح و رعايا فرنسا ومتانة علاقة فرنسا و الإيالة مرسلة من القصر الملكي في 20 ديسمبر 1820[2]. في طرابلس و في أثناء الصراع القارمنلي في جويلية 1831 كان القنصل الأمريكي وسيطا بين الثوار الموالين لمحمد قارمنلي و بين الباشا ، وهوما يعني أن القنصل الأمريكي بات أحد الفاعلين المؤثرين في الواقع المحلي.

لا شك أن ظاهرة الهدايا التي تعوّد عليها حكام تونس وطرابلس ساهمت في تبعية المركز السياسي للقناصل لإنبهار الحكام و شدة تعلقهم بهذه الهدايا و كل الأجهزة والمنتوجات " الغريبة" و التي جعلتهم يسارعون بالإقبال على كل ما يفرزه الغرب من سلوك و فكر[3]. تزامن الإنبهار مع الأزمة الخانقة التي باتت تصيب الدوائر القائدة في المغرب و التي أجبرتهم على الركون للهيمنة الغربية لأن إنقطاعهم عن القاعدة الشعبية كما أسلفنا الذكر جعل بقاءهم السياسي رهينا بدعم القوى الأروبية لهم .

لا ريب أن كل مجتمع يتنج و يستجلب ما يواتيه من الأفكار و الممارسات و في هذا السياق إجتاحت تونس جملة من المفاهيم الوافدة مثل الحرية وهي من المفردات و المعاني الطارئة على المجتمعات التقليدية ومنها تونس و طرابلس، و لم تكن هذه القيم الوافدة من إحتياجات العمق الإجتماعي بقدر ما كانت فرضا من القوى المهيمنة، أما الأفكار السياسية التي حملها المد الحضاري الغربي قد أحدثت أزمة للسلط المستقبلة للأفكار لعجزها عن الإنسجام مع تبعاتها، إذ كان سفراء الدول الأروبية يطالبون بإستمرار في أوائل القرن الماضي رؤساء الإسلام بمطالب تدور جميعها حول كلمة حرية : حرية مدنية و دينية لفائدة الأقليات وحرية التعليم لفائدة الإرساليات و حرية التجارة و التنقل للتجار الأروبيين.[4]

ب.القرصنة عامل صدام و تواصل بين جانبي المتوسط

بدأت ملامح الصدام الحضاري بين أروبا الناهضة وبين المغرب المتهاوي تأخذ أشكالا عدة وخاصة منذ بدايات القرن الثامن عشر ،منها إشتداد منزع الهيمنة لدى القوى الغربية و إستعادة ذلك الصراع القديم بين دار المسيحية و ديار الإسلام . وكانت النخبة السياسية في أروبا تستحضر بعضا من إرث الصليبية للإستفادة من العون الكنسي، فلبث الفكر الديني المتعصب أحد أبرز محددات علاقة

[1] Dévez (M), *L'europe et le monde à la fin du 18 eme siécle*, Edition Albin michel, Paris 1989, p 291.

[2] *Correspondance consulaire*, tunis 1817-1820, tome 43, p 345. A. F,

[3] رسالة من أحمد باشا قارمنلي إلى القنصل الأنقليزي بتونس يسأله عن الأشياء التي أرسلها معه و يفيده بإنحسار وباء الطاعون على البلاد . **مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية** ، فهرس الوثائق العربية ، ملف 152، ملف أحمد باشا قارمنلي.

[4] العروي (عبدالله) ، **مفهوم الحرية**، المركز الثقافي العربي، الطبعة السادسة، بيروت 2002، ص 11.

الأروبيين بالمغارب و الذي هو في الواقع سليل فكر صليبي قائم على الجهل بأمة الإسلام ،" ففي أروبا الكاثيولوكية كان أصحاب الفكر والمتعلمين في أروبا من الرهبان ورجال الكنيسة الذين غلب عليهم الإنحياز و وقعوا أسرى العداء ضد الإسلام والمسلمين، كما تملكتهم الرغبة القوية في عدم المعرفة خوفا من أن يصيبهم الدنس إذا ما حاولوا معرفة شيء عن الإسلام والمسلمين"[1].

عرفت بعض بلدان أروبا رغبة في تصدير قيمها فباتت منظومتها الفكرية وكذلك شكل تنظمها السياسي عابرة للحدود القطرية، و لم يكن بوسع تونس أوطرابلس أن تنأى عن هذه التحولات المحيطة بهما، رغم ذلك بقيت بعض القوى الإجتماعية المغربية المحافظة متمسكة بالهياكل الدينية المحافظة[2]. مما خلق حالة من الصراع بين مختلف الفئات الإجتماعية التي تفاوت قابليتها للقيم الوافدة أوما يسمى بالحداثة.

فحداثة أو حديث La modernité ظهرت في القرن الرابع عشر، لكن مفهوم الحداثة ذاته لن يتخذ كل شحنته المعنوية والعاطفية إلا بعد وقت طويل على يد شارل بودلير سنة 1850 وعنت حب المرء لعصره وإحتفاله به وبمستجداته على عكس ما كان سائدا من التغني بإستمراربعظمة الماضي والأسلاف[3]، لذلك تفاوتت نسبة الإقتباس من الحضارة الغربية الصاعدة لا سيما أن العامل الجغرافي ساهم في جعل طرابلس و أساسا تونس قريبة من تأثيرات المنزع التوسعي للغرب.

لم تكن تونس أو طرابلس فضاء سياسيا منعزلا عمّا يحيط به من تحولات فرغم الصدامات العسكرية المتكررة بين بلدان المغرب و بين بعض بلدان أروبا إلا أن ذلك لم يمنع من تواصل التعاون بين جانبي المتوسط. في هذا السياق تكّثف التواصل بين بلدان المتوسط منذ أن تعددت مراكز القيادة داخل العالم العثماني.وكنتيجة لوعي الباب العالي بحتمية الإقتداء بالنموذج الغربي ، فلم تنقطع الأصوات في عهد سليمان القانوني عن تذكير السلطان و وزرائه بأن بنيان الدولة سريع العطب و بالواقع لم يدخل القرن السابع عشر حتى أخذت معالم التصدع تظهر بوضوح[4]. لقد بيّن هذا الأمر الأزمة التي بدأت تظهر بوضوح داخل الإمبراطورية، وهو ما إستدعى الحاجة إلى الأخذ بمظاهر الحداثة الغربية. عرفت الإمبراطورية العثمانية ككل دول الدنيا فترات إنتعاش و إزدهار وفترات ركود وخمول و قد إستطاعت أن تحافظ على تماسكها حتى سنة 1830 تاريخ ضياع الجزائر و بداية تفكك السلطنة. يدل الوعي بأهمية الإصلاح على أن المبادرة العثمانية المتمثلة في وضع التنظيمات الخيرية قد تزامنت بشكل واضح مع عهد الأمان في تونس. مما لا يدع سبيلا للشك في الإعتقاد بأن هذه الترتيبات و هذا التوافق الزمني قد أتى بتخطيط من الدول الأروبية و فرنسا أول من يقف وراءه خاصة و قد جاءت مباشرة على إثر ما تمخضت عنه الثورة الفرنسية سنة 1789[5]، و من نتائج تداعيات الثورة الفرنسية شيوع معنى " الحرية "[6]، فخرجت هذه المفردة عن المدلول الذي درج المسلمون على فهمه و لاسيما إعتبارها ضدا للعبودية والتسلط فأصبحت تحمل شحنة سياسية . إقتصر إنبهار اللفيف الحاكم في

---

[1] قاسم (عبده قاسم) ، أروبا و المسلمون التطور التاريخي لصورة الآخر، **العربي**، العدد 592،مارس 2008،ص 23.

[2] غليون (برهان) ، **نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة**،المركز الثقافي العربي، الطبعة الاولى ، بيروت 1990، ص 23.

[3] هاشم (صالح)، مقال في الحداثة، **مجلة الوحدة**، سنة 1989، ص 290

[4] حوراني (ألبرت) ، **الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939**،دار النهار للنشر،الطبعة الثالثة 1977 ص 51.

[5] بدري (مصطفى) ، **الرؤية السياسية من خلال رسالتي محمد بيرم الخامس ومصطفى فاضل باشا**، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، تونس 1993، ص ص 37-38.

[6] الحرية من الألفاظ التي أستعملت بكثرة و إتسع مدلولها في القرن 19 نتيجة تأثير النظم الأروبية على الفكر العربي. عبدالسلام (أحمد)، **مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية**، الشركة التونسية للتوزيع،الطبعة الأولى،تونس 1986،ص 128.

تونس و طرابلس على علامات الحضارة و خاصة الأجهزة العسكرية التي كفلت التفوّق الإجتماعي و السياسي للفيف السلطة. يمكن إعتبار أن علي باشا الحسيني كان الإستثناء الذي سلك سياسة سيادية تجاه فرنسا ، فسنة 1740 أخذ طبرقة من أهل جنوة بعد أن كانوا يدفعون ضريبة سنوية لصاحبي تونس و الجزائر وعمروا قرية تامكرت وزادوا من الحد المأذون لهم في البناء، لكن الهدف الخفي للباشا كان رغبته في قطع الطريق على كل سيادة خارجة عن سلطته والإستفادة من العائدات التي يدرها هذا المجال، وكان الباشا على إستعداد لحرب الفرنسيين لأجل ذلك، وفي مناسبة أخرى فرض الباشا على القنصل الفرنسي تقبيل يده وإحترام البروتوكول المحلي و لم يجد قنصل فرنسا بدا من الإنصياع له .

تحيلنا جملة الأحداث المتعلقة بتاريخ الأوجاق المغربية خلال القرن 18 على مرحلة الضعف التي دخلتها المنطقة المغربية ، ففي الحقيقة لقد أكّد القرن 18 طور التهاوي و ليس بداية التراجع كما ذهب لذلك بعض الباحثين بتحديد 1815 كتاريخ لإنبثاق مسار التراجع، و هو مجاف للمعطيات التاريخية وقول تبسيطي لواقع معقد،و هناك من ربط تاريخ حملة نابليون على مصر كبداية للتواصل بين الشرق والغرب1. فمنذ بدايات القرن 18 بانت المسافة العميقة التي تفصل دول المغرب عن القوى الأروبية، وكانت بقايا القوة لا تعدو أن تكون بمواطأة من الدول الغربية ذاتها حتى تتبلور الإستراتيجية المهيمنة بين القوى المتوثبة لذلك . فلا ريب أن قوة فرنسا و قدرتها على تغيير في المشهد السياسي التونسي قد دفع محمد باي إلى طلب العون من ملك فرنسا أثناء الصراع الباشي الحسيني، و فعلا كانت الميرة التي يتحصل عليها حسين بن علي عبر البحر سببا في تأجيل سقوط الباي المحاصر بالقيروان، و هوما أوجب سخط علي باشا عندما إستقام له الأمر، و لم تكن فرنسا لتقدم على التدخل في الصراع المحلي لو لم تدرك أن تونس باتت من الوهن بمكان، فتدخلات القنصل الفرنسي في السياسة الداخلية لتونس منها رفض الفرنسيين عنوة فسخ إتفاق صيد المرجان الممضى مع علي باي، ثم تدخل القنصل ديفواز في شأن 38 تونسي أسير بمالطا و قد ذكر في تقريره أنه يجب دفع الأموال أومبادلتهم بأسرى مالطيين لأجل تحريرهم[2]. و هوما يعني أن فرنسا بدأت في التدخل في شأن السياسة الخارجية للبلاد التونسية ذلك أن مالطا تعتبر من البلدان الأقل سطوة في أروبا ، رغم ذلك إستلزم تحرير الأسرى التونسيين لديها تدخل القنصل الفرنسي. منذ عشرينات القرن 19 لم يعد الباي يرفض مطالب القناصل نتيجة الوضع الذي آلت إليه الإيالة و الذي إنعكس على فريقه الحاكم ، فحسين المورالي المختص في الشؤون البرانية والمترجم الأول للباي إستهدفه القنصل الفرنسي حتى بات على أبواب الإفلاس، تكرر نفس الشيء بالنسبة إلى حسين باش مملوك الذي كان مدانا بأموال للتجار الفرنسيين[3]. مما يعني أن السلطة في تونس باتت متأثرة بقرارات القناصل الأروبيين ، و تجسم ذلك جليا من خلال منع حسين باي من التدخل في نازلة الجزائر ومعارضة القنصل ماتيو دي لسبس لسياسة الوزير شاكير. كان البلاط الحسيني لا يتورع عن الإمرة بأمر القناصل، فتقاطرهم على "الإصلاح " كان إنتقائيا، ففي ثورة فيفري 1728 أكد

[1] الجنحاني (الحبيب)، الحركة الإصلاحية في تونس خلال النصف الثاني من القرن 19، **حوليات الجامعة التونسية**، عدد 6، سنة 1969، ص 111..... عبّر هذا الرأي عن تأثر جلي بالأراء المشرقية التي تأخر إتصالها فعلا بالقوى الغربية عكس البلدان المغربية التي قدم عهدها بأروبا.

[2] A.F, Correspondance Consulaire, Tunis, Octobre 1793-décembre 1795, tome 33, p 334. تقرير من قنصل الجمهورية الفرنسية ديفواز إلى كوميسار العلاقات الخارجية بخصوص 38 تونسي أسير بمالطا.

[3] Chérif (M H), Expansion européenne et difficulté Tunisienne de 1815 à 1830, *Annales E-S-C*, Mai-juin 1970, p 728.

القنصل الفرنسي أنها الفرصة المواتية لإبرام معاهدات تجارية و صلح غير مسبوق. في مارس 1737 بعث محمد باي في موقع حصره بسوسة إلى لويس 15 وخاطبه بصديقه المخلص و ذكّره بعراقة صداقة النظامين و يخبره أن علي باشا سوف يستهدف الفرنسيين في البحر و أن سلطته لا تتجاوز مدينة تونس و بالتالي من الواجب عدم التعاون معه[1]، و قد كانت الثورة الفرنسية أحد أبرز التمفصلات التاريخية التي أكدت التفاوت و حتمية الخضوع للمحافظة على هيكل سلطتهم أو القابلية للإستعمار[2]، فطرابلس كانت مجالا للبعوث والإستكشاف مما مكن الأروبيين من معرفة دقائق الأمور في أصقاع المغرب[3] .

لم ير في الثورة الفرنسية غير إرث الحزم و الشجاعة والسطوة ، يورد إبن أبي الضياف جملة من الأمثلة التي تكشف عن إعجاب الساسة في تونس بالقوة العسكرية لفرنسا و قوة قائدها بونابارت و لم يعرّج على مفهوم القيم السياسية الجديدة التي طرحتها الثورة الفرنسية، وهوما يعد عجزا عن إدراك جوهر الثورة الفرنسية مثل الحرية و تكريم الإنسان. ففي سنة 1811 قدم سلطان المغرب المخلوع سلامة بن محمد بن عبدالله و كان قد إلتقى بنابليون في مصر، و أورد ما شاهده من حزمه و ثقوب فكره و كان حمودة باشا يتمنى أن يكون للمسلمين سلطانا مثله، في إعجاب بالعسكرة و توجس من سطوة هذا القائد "كلمه مملوكه النصراني ماريان في أمر له تعلق بنابليون الأول فقال له حمودة باشا : أنا أعلم منك بمقام نابليون، وما يجب في سياسته،وعلى كل حال فأنا الآن لا أخشاه، لأنه مشغول بما هو أهم عنده و أعظم منا، ولا تصلنا النوبة إلا بعد أن يتهنأ من دولة آل عثمان، و أين تونس من الممالك المتصدي لحربها نبليون ، و أنا لا أجهل قدري ولا أغالط نفسي و هو أعظم من أن يظن بنا عدم الإكتراث"[4]. عبّر هذا الموقف عن إدراك السلطة في تونس بتفاوت موازين القوى بين فرنسا وتونس و أن السياسة بمعناها العام هي التي أدت إلى هذا التفاوت،لكننا نسجل كذلك شخصنة الثورة في ذات نابليون بونبارت في شأن عسكرته للدولة والحروب التي خاضها و لم يقع التشديد على المنظومة الفكرية والسياسية التي أرستها الثورة. فما يهم السلطة الشرقية هو معرفة أسباب القوة العسكرية التي أصبحت تحتكم عليها فرنسا[5]، مما دفع ببعض الدول في العالم العثماني إلى تحسس إمكان التعاون مع نابليون[6]. في هذا الإطار ساعد يوسف باشا قارمنلي الجنرال الفرنسي "فوبوا Vauboisو " الذي كان يحاصر مالطا في سياق الحملة الفرنسية على مصر، و إستعمل بونبارت المالطي"سفييررو ناودي Savario Naudi " لأجل الإتفاق مع الباشا حول تسهيل إنسحاب الجنود الفرنسيين من مصر.

---

[1] Plantet (E) , Correspondance des bey *de Tunis et des consuls de France avec la cour 1577-1830*, 3 volumes, Paris 1893, p 300.

[2] ابن نبي(مالك) ، **شروط النهضة**، ترجمة عمر كامل مستقاوي و عبدالصبور شاهين ، دار الفكر، الطبعة الرابعة، دمشق 1992، ص 156.

[3] للإطلاع على حيثيات رحلات كل من الأنقليزين " وليام لوكاس " و " الميجر غوردن لاينج" و الألماني " فدريك هونرمان" راجع: كورو(فرانشسكو) ، **ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني**، تعريب خليفة محمد التليسي، المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان، الطبعة الثانية، طرابلس 1984 ، ص ص 141-142.

[4] إبن أبي الضياف (أحمد) ، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان**، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب ، تونس 2001 ، ج 3، ص 77.

[5] فرنسا نجحت بفضل الجيش الثوري عكس الجيش الأرستقراطي الأروبي تبين أن مميزات الأول الوطنية الشعبية الديمقراطية كانت سبب تفوقه على الثاني لأنها عمّقت أسباب التلاحم الذي يشكل كل جيش، فندرك أن الإنضباط لا يكون قوة بصفته تلاحما ماديا بل لأنه سبب أنتشار العقلانية بين الجنود. العروي(عبدالله) ،**مفهوم الدولة**،المركز الثقافي العربي، الطبعة السابعة، الدار البيضاء 2001، ص 65.

[6] سنة 1810 قام الوهابيون علاقة تواصل سرية مع نابليون. Laurens (Henry), *L'orient arabe ; arabisme et islamisme de 1789 à 1945*, Armand collin, 2eme édition, Paris 2000, P 47.

إقتصر إنشداد الطغمة الحاكمة في تونس و طرابلس على علامات القوة و معاني الترف. فقد كان الباي ينفق بسخاء على التحف و الألماس القادمة من باريس و جينيف و إتبعه أعوانه في ذلك و يمرح مع فرقة المسرح الإيطالية، و في جناح النساء خادمات سود عبيد و قوقازيين و جورجيا و إغريق ذات جمال فائق يفقن الألف و كان الطابق السفلي بمثابة ثكنة عسكرية و كل أميرة في البلاط تتزوج تتلقى من الباي 30 ألف ريال وتكون النساء مكسوات بالجواهر و أغلى الحلل و خواتم مرصعة بالألماس[1]. أما محمود باي فقد بنى بيتا من البلور على الشاكلة الفرنسية في زمن بدأت البلاد تفقد ثروتها، وهو ما يعني أن ساسة تونس وطرابلس قد تفاعلوا مع عوارض الحداثة دون الإيغال في أسبابها و السبل المفضية لذلك و لم نسجل أي إصلاح سياسي عميق أو إقتباس شيء من منظومة الحكم الغربية مما يدفعنا إلى التساؤل عن الدافع الذي يمنع إنسياق تونس وطرابلس في هذا الزخم الحداثي ؟

لقد أدى تأثر طرابلس وخاصة تونس و الجزائر في الدفع بفكرة الدولة القطرية إلى التطبيق الميداني، ففي تونس أدت السفارات الكثيرة نحو فرنسا في إيجاد المنوال الجاهز الذي طبّق في الإيالة . أما طرابلس فقد كانت منشدة أكثر إلى الباب العالي مما جعلها تبقى جزءا من الإمبراطورية و لم تعرف السلطة القارمنلية لا الإستقلالية الكافية و لا الفترة الزمنية المطلوبة لإستيراد نموذج الدولة الغربية في طرابلس، لكن النزعة الكولونيالية الأروبية تمكنت من التأثير في بنية السلطة و أدائها في طرابلس و في مسار تشكّل الدولة في تونس .

[1] Henry (D) , Notice sur la régence…, *op. Cit*, p p 71-72

الخاتمة

كان المناخ السياسي السائد في الأوجاق المغربية يحضّ على قبول ضغط الخارج، لا سيما أن الغرب قد إستبطن السيطرة على كل المجال المتوسطي و خاصة الأقرب إليه جغرافيا و تجسم هذا المشروع مع بداية العصر الحديث الذي كشف عن تفاوت عميق في موازين القوى. فما إن أتمت الدول الأروبية معالجة إختلافتها الداخلية حتى توجّه إهتمامها إلى تسوية منابها من المجال الحيوي و الذي تأخر لزمن بسبب بروز أقطاب جديدة مثل روسيا القيصرية والولايات المتحدة الأمريكية، فبدأت الدول الأروبية في التسابق لأجل الإستئثار بأوسع قدر من النفوذ ، و كانت النخبة الفكرية في المجتمع الفرنسي هي قائدة هذه الإسترتيجية السياسية[2].

مر خضوع القيادة السياسية من التصادم المسلكي* إلى الإنبهار المؤدي إلى الشعور بالعجزعن مجابهة التفوق السياسي لحضارة أطلت بآلتها الحربية المخيفة على السلطة و المجتمع في المغرب واللذان تآكلهما الجمود السياسي . حاولت الشبكة السياسية في تونس وطرابلس التأقلم مع واقع الهيمنة الأجنبية ولنا أن نستحضر مثال الحاج عبدالرحمان سفير طرابلس في بريطانيا و الذي كان مثار إعجاب الرحالة والقناصل وذلك بفضل زوجته اليونانية و التي هذّبت من سلوكه ومعرفته في دلالة لتفوّق الثقافة الغربية وإختلافها و تميزها عن الثقافة المغربية، و أن السبيل الوحيد للتحضر هو النسج على منوال الغرب .

[2] بقي النبلاء و رجال الدين الطبقة المهيمنة حتى 1789 هذه الهيمنة إستفادت من الإنحدار السلالي و يمثلون 1,5% من المجتمع . Soboul (A), *La révolution française*, édition sociales, Paris 1962, p 27

* التصادم المسلكي هو الإلتزام بدراسة الإنسان كأصل لجميع الأمور السلطوية ، و إعتبار الفرد الوحدة الإختبارية للتحليل السياسي،و قد عبر التصادم المسلكي عن بدايات الصدام بين الشرق و الغرب.

يبدو تاريخ القرصنة من المباحث التي بقيت دائما في حاجة إلى مزيد التقصي لأن الكيانات المغربية كانت تفتقر إلى الآليات الكافية للممارسة القرصنية من السفن و البحارة ، ففرنسا و أنقلترا كانت تتواريان خلف " الجهاد " البحري المغربي لممارسة الحرب الخفية على الخصوم كالبلدان الأسكندنافية و شبه الجزيرة الإيبيرية بإستعمال كل من بحارة تونس و طرابلس بعد تزويدهم بالسفن و العتاد . و لكن منذ 1728 قام القبطان de granpré بحملة لمعاقبة القراصنة في تونس وطرابلس حتى أنه فرض تعويض أضرار القرصنة في سياق إستهدافها للوجود الفرنسي في شمال إفريقيا ثم حسمت بريطانيا أمرها بمحاصرة العمل البحري المغربي بعد أن ضمنت سيطرتها على المتوسط في جبل طارق ومالطا . فالمدن المتوسطية قد عرفت إزدهارا مطردا في العهد الحديث ومنها مرسيليا و طولون و البندقية وغيرها، وهو ما يطرح سوالا عن الجهة التي تضررت من القرصنة ، كما أن الإستئثار بالمبادلات التجارية قد عمّق من فارق القوى بين المغارب و بين الجانب الشمالي للمتوسط وما إنجرّ عن ذلك من سيطرة القوى الغربية على السيادة المحلية في المنطقة المغربية .

المرأة بين الفاعلية والتهميش
خلال العصر السعدي

د.زين العابدين زريوح
باحث في التاريخ الحديث

رغم الدور الفاعل والمؤثر الذي اضطلعت به المرأة المغربية في مجموعة من المواقع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية خلال النصف الأول من العصر الحديث، ولاسيما إبان الحكم السعدي منذ نشأة الدعوة إلى نهاية الدولة ما بين 1510-1659م، فإنها كانت عرضة لعدد من أشكال التهميش والإقصاء من لدن مختلف المؤسسات والعناصرالسائدة أو الوازنة على الساحة آنذاك، وفي مقدمتها المؤسسة المخزنية والنخب الدينية والعلمية المهيمنة.بالإضافةإلى تأثيرات المناخين الاقتصادي والاجتماعي التي ساهمت في تكريس هذا الوضع.

إذن أين تجلت أبرز محطات التأثير الأنثوي خلال هذه الفترةعلى مختلف الأصعدة؟ وما هي أهم أوجه التهميش والإقصاء التي تعرضت لها المرأة من متعدد فئات وطبقات المجتمع السعدي؟ وكيف كانتردود فعل بعض النساء إزاءها؟

مرت فئة النساء بفترة عصيبة خلال الاحتلال البرتغالي -تزامنا مع انطلاق الدعوة السعدية من الجنوب الشرقي المغربي بداية القرن 16م- بسبب عمليات الأسر التي كن يتعرضن لها من طرف البرتغاليين وحلفائهم من الأعراب بقيادة يحيى أوتعفوفت(ت1518م)، حيث كن يُرْسَلْنَ إماء إلى البرتغال، خاصة من الحسنوات[1]. واستمرت معاناتهن خلال الصراع السعدي البرتغالي[2]، إلى أن استقرت أوضاعهن مع استقرار الوضع السياسي عقب السيطرة السعدية على حكم المغرب بدعم من النساء اللاتي ساهمن في سيطرتهم على مدينة فاس عن طريق مهاجمة جنود أبي حسون الوطاسي(ت961هـ/1554م) من أسطح المنازل للخلاص من الجوع المترتب عن

[1]-مارمولكربخال، **إفريقيا،ج 2**، ترجمة: محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1984،ص. 16.
[2]-نفسه، ص. 23.

حصار السلطان محمد الشيخ السعدي(1540-1557م)[1]، كما استجاب بعضهن لدعوة السعديين، بالمشاركة في العمليات العسكرية ضد المسيحيين بما فيهن العواجز المتجاوزات الثمانين أو المائة سنة من العمر، مساهمة منهن في رفع الحيف والاستغلال الذي كن يرزحن تحته في ظل اعتداءات هؤلاء[2].

وقد لعبت المرأة دورا فاعلا في المجتمع السعدي سواء في البادية أو المدينة. حيث شكلت عمود الحياة القروية من خلال قيامها بأشغال المنزل كسقي الماء وعجين الخبز وطهي الطعام وغسل الملابس وصنع الأجبان والأشربة[3]، وطحن الدقيق في أرحاء الحجر[4]. أو القيام بأعمال الحقل من حصاد ونقل للغلل والقطف وتسميد الأرض ونقشها وسقيها[5]، حتى أن النساء في بعض الحالات تكلفن بالنشاط الزراعي في جميع مراحله بدل الرجال بسبب الصراعات القبلية[6]، وكذا برعي الماشية بسبب كسل الرجال وعربدتهم[7]. إضافة إلى ممارسة بعض الصناعات كصناعة الأواني الفخارية وحلج الصوف وغزله[8].باستثناء بعض النساء اللواتي عشن وضعا اجتماعيا مريحا وإن بدرجات متفاوتة، وقدمن خدمات اجتماعية جليلة، وساهمن بقسط وافر في تحسين الأوضاع المادية لعائلاتهن عن طريق توظيف أموالهن في بعض الأنشطة كالتجارة[9].

وعلى عكس النساء القرويات اللاتي شكلن الأغلبية وعانين من الفقر وظروف عيش صعبة وقاسية، خاصة في الجبال التي كانت نساؤها قبيحات المنظر قذرات منتنات من أكثر سكان إفريقيا توحشا إلى جانب أزواجهن[10]، وكن يمشين بدون نعال، وبأرجلهن جراء ذلك شقوق تصل حتى العظم[11]، بل ويسرن شبه عاريات في بعض المناطق من شدة الفقر[12]، واتخذن حليا من الحديد أوالنحاس[13]. فإن نساء الحواضر من الأقلية -لاسيما بمراكش وفاس- عشن على العموم حياة رغيدة، إذ كن **"أنيقات يمشين وهن متزينات بعدد من الأساور المدولبة والمنبسطة من الذهب والفضة وبكمية من الدرر والجواهر في العنق والرأس والأذنين، ولباسهن من الحرير أو القماش الرفيع"**[14]، على شكل فساتين طويلة زيادة على الخلاخل[15]. وقد حظين أيضا بنصيبهن من أشغال المنزل، إضافة إلى مزاولة الخياطة والطرز وغزل الصوف وعلاج الحرير[16]، وصناعة الزرابي التركية[17]. كما تواجدت بالمدن وأرباضها نساء فقيرات، مثل فاس

---

[1]-مارمولكربخال، **إفريقيا،ج 1**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1984، ص. 477.

[2]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 169.

[3]-عبد القادر العافية، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن العاشر الهجري-السادس عشر الميلادي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1982، ص. 220

[4]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 8.

[5]-عبد القادر العافية، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون، م.س**، ص. 220

[6]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 114.

[7]-نفسه، ص. 247.

[8]- عبد القادر العافية، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون، م.س**، ص. 220.

[9]- محمد بوزيان بنعلي، **فجيج في عهد السعديين السياسة والثقافة والمجتمع**، سلسلة تراث فجيج 4، مطبعة الجسور، وجدة، 2005، ص. 34.

[10]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 123.

[11]-نفسه، ص. 17.

[12]-نفسه، ص. 39 – 40.

[13]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا،ج 1**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص. 110.

[14]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 57.

[15]-ديي و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، 1988، ص. 60.

[16]-عبد القادر العافية، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون، م.س**، ص. 221.

[17]-ديي و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء،م.س**، ص. 61.

التي اضطر الفقر فيها بعض النساء لممارسة الدعارة[1]، أو حتى السحاق والشعوذة من أجل كسب القوت اليومي[2]. وهناك من انتقل حالها من الغنى إلى العوز كابنة عبد الواحد الحميدي(ت1003هـ/1595م) قاضي الجماعة بفاس أيام المنصور الذهبي(1578-1603م)، التي أصبحت بعد وفاته **"تطلب من يستأجرها لطحين أو غيره"**، بعدما كانت في حياة أبيها تلبس **"خلاخل من الذهب، لا تحملها إلا بسلسلة في حزامها، ولها وصائف يتبعنها يحملن ما يتجرجر من حللها"**، دون أن يضمن لها المخزن الذي خدمه أبوها العيش الكريم[3].في حين عاشت أخريات على الصدقات، خاصة من الأرامل[4]. حيث وجدت المقبلات على الزواج من الفقيرات كذلك صعوبة وحرجا في تجهيز أنفسهن[5] بسبب كلفته العالية[6]. وغلب على معظمهن الجهل[7]، فكان أكثر ما يشد الانتباه إليهن أو يراعى فيهن هو الجمال والجسد حتى من طرف كتاب المصادر[8].

إضافة إلى العديد الكبير من الإماء اللواتي امتلأت بهن بيوت المغاربة لاسيما من النخبة، وسخرت للخدمة والمتعة[9]، حتى شبهن بالشياه[10].

لكن على العموم، فإن النساء كن ممنوعات من الخروج من منازلهن إلا للقيام بزيارة، أو للذهاب إلى المسجد أو الحمام وهن محجبات[11]، أو رفقة عبيد من الخصي، يقضون أيضا حاجاتهن خارج المنازل، أو يقوم بذلك رجالهن إن لم يكن لهن عبيد[12]، إذ كان الرجال جد غيورين[13]. وإن كن في بعض المناطق يخرجن متجملات بالخضاب سافرات الوجوه مثل "تنزيت"بهسكورة[14]، أو احترفن الغناء في الأعراس[15]. كما كانت النساء في فاس يخرجن للأسواق، حيث يزدحمن في ساحة الملابس الداخلية ويمارسن البيع والشراء فيه، رغم ما تعرف هذه الأسواق من صراعات بينهن[16]. ووصل التحرر بنساء بعض المناطق إلى حد الخلاعة وانعدام العفة حتى صرن مضربا للأمثال في ذلك كنساء جبل بني منصور بالريف[17].

وانتقص الفقهاء كثيرا من قدر النساء، حيث اعتبروا أن دور نساء البادية لا يحيد عن العمل المجاني لدى الأزواج[18]، وبالغ بعضهم في وصفهن بالسفيهات الجاهلات اللواتي لا يعرفن إلا سياسة البهائم وتربية الأطفال وصناعة الطعام[19]، بينما خصوا نساء الحاضرة منهن بالفراش[20]. وتعرضوا لهن بانتقادات شديدة، كاتهامهن بالفسق والفساد والانحراف نتيجة اختلاطهن بالرجال الأجانب وتبرجهن في مختلف

---

[1]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 160،148.
[2]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 1، ص. 144.
[3]- محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 2004، ص. 183.
[4]- نفسه، ص. 44.
[5]-نفسه، ص. 62.
[6]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 252.
[7]- محمد بوزيان بنعلي،**فجيج في عهد السعديين،م.س**، ص. 33.
[8]- عثمان المنصوري، **تاريخ المرأة المغربية في العصر الحديث مقاربة أولى**، ضمن: **مجلة أمل**، العدد 13-14، السنة الخامسة، 1998، ص.157.
[9]-ديي و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء، م.س**، ص. 157،233.
[10]- الحسن العبادي، **فقه النوازل في سوس**، رسائل وأطروحات رقم 5، منشورات كلية الشريعة، أكادير، 1999، ص. ص. 160.

[11]- مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص.57.
[12]-ديي و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء،م.س**، ص. 60 – 61.
[13]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 57.
نفسه، ص. 114.
[15]-ديي و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء،م.س**، ص. 156.
[16]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 152.
[17]-نفسه، ص. 247.
[18]- الحسن العبادي، **فقه النوازل في سوس، م.س**، 175،180.
[19]-نفسه، ص. 174.
[20]-نفسه، ص. 180.

المناسبات، كالأعراس أو خلال العمل في الحقول[1]، وعدم التستر في الحمام[2]، وممارستهن لبعض العادات كالوشم[3] والسحر وتعليق الخيوط والأحجار والأعواد وغيرها من البدع، وقراءتهن للقرآن بالألحان في إطار ما يسمى بالتحزيب خلال احتفالات ختم الطلبة القرآن[4]. مع أنهم دافعوا عنهن في بعض القضايا كالفتوى ببطلان زواج الإكراه[5]،وعدم سقوط حقوقهن وحقوق ورثتهن في الميراث[6]،وطالبوا الأزواج بتعليمهن أمور الدين[7].وخضعن أيضا لتطبيق الحدود الشرعية كحد الزنا بالرجم بالنسبة للمتزوجات[8].

كما تعرضن للتهميش ووجهت لهن نظرة دونية من طرف المتصوفة، حيث أن العديد منهم اعتزل الزواج[9]، أو قام بتطليق زوجته أو زوجاته دفعة واحدة دون مبرر شرعي للتفرغ للارتقاء الصوفي[10]، أو فارقها دون أداء واجباتها الشرعية[11]. الشيء الذي خلق للنساء المطلقات أوالمهجورات عدة مشاكل مرتبطة بالإعالة وفتح الباب أمامهن وأمام أطفالهن للتشرد والانحراف، فكانت المرأة نتيجة الطلاق أو موت الزوج وتحت طائلة العوز والفقر مضطرة إلى أن تلعب دور الرجل في السعي على أولادها عن طريق نسج الملابس في الغالب، أو العمل في بساتين الفلاحة وبيوت الموسرين أوالزوايا[12]. بل من المتصوفة من دعا على زوجته بالموت[13]، أو فقد بصره بسبب نظره لامرأة[14]. كما رفض معظمهم تتلمذ النساء على أيديهم في التصوف، وتعرضن للعقاب الغليظ في هذا الشأن، مثل المرأة التي كررت طلبها للشيخ أبي الشكاوي(ت1004هـ/1595م)بالتتلمذ على يديه فامتنع وأشاعتعرضها للعقاب وللعذاب بعد الموت نتيجة إصرارها على ذلك، رغم تقديمها ثورا لزاويته وإكرام النساء عموما له ولمريديه[15]، حيث اشتهرت النساء بتقديم الصدقات للزوايا[16]، وعملن فيها لإعداد طعام المريدين والطلبة وأبناء السبيل، مثلما هو حال امرأة قضت زهرة عمرها في خدمة الشيخ السماحي(ت1025هـ/1616م) حتى صارت عنده عجوزا من العجائز[17]. مع أن بعض الصوفية تجاوزوا عن النساء وقبلوا توبتهن، حتى الزانيات منهن[18]،

---

[1]- أبو القاسم بن خجو، **شرح أرجوزة عبد الله الهبطي**، قراءة وتعليق عبد الله بنطاهر، ضمن: مجلة المذهب المالكي، العدد 6، كلية الشريعة، أكادير، 2008، ص. 30/لحسن اليوبي، **الفتاوي الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1998، ص. 262-263.

[2]-إدريس كرم، **ثقافة العامة في كتابات الخاصة بالمغرب نموذج الفقهاء في القرنين 10 و11 هـ**، ضمن: مجلة أبحاث (مجلة العلوم الإجتماعية)، العدد 15-16، السنة الخامسة، 1987، ص. 82.

[3]- لحسن اليوبي، **الفتاوي الفقهية،م.س**، ص. 270-271.

[4]- إدريس كرم، **ثقافة العامة، م.س**، ص. 84-85.

[5]- الحسن العبادي، **فقه النوازل في سوس، م.س**، ص. 185.

[6]-نفسه، ص.175.

[7]- عبد الرحمان التمنارتي، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي وتقديم محمد المنوني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، **م.س**، ص. 549.

[8]- عثمان المنصوري، **تاريخ المرأة المغربية في العصر الحديث، م.س**، ص. 161.

[9]- محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر، م.س**، ص. 91/ محمد بن عسكر: **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرآن القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، سلسلة التراجم 1، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر،الرباط، 1977، ص. 139.

[10]- محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر، م.س**، ص. 72،118.

[11]-نفسه، ص. 108.

[12]- محمد بوزيان بنعلي: **فجيج في عهد السعدين،م.س**، ص. 33-34.

[13]- محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر، م.س**، ص. 70.

[14]-نفسه، ص. 82.

[15]-نفسه، ص. 103 – 104.

[16]- نفسه، ص. 59.

[17]- محمد بوزيان بنعلي: **فجيج في عهد السعدين،م.س**، ص. 34.

[18]- محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر، م.س**، ص. 111.

ومنهم من كان يعالجهن[1]، ويرأف بهن[2]، ويعطي الصدقات للأرامل[3]. كما أن بعضهم أخذ طريق التصوف عن امرأة، وهو ما يشكك فيه ابن عسكر نفسه مع أن أمه انتسبت للتصوف[4].

وعلى الرغم من حماية القضاء السعدي للحقوق الشرعية للنساء، وتمتعهن بمجموعة من الحقوق كالتملك والتصرف[5]، والانتصاب للشهادة، والتعلم، وحتى حق اختيار الزوج في بعض المناطق[6]. ففي ظل غياب حماية الجاه والمال الذي حظيت به بعض النساء من النخبة، حرمت غيرهن في العديد من المناطق من الإرث وغلة الميراث لفائدة الذكور[7]، وكذا من مستغل الشراكة والعمل مع أزواجهن[8]، أو تم بيع نصيبهن من الإرث في حالات أخرى[9]، أو الاحتيال عليهن من أجل الاستحواذ على أموالهن وممتلكاتهن[10]، كما كان بعض الأقارب أو غيرهم من الرجال من يستغل حياءهن للاستيلاء على أموالهن[11]. وكن عرضة أيضا للسبي والاسترقاق والبيع كالإماء[12]، وللاغتصاب وللاختطاف، ثم الإكراه على الزواج من طرف الخاطف[13]، مثلما كان يتم إكراههن على الزواج من قبل أقاربهن[14]، ومنهن اليتيمات واللواتي لم تنقضي عدتهن[15]. وعوملن بقسوة وفظاظة من طرف بعض الأزواج، حتى أصبحت الإساءة لهن عادة في مناطق معينة[16]، لاسيما بالضرب لتفريطهن في أعمال المنزل[17]، أو من أجل إجبارهن على التنازل عن الصداق بغية تكرار الزيجات، إلى جانب اتخاذ العديد من الإماء للمتعة[18]، باستثناء بعض المناطق النائية في الأطلس التي اكتفى رجالها بزوجة واحدة[19]. ووصلت هذه القسوة في بعض الأحيان إلى حد قتل الزوجة دون القصاص من الزوج القاتل[20]. وكان من الأزواج كذلك من يعمل على الاستحواذ على الصداق أو التهرب من أدائه أو ما تبقى منه لفائدة زوجاتهن[21]، أو ينكر الزواج بالمطلق إذا طالبته زوجته بالصداق بعد الدخول[22]، إلا من كان لأهلها سطوة[23]، إذ كن يطلقن لأتفه الأسباب في حالات الغضب أو اللجاج أو السكر[24]. فكانت هذه المعاملات السيئة تدفعهن

---

[1]- محمد بن عسكر، **دوحة الناشر،م.س**، ص. 106.
[2]-نفسه، ص. 114.
[3]- محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر، م.س**، ص. 44.
[4]- محمد بن عسكر، **دوحة الناشر، م.س**، ص. 84.
[5]- محمد بوزيان بنعلي،**فجيج في عهد السعديين،م.س**، ص. 34.
[6]-نفسه، ص. 39-40.
[7]- الحسن العبادي، **فقه النوازل في سوس، م.س**، ص. 175.
[8]-نفسه، ص. 180،179،175.
[9]-نفسه، ص. 182.
[10]-نفسه، ص. 174.
[11]-نفسه، ص. 174،170.
[12]-Daniel RIVET, **Histoire du Maroc**, Editions Fayard, Paris, 2012, p. 213.
[13]- مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 1، ص. 494/ محمد حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، سلسلة التاريخ 2، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة، الرباط، 1977، ج 1، ص. 308.
[14]-الحسن العبادي، **فقه النوازل في سوس، م.س**، ص. 185.
[15]- محمد عمراني، **الشرف والمجتمع والسلطة السياسة: الشمال الغربي المغربي نموذجا** من القرن 10 إلى 13هـ/ 16-19م، أطروحة لنيل دكتوراة الدولة في الآداب، شعبة التاريخ، كلية الآداب، الرباط، السنة الجامعية 2000-2001، (مرقونة)، ص. 209.
[16]- عثمان المنصوري، **تاريخ المرأة المغربية في العصر الحديث، م.س**، ص. 160.
[17]- أبو القاسم بن خجو، **شرح أرجوزة عبد الله الهبطي،م.س**، ص. 29.
[18]-ديي و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء، م.س**، ص. 156-157.
[19]-نفسه، ص. 164.
[20]- عبد الرحمان التمنارتي، **الفوائد، م.س**، ص. 113.
[21]- محمد الصغير الإفراني، **الصفوة، م.س**، ص. 108.
[22]- الحسن العبادي، **فقه النوازل في سوس، م.س**، ص. 203.
[23]- محمد العربي الفاسي، **المرآة، م.س**، ص. 142/محمد الصغير الإفراني، **الصفوة، م.س**، ص. 108.
[24]- الحسن العبادي، **فقه النوازل في سوس، م.س**، ص. 164.

للفرار في بعض الأحيان واتخاذ أزواج جدد بشكل غير شرعي، فيكون تدخل القضاة هنا لرأب الصدع بين الزوج القديم والجديد بمقابل مادي[1]، مما كان يخلق إشكالية حول نسب الأولاد[2]. بحيث كانت مجموعة من الممارسات المطبقة على النساء، تحيل إلى دونيتهن في المجتمع في مقابل الرجل[3]. وهذا ما يشير إليه "دي صالدانيا"، بأن النساء على العموم كن يعاملن بقلة من الاعتبار في المغرب، خاصة من لدن فئة المخزن، حيث أنه من **"عادة المغاربة جعل نساءهم إماء بسبب العدد الكبير الذي يحتفظون به منهن داخل مساكنهم"**[4].

وإن تحسنت ظروفهن في ظل الدولة السعدية مقارنة بفترة الفراغ والتطاحن السياسيين، حيث برزت عدد من العالمات الصالحات اللواتي سطع نجمهن مثل: عائشة بنت أحمد الإدريسية(ت969هـ/1562م) أم محمد بن عسكر صاحب دوحة الناشر، التي أخذت عن مجموعة من المشايخ كعبد الله الغزواني(ت935هـ/1528م) وغيرهما، **"فهدى الله على يدها خلقا كثيرا، وكان الناس يتحامون حماها ولا يقدر أحد رد شفاعتها"**، وكانت تعتني بعيد المولد النبوي وتطعم فيه الطعام[5]، واشتهرت كرامتها[6]. وكذا زهرة بنت الشيخ عبد الله الكوش(ت1020هـ/1611م) التي أخذت عن أبيها، وكانت من أهل القدم الراسخ في العرفان ومن أهل الولاية الظاهرة وكرست حياتها لذلك[7]، وكانت لها زاوية على قدر من الأهمية في مجال التصوف بمراكش حيث زارها محمد بن علي بن ريسون (ت1018هـ/1609م)[8]، وأصبح ضريحها مشهورا بعد وفاتها بحومة الكتبيين[9]. مع أن عددا من المناطق خلت من أية امرأة وصفت بالفقه أو العلم أوالأدب[10].

إضافة إلى نساء ساهمن في تطورات ولحظات حاسمة في مسار الدولة السعدية، مثل العريفة بنت خجو التي قامت بدور رئيسي في تنظيم عوائد الملوك الداخلية بالقصر بنقل محمد الشيخ المهدي وأسرته من البداوة إلى حياة الملوك، ومريم أخت عبد الملك المعتصم(1578-1578م) التي صمدت طويلا في قصبة مراكش مع ثلاثة آلاف من الرماة الموالين، وحالت دون استيلاء محمد المتوكل(1574-1576م) عليها. ثم مسعودة الوزكيتية(ت1000هـ/1591م) أم أحمد المنصور التي قامت بعدة أعمال في مجالي العمران والإحسان، كبناء المساجد والمدارس وديار مبيت القوافل في الطرق، وتشييد وترميم عدد من القناطر والمباني العمومية[11]. وكذا سحابة الرحمانية أم عبدالملك المعتصم التي لعبت دورا في حصول هذا الأخير على الدعم العثماني ضد ابن أخيه المتوكل[12].

---

[1]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 252/الحسن العبادي، **فقه النوازل في سوس، م.س**، ص. 132.

[2]- الحسن العبادي، **فقه النوازل في سوس، م.س**، ص. 132.

[3]- من قبيل تعمد العريس وضع قدمه على قدم العروس ليلة الدخلة كرمز للغلبة والعلو، إلى جانب ضرورة إثبات عذريتها أمام أهله والمدعوين في هذه الليلة، إدريس كرم، **ثقافة العامة، م.س**، ص. 82.كما وضع مقياس مجتمعي للمرأة، في أن تكون حسناء تتوفر فيها مجموعة من الشروط، نفسه، ص. 85.

[4]- أنطونيو دي صالدانيا، **أخبار أحمد المنصور، م.س**، ص. 188.

[5]- محمد بن عسكر، **دوحة الناشر، م.س**، ص. 23 – 24.

[6]-نفسه، ص 24-27.

[7]- محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر، م.س**، ص. 282.

[8]-عبد القادر العافية، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون، م.س**، ص. 234.

[9]- محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر، م.س**، ص. 282.

[10]- محمد بوزيان بنعلي: **فجيج في عهد السعديين،م.س**، ص. 33.

[11]-إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة 2، 1978، **ج 2**، 421-422.

[12]- عبد الله □نون، **عبد الملك المعتصم بطل معركة وادي المخازن**، ضمن: مجلة المناهل، العدد 13، السنة الخامسة، دجنبر 1978، ص. 11-12.

ورغم ذلك، فقد اعتبرت عناصر المخزن السعدي المرأة سوى وسيلة للخدمة والراحة أو المتعة. وهو ما دلت عليه عدة قرائن، إذ أرسل القائم بأمر الله(1510-1517م) نائبه لشراء عدد من الإماء السود يقمن بخدمته سنة 919هـ/1513م[1]، كما أن عبد الله الغالب(1557-1574م) سخر إماء زنجيات أو سمر ومسيحيات لخدمته في غرفته[2]. حيث احتوت قصور السلاطين السعديين على العديد من النساء، على غرار هذا الأخير الذي ضم قصره أزيد من 200 امرأة من الشرعيات والسراريا[3]، وكانتالزوجات الشرعيات بيضاويات من بنات كبار الأمراء والأعيان[4]، وهنا يحضر ذكر محمد الشيخ المهدي الذي كان من عادته الزواج كل سنة مع بداية حكمه بإحدى الحسناوات[5]. هؤلاء اللاتي كان عدد منهن يغصبن على الزواج بالسلطان، مثلما فعل المنصورالذهبي مع ابنة "المفضل" أحد أغنياء تطوان من الأندلسيين وأحد رجاله الذين كان يستخدمهم في افتداء الأسرى، والذي سبق وأن أعلمه بمخطط الناصر بن الغالب للثورة عليه، غير أن هذا لم يشفع له في التراجع عن طلبه الزواج بابنته التي اشتهرت بجمالها وعلمها وأناقتها، ليصاب والدها إثر ذلك بصدمة أودت بحياته، لكن وفاته لم تثن المنصور عن رغبته، لتلحق هي الأخرى بوالدها بعد شهرين من ذلك بسبب حسرتها عليه وعلى نفسها[6]. وإلى جانب الزوجات الشرعيات اتخذ الملوك السعديون عددا غير محدد من الإماء البيض والسود[7]، سواء ممن يتم شراؤهن أو أسرهن بأعداد كبيرة، خاصة في السودان التي جلب منها الآلاف من الجواري على دفعات في عهد المنصور، إذ ضمت إحداها "**اثني عشر مملوكا بين الجواري والغلمان**"[8]، وأخرى "**عشرة آلاف جارية كلهن في سن البلوغ**"، كما حث المنصور قائده هناك على أن يجلب له من إناث الأسرة الحاكمة في السودان -أسرة أسكية- ما يليق بمقامه[9]. ويتم الاستمتاع بهن أو الزواج بهن عنوة من غير رضاهن تحت الضغط والتهديد، كما هو الأمر بالنسبة لابنه حاكم "رأس أكير" البرتغالي مع محمد الشيخ المهدي[10]، وهذا ما كان يجعل نساء الأعداء والمعارضين يضحين بأنفسهم بدل أن يقعن في الأسر ويلاقين هذا المصير، مثل الفتاة الجميلة لجبل درن التي استنفرت غيرة أبناء عشيرتها للدفاع عن شرفها وعن منطقتهم حتى لاقت حتفها في مواجهة جيش محمد الشيخ[11]، الشي الذي تكرر مع فتاة أخرى في ثورة لاحقة بنفس المنطقة فضلت الانتحار على أن يسبيها أحد قواد هذا السلطان[12]، فيما كان بعضهن يقمن بإخصاء الجنود الأسرى انتقاما لما تعرضت له أُخريات من استغلال جنسي على يد رجال المخزن[13]. ونظرا للعدد الكبير من الزوجات والإماء اللواتي كان يحظى بهن السلاطين السعديين في قصورهم، فلطالما نشبت بينهن صراعات ودبرت في أوساطهن العديد من المكائد التي أدت أحيانا ببعضهن للموت[14]، رغم أنهن أقمن في مساكن

---

[1]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا، م.س**، ج 1، ص. 120.
[2]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 172.
[3]-ديي□و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء،م.س**، ص. 233.
[4]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 172.
[5]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 1، ص. 490.
[6]-أنطونيو دي صالدانيا، **أخبار أحمد المنصور، م.س**، ص. 188.
[7]-ديي□و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء،م.س**، ص. 157.
[8]- مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية الت□مدارتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994، ص. 68.
[9]- عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1977، ص. 271 – 272.
[10]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 37.
[11]- نفسه، ص. 64.
[12]-ديي□و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء، م.س**، ص. 179.
[13]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 2، ص. 121.
[14]-نفسه، ص. 37.

رائعة ضمن مقاصير معزولة بعضها عن بعض[1]. حيث خضعن لحراسة شديدة من خصيان سود أو سمر، ولم يكن مسموحا لغيرهم بدخول مقاصير النساء باستثناء العبيد المسيحيين وكذا اليهود، لكن هذا الضغط ربما دفع بعض نساء القصر للدخول في مغامرات مع العبيد المسيحيين الذين امتد المنع ليطالهم خلال فترة عبد الله الغالب[2].

واشترك في هذا الأمر كذلك رجال المخزن من كبار القياد المفضلين، الذين كانت تهدى لهم الكثير من الإماء والحظايا من أجل المتعة، ويتم إسكانهن في دار واحدة وعلى نفقة السلطان، حيث كانت تنشب بينهن أيضا مشاجرات واضطرابات عديدة بسبب كثرتهن[3].

وتطورت هذه الممارسات بشكل خارج عن المألوف خلال عهد المنصور وازدادت حدة بعد وفاته. حيث هم ابنه زيدان بالزواج بالصالحة زهراء بنت عبد الله الكوش رغم عزوفها عن الزواج، إلى أن ظهر له من بركتها ما صرفه عنها[4]، كما كان محمد الشيخ المامون**"مسرعا إلى الفساد في القينات"**[5].

ووصل الأمر بابن هذا الأخير عبد الله إلى أن **"يزني بنساء عمه وجواري جده"**، بعدما دخل مراكش إثر هزيمة عمه أبي فارس(ت1018هـ/1609م) أمامه[6]. وبلغ **"من قلة ديانة"** عبد الملك بن زيدان بن المنصور(1627-1631م) خلال احتفاله بأحد مواليده أنْ **"بعث لنساء أعيان مراكش وخدامه أن يحضرن وطلع...لمنارة في داره فنظر للنساء وهن متبرجات قد وضعن ثيابهن، فأيتهن أعجبته بعث لها"**[7]. بل وتم كذلك إطلاق يد رجال المخزن والجنود خلال حكم محمد الشيخ المامون(1606-1613م) وابنه عبد الله(1613-1623م)مملكة فاس بالفسق في نساء أهل البادية[8]، وللفساد في نساء المدن حتى المتزوجات والأمهات منهن، حيث يذكر الإفراني قصة المرأة الفاسية التي ألقت بنفسها من أعلى منزلها بعدما اقتحمه عليها أحد الجنود من "شراكة" وقام برمي رضيعها فيإناء الطبخ إثر عدم استجابتها لنزواته، هذه الحادثة التي أثارت غضبا شديدا لدى عامة الناس ودفعتهم للثورة على عبد الله بن الشيخالمامون[9].

واستعملت المرأة أيضا من طرف المخزن السعدي لتقوية استقراره زمن الأزمات من أجل عقد التحالفات، حيث استخدم محمد الشيخ المهدي ابنتيه للتقارب والتصالح مع أخيه أحمد الأعرج(1517-1540م) في خضم الأزمة بينهما عن طريق تزويجهما بابني هذا الأخير[10]، وجندت إحداهما بعد ذلك وهي مريم للوساطة بين الأخوين[11]. كما كانت النساء ضحية للصراعات السياسية، حيث تعرضن للقتل على غرار بنات أحمد الأعرج اللواتي قتلن في السجن إلى جانب والدهن وإخوانهن[12]، وبعض نساء قصر مراكش عقب سيطرة عبد الملك بن زيدان على الحكم من أيدي إخوته[13]. وكذا لمختلف أنواع المعاناة، مثلما تعرضت

---

[1]ـنفسه، ص. 53.
[2]ـنفسه، ص. 172.
[3]ـديي□و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء،م.س**، ص. 157.
[4]ـ محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر، م.س**، ص. 282.
[5]ـ مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية، م.س**، ص. 69.
[6]ـنفسه، ص. 70.
[7]ـ محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص. 353.
[8]ـمؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية، م.س**، ص. 69.
[9]ـ محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي، م.س**، ص. 338.
[10]ـمارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 1، ص. 478.
[11]ـنفسه، ص. 465.
[12]ـ محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي، م.س**، ص. 60.
[13] -Henry DE CASTRIES, **Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère série - Dynastie Saadienne, Archives et**

له نساء أبي فارس بن المنصور على يد المتمردين من الأعراب الذين قاموا بتجريدهن وسلبهن كل شيء أثناء فراره من مراكش عقب هزيمته أمام ابن أخيه عبد الله بن الشيخ سنة 1606م[1]. وشكلن كذلك عنصر تفاهمات وصفقات أو ضغوط بين الأطراف المتصارعة، إذ بادل محمد الشيخ المهدي بنات أبي حسون الوطاسي اللواتي غربهن إلى تارودانت ببناته المأسورات في فاس بعد استعادتها من طرف أبي حسون المذكور، هذه الحادثة التي وقعت فيها عدد من نساء قصر المهدي أثناء فرارهن من المدينة في أيدي أهالي الضواحي، باستثناء بناته اللاتي رجعن حينها للقصر وظللن تحت حراسة عبيد مسيحيين إلى حين قدوم الأمير الوطاسي[2]. مع العلم أن محمد الشيخ **"دخل...بإحدى بنات الملك السابق [الوطاسي]وأقام حفلات فاخرة بالمناسبة"**، وذلك إثر دخوله الأول لفاس ضاربا بعرض الحائط كل استعطافات أم السلطان الوطاسي[3]، وهو ما فعله أيضا الثائر بن أبي محلي(ت1022هـ/1613م) بأم زيدان بن المنصور بعد سيطرته على مراكش[4].

وكانت النساء كذلك ضحية الممارسات المخزنية في مختلف الفترات، كالسبي والخطف، مثلما قام به جنود أبي فارس ومحمد الشيخ في فاس انتقاما من أهلها وجيش زيدان بن المنصور[5]، وهو ما فعله أيضا جنود قائد هذا الأخير مصطفى في طريقهم من مراكش نحو فاس[6]، وما كان يقوم به علوجه حتى داخل مراكش[7]. وكن يؤخذن أيضا كرهينة إلى جانب أطفالهن كوسيلة لإخضاع القبائل الناشزة والرافضة لأداء الضرائب[8]، ويتعرضن أيضا للقتل خلال العقاب الجماعي الذي يأتي على الثوار المناهضين للمخزن وعوائلهم[9]. إضافة إلى النهب والإذلال، على غرار ما تعرضت له نسوة فاس حين أمر زيدان بن المنصور بسلب سكان المدينة **"رجالا ونساء وبقي بعضهم ينظر إلى عورة بعض، وكان عدد السلب نحو عشرة آلاف كسوة"**[10]، كما كن في عهد عبد الملك بن الشيخ المامون(1623-1627م) يعبرن الأزقة في فاس مقابل المال[11]. إلى جانب التضييق والاضطهاد والظلم الذي مارسه المخزن على العديد من النساء، مثل الصالحة عائشة الادريسية أم ابن عسكر التي نالتها عدة مضايقات من القائد محمد بن راشد زمن عبد الله الغالب لدفعها للرحيل عن شفشاون، فما كان بيدها

---

bibliothèque de France,Tome III, Ernest Leroux, Paris, 1911, p. 378-379.

[1] -Henry DE CASTRIES, **Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèque des Pays-Bas,Tome I**, Ernest Leroux, Paris, 1906, p. 210-211.

[2]-مارمولكربخال، **إفريقيا، م.س**، ج 1، ص. 486 – 487.

[3]-نفسه، ص. 478.

[4]- محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي، م.س**، ص. 304.

[5]-محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، تحقيق محمد حمزة الكتاني، دار إبن حزم، بيروت، 2008، ص. 143.

[6]- محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي، م.س**، ص. 287.

[7]- عبد الرحمان التمنارتي، **الفوائد الجمة،م.س**، ص. 296.

[8]-Henry DE CASTRIES, **Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèque des Pays-Bas,Tome III**,Ernest Leroux, Paris, 1912, p. 524.

[9]- عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، 1972. ص. 96.

[10]- عبد الرحمان التمنارتي، **الفوائد الجمة، م.س**، ص. 347.

[11]-مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية، م.س**، ص. 100.

إلا الدعاء عليه[1]. والمرأة التي أخذها الطلق[2] وهي في كرب المخاض، وقد رآها فقهاء فاس وأعيانها في طريقهم لمراكش قصد التعييد مع المنصور، وهي مكبلة ضمن سلسلة تضم عددا من الرجال والنساء من أهل الغرب، هذا المنظر الذي أحزن وهَمَّ كل من شاهده، في حين أن المنصور لم يهتم بشكاية القاضي عبد الواحد الحميدي حول ذلك وغضب لها، مبررا فعلة جنوده بدعوى ضمان الأمن[3]، بحيث لم تستثن النساء من العقاب الجماعي للمخزن. زيادة على المرأة الدكالية الذي أخذ لها أحد عمال المنصور مالا، فقدمت عليه مراكش لتشكو له حيف عامله غير أنه لم ينصفها، لتنصرف يائسة هي وأولادها دون تحقيق مرادها[4].

ومنه فقد لقيت فئة النساء في جميع المستويات الاجتماعية معاملة سيئة خلال العهد السعدي، حتى اللواتي عشن في كنف السلاطين ورجالهم أوممن انتمين للأسرة الحاكمة، إذ لم تسلمن من العقاب في حال مخالفة القوانين، والذي يمكن أن يصل إلى حد القتل، حيث كان للمنصور غرفة داخل قصره يقتل فيها النساء إلى جانب القواد[5]. وهو ما كان يدفع بعضهن أحيانا لإبداء ردة الفعل والانتقام، مثل مريم أخت عبد الله الغالب التي دبرت مكيدة للإيقاع بقائده علي بن أبي بكر الذي قام بقتل أبنائها بعد تولي أخيها الحكم دون وجود تهديد حقيقي منهم تجاه الجالس على العرش، وهو ما انتهى باستحواذ السلطان على ممتلكاته وأمره بقطع رأسه مع أنه كان من أفضل وأخلص رجاله[6].

[1]- محمد بن عسكر، **دوحة الناشر، م.س**، ص. 26.
[2]- الطّلْق: وجع الولادة، جماعة من المؤلفين، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، القاهرة،الطبعة 2، 1972، ص. 590.
[3]- محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي، م.س**، ص. 242 – 243.
[4]-نفسه، ص. 243 – 244.
[5]-ديي□و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء، م.س**، ص. 229/أنطونيو دي صالدانيا، **أخبار أحمد المنصور، م.س**، ص. 94.
[6]-ديي□و دي طوريس، **تاريخ الشرفاء،م.س**، ص. 229.

الشيخ محيي الدين بن مصطفى الجزائري والزاوية القادرية.

د.محمد بكار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/جامعة حسيبة بن بوعلي/الشلف/الجزائر.

الملخص:

لقد أخذت الزوايا الصوفية حقها في الجزائر نتيجة ازدراء السكان من السلطة العثمانية وحكامها، واستغل شيوخ هذه الزوايا الغياب الكلي للأتراك داخل البلاد ليرعوا شؤون الجزائريين دينيا واجتماعيا وحتى سياسيا بعيدا عن الأماكن الحضرية المتواجد فيها الأتراك. ولما انتشرت الطرقية يشكل لافت داخل المجتمع استجاب الجزائريون لشيوخها نظرا لتقواهم وزهدهم وللحماية التي وفروها لمن يطلبها منهم. ومن بين الزوايا المنتشرة في الغرب الجزائري، الزاوية القادرية التي أشرف عليها الشيخ "محي الدين" بعد والده الشيخ "مصطفى بن المختار".

لقي الشيخ"محي الدين" خلال إشرافه على الزاوية عدة متاعب مع الأتراك باستثناء احترام باي معسكر "بوشلاغم" لشخصه حتى أنه كان يحضر دروسه. قاوم "محي الدين" الاحتلال الأسباني والفرنسي إلى غاية وفاته، وتمكن من تنظيم شؤون الزاوية وجعل منها مؤسسة دينية وسياسية واجتماعية تقدم الحماية والمساعدات للفقراء والمحتاجين والطلبة الوافدين. ومن خلال هذه الدراسة يظهر دور الزوايا الجهادي والثقافي في زمن غاب فيه حكم الأتراك وأصبحت البلاد عرضة للاستعمار الأوربي الحديث.

لقد برهنت الزاوية القادرية تحت إشراف الشيخ "محي الدين" عن قدرتها في جمع شمل الجزائريين، وفكرت في حل عربي للاستغناء عن الأتراك والفرنسيين إلى حد مقاومتهم. ومن جهة أخرى حافظت الزاوية في عهده على علوم الدين الإسلامي، وأصبحت مقصدا للطلاب من داخل الجزائر وخارجها، ولم يهدأ بال الاستعمار الفرنسي خوفا من الزاوية حتى تعمد تهديمها بعد استفحال مقاومة ابن الشيخ "محي الدين" الأمير "عبد القادر".

الكلمات المفتاحية:
محي الدين- معسكر- القيطنة- الأسبان- الأتراك-الاستعمار- المقاومة- الحضر- الزوايا- الأمير عبد القادر- مصطفى بن المختار- الداي حسين- الباي حسن- بوشلاغم- وهران- سيدي فرج- المغرب- السلطان- تلمسان- الطلبة- المحروسة.

مقدمة:

من بين الشخصيات الجزائرية الوطنية التي لم تنل نصيبها في الكتابة التاريخية ولم ينصفها المؤرخون بقدر كاف، شخصية "محيي الدين بن مصطفى" الذي قلما نتطرق إليه لعدة اعتبارات ولعل أهمها اقتران هذه الشخصية مباشرة بشخصية الابن "عبد القادر" الذي نال كل الاعتراف والتقدير باعتباره مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة بمفهومها الوطني، إلى جانب كونه أهم قائد جزائري للمقاومات الشعبية بعد الغزو الفرنسي للبلاد أي بعد بيعته الأولى سنة 1832م خلفا لوالده الشيخ "محيي الدين بن مصطفى".
ويعتبر الشيخ "محيي الدين بن مصطفى" من الشخصيات المخضرمة التي عايشت نهاية الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، فهو ذلك الزاهد والمتصوف والقائد الذي يعتبر أحد رواد الطريقة القادرية في الغرب الجزائري أيام الحكم العثماني.
لقد كان للشيخ "محيي الدين بن مصطفى" الفضل الكبير في بعث روح الجهاد ومقاومة الاحتلال الفرنسي في نفوس الجزائريين بعد سقوط الجزائر العاصمة وخروج آخر الدايات منها عام 1830م، ويكفي هذا المتصوف أنه كان على رأس المقاومين لما سقطت مدينة وهران، عاصمة بايلك الغرب بعد تخاذل آخر باياتها "حسن" الذي لم يعد يقاوم لكبر سنه، واستسلم للأعداء الأمة، حيث رحلته فرنسا إلى مدينة الإسكندرية المصرية. والمعروف عن الحاج "محيي الدين بن مصطفى" أنه اتصف بالحكمة واليقظة والحزم وبالمواقف الجريئة خلال إشرافه على الزاوية القادرية ومتاعبها وقيادته للمقاومة وما تقتضيه من صبر وتضحية.
ومن خلال الحديث عن هذه الشخصية أردنا الكشف عن طرح تاريخي لطالما ميز الجزائر في العقود الأخيرة من الحكم العثماني قبل الاحتلال الفرنسي، وتمثل في بروز شخصيات صوفية على الساحة وتزعمهم لها داخل البلاد بعدما اتفق المجتمع الجزائري حولهم نتيجة الفراغ السياسي الذي تركه الداي وباياته الذين اكتفوا بجمع الضرائب دون الاهتمام بأحوال الجزائريين. لهذا وجدت الرعية في هؤلاء الصوفيين زعماء سياسيين ودينيين منحت لهم صلاحيات فتحولوا بسرعة إلى سلطة بديلة تسير أمور من دخل في حماهم بعيدا عن المناطق الحضرية التي يقطنها الأتراك. و"الشيخ محيي الدين بن مصطفى" من بين هؤلاء الذين ظهروا، وكان له شأن بعدما حول زاوية القيطنة إلى مؤسسة حقيقية لها دور روحي وسياسي واجتماعي أنسى الناس حكم الأتراك وسياستهم المقصية للعناصر الوطنية سواء تعلق الأمر بالوظائف الإدارية أو العسكرية. فمن هو "الشيخ محيي الدين بن مصطفى بن المختار"؟ وما هي الجوانب الخفية في حياته داخل الزاوية أو خارجها؟ وكيف كانت حالته وهو يتنازل لابنه عن الإمارة؟.

- مولده ونسبه:

ولد "محيي الدين بن مصطفى" سنة 1190ه/1775م، ونشأ بطرف "غريس" من الجهة الغربية على مرحلة من الجهة الغربية من أم معسكر في قرية اختطها جده في شهر أكتوبر من عام 1786م، ودام مشروع البناء حتى سنة 1791م[1]. واشتهر اسم هذه القرية بالقيطنة، وهي كلمة مشتقة من القطن، وتشرف القرية على مشارع "واد الحمام"، وهو واد من أكبر الأودية وأغذاها ماء ذا عروج عن يمينه وشماله، صالحة للزرع والضروع، وينسب الوادي إلى ولي مزار قبره اسمه "سيدي محمد بن الحنفي"[2].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، ص.48.

[2]- المرجع نفسه.

وينتسب "الشيخ محيي الدين" من حيث النسب إلى أول أجداده الذي يرجع أصله إلى أسرة "علي بن طالب"، وهو "عبد القوي الأول" الذي نزل بقلعة "ابن حماد"[1] ثم بتاهرت[2]. وانتقل ولده " أحمد" المعروف "بابن خدة" إلى وادي العبد قرب "غريس" وفيها استقر[3]. وعلى غرار انتماء عائلة "محيي الدين بن مصطفى" إلى النسب الشريف، فإنها تمكنت في عدة مناسبات المشاركة في مقاومة الاستعمار، مثل جدّه "محمد بن المختار" المعروف بالمجاهد (1095ه-1163ه) والذي استشهد في مقاومة الجيش الأسباني في ساحة وهران، وحمل جثمانه إلى "غريس" رغم بعد المسافة.[4]

لقد ترك الجد الشهيد ابنه "مصطفى" (والد الشيخ محيي الدين) صغيرا، فتكفل أعمامه برعايته وتربيته خلال مرحلة طفولته إلى أن كبر وتزوج وأنجب الابن "محيي الدين". لقد كان الابن "محيي الدين بن مصطفى" أوفر حظا من الوالد، حيث نشأ وترعرع بين أحضان والده الشيخ "مصطفى"، وتعلم في زاوية القيطنة التي تبعد عن مدينة معسكر بحوالي (30 كلم) على يد علماء بلدة غريس السهلية حتى كبر واشتد عوده، وأخذ من الطريقة القادرية العلم ومبادئ التصوف وهذا ما مكنّه من الإشراف على هذه الزاوية بعد وفاة والده.

ومما سبق نذكر أنّ الشيخ "محيي الدين" تزوج من أربع نساء، ورزق منهن بست أولاد وبنت واحدة هم على التوالي: "محمد سعيد"، و"مصطفى" من الزوجة الأولى "عريضة بنت سيدي الميلود"، و"الحسين" من زوجته الثانية "فاطمة بنت سيدي دحو"، و"عبد القادر "(الأمير قائد المقاومة)، وشقيقته "خديجة" من زوجته الثالثة "زهرة بنت سيدي عمر بن دوبة"، أما "المرتضى" فمن زوجته الرابعة "خيرة"[5].

ونظرا للوضع الميسور للعائلة الذي تمتعت فيه بفضل إشرافها على الزاوية، أصبح بيت "الشيخ محيي الدين" (شيخ الزاوية القادرية) يضم نحو ستين خادما وخادمة، ومع ذلك، فإنّ زوجاته وحتى ابنته ثابرن جميعا على خدمة الزاوية، ولم يتركن أبدا خدمة البيت وشؤون تربية الأولاد. وبصفته المسؤول الأول عن الرعية وأحوال الناس داخل الزاوية وخارجها، تمكن الشيخ "محيي الدين" من اكتساب تقوى كبيرة وود الجميع بفضل علمه وزهده في الحياة، حيث كان يلقن الأوراد القادرية للمريدين من جهة مراكش، وسوس، وشنقيط، ومن نواحي الإفريقية. بل كان له تلاميذ من الإسكندرية[6].

-محيي الدين بن مصطفى على رأس الزاوية القادرية:

ظهرت الطريقة القادرية في الجزائر قبل مجيء العثمانيين إلى الجزائر بكثير، واختلطت هذه الطريقة في البداية بتعاليم الطرق الأخرى الموجودة داخل البلاد وعلى رأسها الطريقة الشاذلية[7]. وشجع الأتراك

---

[1]- قلعة بني حماد: بناها مؤسس الدولة الحمادية حماد بن بلكين عام 1007م وتهدمت عام 1152م، تقع في جبال شمال شرق مدينة المسيلة. أنظر:

G.Mequesse; Notice sur la Kalaa des Béni Hammed, Revue africaine, N°178, juillet-Aout 1886.

[2]- تاهرت: مدينة جزائرية أسسها عبد الرحمن بن رستم في المغرب الأوسط (الجزائر) سنة 777م، وهي على بعد عشرة كيلومترات غرب تاهرت القديمة. أنظر: ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، دار الغرب الإسلامي، ص.36.

[3]- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1-2، ط2، دار اليقظة، بيروت 1964، ص.923.

[4]- المرجع نفسه، ص.929.

[5]- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (1808-1847)، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1993، ص.67.

[6]- الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849، تحقيق محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح ألجون، شركة دار الأمة للطباعة، الجزائر 1994، ص.28.

[7]- الشاذلية: هي سلسلة صوفية تنتشر في مصر وبلاد المغرب العربي خاصة في تونس والجزائر، وتنتسب الشاذلية إلى أبي الحسن

الطريقة القادرية المنتشرة في مدينة بجاية بتبادل التقدير والاحترام، وهو السلوك نفسه الذي اتبعوه نحو الطرق الصوفية الأخرى الموجودة داخل الإيالة. ويعود انتقال هذه الطريقة إلى الجزائر بفضل الحجاج الجزائريين من العلماء والصالحين آنذاك الذين ألفوا التوجه بعد الانتهاء من أداء المناسك في الحجاز إلى بغداد لزيارة ضريح الشيخ "عبد القادر الجيلاني"، وتقديم الهدايا الثمينة إلى حراس الضريح، وكانت تلك الزيارة عندهم جزءا مكملا للحج والرحلة من أجله، إذ لا يصح أن يعودوا إلى بلادهم دون الوقوف عند "مولى بغداد" والتبرك على ضريحه[1]. أما فضل تأسيس أول زاوية أخذت من تعاليم الطريقة القادرية في القطر الجزائري إنما يعود إلى الشيخ "مصطفى الغريسي بن المختار"، والد الشيخ "محيي الدين" نحو عام (1200ه/1785م)، حيث أصبحت هذه الزاوية تعرف بزاوية "القيطنة" القريبة من مدينة معسكر كما ذكرنا والتي خربها الاستعمار الفرنسي بعد سقوط مدينة معسكر.

كانت تطلعات الشيخ "مصطفى الغريسي" كبيرة لما أراد توسيع زاويته بالقيطنة ليجعل منها معهدا لطلب العلم ونشر الطريقة القادرية في معسكر والمناطق الأخرى خلال فترة توليه شؤون الزاوية بعد والده، غير أنه توفي في طريق العودة من الحجاز بعدما نال منه المرض ودفن في برقة بليبيا سنة 1212ه. وفيما تعلق بخليفته على أمر الزاوية من بعده، فقد سبق أن ذكر لمرافقيه أنه تركها لولده "محيي الدين" مسرجة[2]. وفي حياته، حج الشيخ مصطفى" أربع مرات، ولازال قبره موجودا إلى اليوم عند عين على ساحل البحر يقال لها "عين غزالة" مكتوبا عليه بحجرة نقشا على قدر مقامه "هذا قبر سيدي الحاج مصطفى الغريسي"[3].

وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، ساءت العلاقة بين الحكام الأتراك والجزائريين مما دفع بالإدارة الحاكمة من الأتراك إلى التمركز في المناطق الحضرية خوفا من رد فعل الجزائريين وانتشار الثورة داخل البلاد، وتمتعوا في هذه المناطق بسلطة مطلقة، فمن جهة هم القواد، والقضاة، والجباة، وكانت كلمتهم لا ترد، وحكمهم نافذ، فمن شاءوا أنقذوه، ومن شاءوا أغرقوه[4]. وفي هذه الظروف المضطربة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا بين الرعايا الجزائريين والحكام الأتراك، بحث الجزائريون على منفذ يعيد لهم التوازن المفقود بعد أن سلبت منهم إرادتهم أكثر من ثلاثة قرون كاملة بسبب سوء معاملة إدارة الأتراك لهم وإقصائهم من الوظائف ومن أي مشاركة فاعلة لحكم بلدهم، وإلى جانب هذا تلك التحرشات الأسبانية البحرية المتكررة على الشريط الساحلي، ولهذه الأسباب اضطرت معظم القبائل والعائلات الجزائرية النفور من تجمعاتهم الأصلية واختيار منطق مقاطعة التعامل مع الأتراك، ولجئوا تحت طائلة الضغط إلى تعمير مناطق جديدة في الواحات والقرى الجبلية، ومنهما ظهرت البنية الاجتماعية الجديدة للمجتمع الجزائري المفكك الباحث عن الأمن والاستقرار[5].

كان المجتمع الجزائري في هذه الفترة من تاريخه أكثر حاجة إلى زعيم يقوده وسلطة تحميه، ولم يجد ضالته إلاّ لدى شيوخ الزوايا المنتشرين خاصة في المناطق الداخلية بعيدا عن السلطة المركزية الموجودة في الحواضر. إن هؤلاء الشيوخ الزهاد قد تمكنوا الجمع بين الزعامة السياسية والروحية لتسيير أمور الناس آنذاك نتيجة الوضع القائم والذي أطلقنا عليه سابقا بـ

علي بن عبد الله المولود بغمارة من قرى سبتة سنة 593ه. أنظر: عبد الحليم محمود، المدرسة الشاذلية وإمامها، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ص ص:29، 32.

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981، ص ص:520-521.

[2]- الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص.28.

[3]- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص.28.

[4]- ضيف الله محمد الأخضر، محاضرات في النهضة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1980، ص. 37.

[5]- المرجع نفسه، ص.38.

"الفراغ العثماني داخل الجزائر". ففي المنطقة الغربية للوطن برزت زعامة الشيخ "محيي الدين بن مصطفى بن المختار الحسيني" كواحد من بين الزعماء الدينيين الذين بسطوا نفوذهم على كامل منطقة معسكر قبل الاحتلال، وكان قبل مجيء الغزو الفرنسي يكافح طغيان الحكام الأتراك وتعسفهم[1].

والمعروف عن دور عائلة الشيخ "محيي الدين" أنها لعبت دورا كبيرا في المنطقة نظرا لما تمتعت به من جاه ونفوذ ووقار، وازدادت مكانتها أهمية بعد توليها شؤون الزاوية القادرية التي أصبحت قبلة لطلبة العلم والزوار من عدة مناطق وبلدان كما أشرنا. كل هذه العوامل سهلت من مهمة الشيخ "محيي الدين" على إدارة الزاوية بطريقة محكمة. وعرفت زاوية "القيطنة" في عهدته إشعاعا دينيا وثقافيا لم يسبق له مثيل، وقصدها الكثير من الناس إمّا لعلم ينتفعون به أو شغف لزيارة الزاوية أو طلبا لحاجة خاصة الفقراء والمحتاجين، ومكانا يقصده عابري السبيل. وحسب مذكرات "الأمير عبد القادر"، فإن الزاوية كانت مفتوحة لحفظة القرآن، حيث تراوح عددهم ما بين خمسمائة إلى ستمائة لا يسمع المار بها إلا دوي القراءة في كل وقت مع تدوين العلم بأكثر أنواعه بمسجدها المعد للصلاة، والذي كانت فيه سبع مجالس للتدريس. وذكر الأمير عبد القادر أنّ من بناه هو قائد من ولاة وهران كان يرجو التقرب به إلى الله[2]. لكن الأرجح في هذا الكلام أنّ من بناه هو الباي "محمد الكبير" المعروف بـ"بوشلاغم" لما كانت معسكر بايلك الغرب قبل أن يتمكن هذا الأخير من تحرير مدينة وهران من المحتلين الأسبان وطردهم منها ونقل عاصمته إليها سنة 1792م.

لقد لعبت زاوية "القيطنة" دورها كاملا كمؤسسة دينية وعلمية، حيث كانت بمثابة معهد بالمفهوم المعاصر، تجمع ما بين تدريس القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومبادئ الشريعة الإسلامية. وزيادة على هذا الدور، ساهمت في تلاحم السكان، وأظهر أهل الخير منافسة شريفة في الإنفاق على الزاوية، ومد العون للشيخ "محيي الدين" من أجل أن يتكفل بالطلبة القاصدين للزاوية، ومساعدة المحتاجين والفقراء وإكرام الضيوف في أحسن الظروف. ويجدر الإشارة هنا، أنّ جانب التكافل الاجتماعي كان ضمن سمات الكرم والجود الذي تميزت به المنطقة، حتىّ أنّ سكان "القيطنة" تعوّدوا أن يخرجوا في كل ليلة الطعام الكثير للضيوف، وهو الشيء الذي جعل الشيخ "محيي الدين" ينشغل بأمور أخرى تهم الزاوية، فكان مع ابنه "عبد القادر" ملازما للصلاة والعبادة، لا تراه إلا مصليا أو تاليا أو ذاكرا أو مدرسا، والليل كله يقطعه متهجدا، ولا يتركه بسفر ولاحضر[3]. ويمكن القول أنّ الزاوية اتسعت للجميع، فكانت فعلا قبلة للزوار ومكانا تجمعت فيه القبائل طلبا للأمن والاستقرار وهو الشيء الذي لم توفره سلطة الأتراك الحاكمة آنذاك. ولعل أهم من لجأ إلى الزاوية القادرية بـ"القيطنة" هم المستضعفون، والمضطهدون، وزعماء القبائل، كما دخل في حمى الشيخ "محيي الدين" البعض من المغضوب عليهم من قبل الأتراك أمثال أتباع "محمد بن شريف" وعائلاتهم بعد فشل ثورتهم. كما كانت "القيطنة" محكمة للإيالة تحل تحت قوسها مشاكل الناس وخلافاتهم العائلية والاجتماعية. وأشفق "محيي الدين" على المرضى وأعانهم في ضيقهم، وأحسن إلى الفقراء وساعدهم أثناء محنتهم، وأمد المشردين والمحتاجين قوتا من محصوله، وأعطى اليتامى قسما من هداياه، فانتشر اسمه واعتبره الجميع أبا رؤوفا، وقائدا أمينا[4].

-مكانة الشيخ محيي الدين الاجتماعية والسياسية:

من الواضح أن مسئولية الإشراف على أمور الزاوية قد أخذت كل وقت الشيخ "محيي الدين" الذي سهر على

---

[1]- يحيي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، د.ت، ص.35.

[2]- الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص ص:28-29.

[3]- المرجع السابق، ص. 29.

[4]- أديب حرب، المرجع السابق، ص. 70.

رعايتها بكل تفاني وحكمة، وكان لا يفارقها إلا لساعات لما يزور مدينة معسكر بصحبة ابنيه "محمد السعيد"، و"عبد القادر" لقضاء حاجاته والتزود بالمؤن ومتطلبات الحياة ومستلزماتها. وكان يوم زيارة معسكر، فرصة له لزيارة كتاتيب المدينة، والمدرسين، والموردين، وبعض الأصدقاء أمثال "سي محمد بوراس" العالم الذي ألف عدة كتب دينية، وكان قاضيا للمدينة. ومما لا شك فيه أن الشيخ "محيي الدين" نال منزلة خاصة في قلوب الناس عامة، ولعب دورا سياسيا هاما في عهد الأتراك بدفاعه عن استقلال القبائل النازلة في المناطق الداخلية ضدّ سيطرة الحكومة الرسمية[1].

وعكس المواقف العدائية لبعض شيوخ الزوايا تجاه السلطة العثمانية في البلاد، فإن الشيخ "محيي الدين" أبدى وجها مسالما رغم تحفظاته منها، ولم يكن متعاطفا مع النظام العثماني ولا مع من كان يمثله[2]. كانت سياسته ترمي إلى التعايش حتى تنعم منطقته بالأمن والسلم. ويعود السبب الرئيسي في اختيار الشيخ "محيي الدين" هذا النوع من السياسة إلى ذلك الاحترام الذي كان يكنه للباي العثماني "محمد الكبير" مخلّص وهران من الأسبان، والذي وقف مساعدا للمحرومين في شتاء عام 1779م بعدما عرفت المحروسة (إيالة الجزائر) مجاعة كبرى. ولم يكن هذا الموقف إلا استثناء من قبل شيخ الزاوية القادرية نتيجة الصداقة التي كانت تربطه بحاكم الياليك في معسكر قبل توجه هذا الأخير إلى وهران كما ذكرنا. وكان بديهيا أن تتغير الأمور بعد تولية الباي "حسن" بايلك الغرب مكان "بوشلاغم"، حيث توترت العلاقة بين "محيي الدين" والباي الجديد الذي أصبح أكثر حذرا من الشيخ لشعبيته وقدرته على استنفار القبائل كما حدث للموكب الذي كان يرافق شيخ الزاوية القادرية إلى الحج. وذكر هنري تشرشل أنّ الشيخ "محيي الدين" اختار "عبد القادر" لمرافقته إلى الحج دون إخوته الآخرين رغم توسلاتهم، ليغادر الأب والابن قرية "القيطنة" في أكتوبر1823[3]. وقد منع الباي "حسن" الشيخ من متابعة رحلته إلى الحج وهو يشارف سن الخمسين، ووضعه رفقة ابنه "عبد القادر" تحت الحراسة والإقامة الجبرية في وهران. ومن الأسباب التي دفعت باي وهران إلى اتخاذ هذا الإجراء التعسفي، نذكر تخوفه من تداعيات رحلة الشيخ المثيرة للشك والتي أثارت حفيظة الباي بفعل الوشاية. ففي نهاية اليوم الأول منها رأى "محيي الدين" مئات من العرب يطالبون بشرف وشغف كبير مشاركته في رحلته المباركة إلى الأراضي المقدسة. وفي اليوم الثاني أصبح عددهم بالآلاف. وفي اليوم الرابع أقيم بحر من الخيام حول خيمته. إن محيي الدين كان مرابطهم، ورئيسهم، وقديسهم، وستتضاعف بركة أولائك الذين يتطلعون تحت رعايته، إلى تقبيل الكعبة المقدسة. وفي عشية اليوم السادس تجمع الركب الكبير على ضفة نهر جديوية في سهل الشلف[4]. ورغم معارضة المناصرين ذهابه إلى الحاكم بوهران خوفا عليه من العواقب، استجاب الشيخ للدعوة ورضي بالحكم، وقد استمر هذا الوضع الشاق دون وهن سنتين، ولم يقم محيي الدين بأي احتجاج[5].

- رحلته إلى الحج:

لم يطلق سراح الشيخ "محيي الدين" و"عبد القادر" إلا بعد تدخل زوجة الباي "بدرة" وبعض أعيان مدينة وهران أمثال "مصطفى بن اسماعيل" و"المزاري". وفي رحلته الثانية، خرج الشيخ "محيي الدين" رفقة ابنه متنكرا من وهران بعد الإفراج عنهما نحو الحجاز عبر البحر دون العودة إلى "القيطنة" خوفا من إثارة الفتنة، وتصرف بحكمة لما تجنب وقوع حرب بين أنصاره والسلطة العثمانية. وسبقت سمعة الشيخ الوطن العربي لما حظي باستقبال على قدر منزلته أينما

---

[1]- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص.27.

[2]- Smaïl Aouli, Ramdane Rejala, Philippe Zoummeroffe, Abdelkader, Edition Fayard, Paris, 1994, pp:25,31.

[3]- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974، ص.42.

[4]- المرجع نفسه، ص.43.

[5]- المرجع نفسه، ص.44.

حلّ في مصر من قبل واليها آنذاك "محمد علي باشا"، والشيء نفسه كان له في الحجاز. وبعد أداء فريضة الحج، عرّج الشيخ محيي الدين على دمشق وزار علمائها، ووصل بعدها إلى مدينة بغداد، حيث زار ضريح الشيخ "عبد القادر الجيلاني". وفي المدينتين السالفة الذكر، نال تقدير الحكام والأعيان، لكنّ عودته إلى الوطن استغرقت هذه المرّة مدّة أطول بسبب اختياره الطريق البري من الحجاز في بداية سنة 1828م، وسبب عزمه هذا راجع لنفاذ ما كان له من أموال. ولمّا وصل إلى الديّار، أقام الشيخ "محيي الدين" وليمة كبيرة بـ"القيطنة" احتفالا بسلامته وسلامة ابنه بعد سفر شاق، واستمر بعد ذلك في نشاطه في إدارة شؤون الزاوية وتسيير أمورها كما كان الحال قبل رحلته.

- جهاده للمحتلين:

على عكس المقاطعات الجزائرية الأخرى، عرفت مقاطعة بايلك الغرب عدة عواصم، فمن مدينة "مازونة"[1] نقلت إلى مدينة "معسكر" سنة 1710م لتنقل أخيرا إلى مدينة "وهران" عام 1792م بعد طرد الأسبان منها. لقد كان للتنظيم الإداري العثماني عدّة انعكاسات سلبية على المجتمع الجزائري سياسيا وعسكريا، حيث كرس الفرقة بين الجزائريين وأضعف القدرة الدفاعية للعاصمة إن لم نقل كامل التراب الوطني. فكان من البديهي أن تظهر سلطة الحكام بشيء من عدم التماسك نتيجة الانقسام وعدم تقدير المخاطر الخارجية منذ الحصار الفرنسي للبلاد عام 1827م، فكل ما كان يهم الأتراك حينها هو جمع الضرائب بشتى الطرق، وهذا ما تجلى فعلا بوطء أقدام الجيش الفرنسي ساحل "سيدي فرج"[2]، لتعرف البلاد مأساة حقيقية بعد استسلام الداي "حسين" يوم 5 جويلية 1830م الذي ترك الشعب الجزائري وجها لوجه مع المستعمر، ولتعرف الجزائر مرحلة أخرى من الفراغ السياسي طيلة مدّة الاحتلال الفرنسي.

لقد ازداد الأمر تعقيدا نتيجة التفكك السياسي بعد تنكر البايات للسلطة المركزية واستقلالهم بمقاطعاتهم طمعا البقاء في السلطة رغم الخطر بعد سقوط العاصمة، لكن الأمر لم يدم طويلا حيث سلك باي وهران "حسن" طريق الداي "حسين" حين سلم مدينة "وهران" بسرعة يوم 4 يناير 1831م بعدما شعر بالمأزق ورغبة العرب بالثأر منه لطغيانه، وقرّر بعد رفضه فكرة الهروب...أن يرسل إلى محيي الدين ويتوسل إليه أن يحميه[3]. ورفض من جهته الشيخ "محيي الدين" طلب الباي بعد استشارة قومه خوفا من غضب القبائل الثائرة. ومع تسارع الأحداث والمخاطر التفّت القبائل حول شيخ الزاوية القادرية "محيي الدين" ليقود المقاومة. وحسب ما ذكره أبو القاسم سعد الله، ولا شك فيه:"أنّ دراستنا أثبتت أنّ الطرق الصوفية في الجزائر تضعف عندما تقوى السلطة الدنيوية (الزمنية)، وتقوى عندما تضعف هذه أو يتعرض الدين للخطر"[4]. وقد شعر "محيي الدين" هو الآخر، والذي كان إلى الآن ملاحظا ومسالما، بأن الوقت قد حان للعمل. وبأمر منه قام "عبد القادر" وأخوته، مع حامية هامة، بطواف السهول من كل جانب، وحماية المشردين المنكوبين، وإنقاذ كثير منهم من أيدي اللصوص وأخذهم جميعا إلى أماكن مأمونة[5].

---

[1]- مازونة: تقع مدينة مازونة على بعد مرحلة شمال نهر شلف، في سفح سلسلة جبلية تبتدئ غرب بلاد بني زروال، وتسير بالتوازي مع نهر شلف حتى تصل إلى مدينة المدية...أنظر: أحمد بحري، حاضرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث 1500-1900م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2012-2013، ص ص: 14-15.

[2]- سيدي فرج: هي منطقة ساحلية شبه جزيرة تقع غربي العاصمة على بعد 28 كلم، احتلها الفرنسيون وفق خطة الجاسوس "بوتان" التي وضعها منذ عهد نابليون. أنظر: صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال المراحل الكبرى، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، 2005، ص.188.

[3]- شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص.51.

[4]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص.383.

[5]- شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص.52.

وهكذا أصبح الشيخ "محيي الدين بن مصطفى" هو قائد حملات الحصار الشعبية، وهي الحملات التي لم نكن نعرف فيها بالضبط، ولكن بالتأكيد إنها كانت تضم الفلاحين وفقراء المدن وإخوان الزوايا وفرسان "القوم"، الذين بعثت بهم القبائل البعيدة[1]. وبفعل هيبته ووقاره، استطاع الشيخ "محيي الدين" في ظرف قصير من جمع المتطوعين، وقيادة معركة "خنق النطاح" الأولى في وهران عام 1832م، كما شارك في معركة "برج رأس العين" بالمدينة نفسها، وقطع على جيش الاحتلال طريق المواصلات. وذكر أبو القاسم سعد الله من خلال الاعتماد على بعض المصادر أنّ قوات "محيي الدين" عندئذ كانت حوالي اثنى عشر ألف رجل[2].

ومهما يكن مصدر جيش مقاومته، كانت الأوضاع سيئة بعد استسلام باي وهران وخروج أهل المدينة منها بعد دخول الجيش الفرنسي، كما اعترف باي مستغانم "ابراهيم" بالسلطة الفرنسية لكي يحتفظ بمنصبه[3]. والأخطر من هذا هو بروز معارضين للشيخ "محيي الدين" وللزاوية القادرية من أصحاب المصالح منذ عهد الأتراك، وما دامت أول قيادة للمقاومة الشعبية قد ظهرت على يد مرابط (الحاج محيي الدين) فلماذا لا يكون أول المخالفين له ولابنه من بعده هو الآغا مصطفى بن اسماعيل، من الأجواد، وابراهيم بوشناق، من الأتراك، والكراغلة من الحضر، والتجانية من المرابطين؟[4]. والظاهر أنّ رغم المتاعب وعداوة البعض، حاول الشيخ "محيي الدين" في آخر أيامه جمع شمل الأتراك ورؤساء القبائل في كل من "تلمسان"، و"مستغانم" من أجل وحدة الصف، إلاّ أنّ مسعاه لقي الفشل. ومن الأسباب الموضوعية لفشل احتواء الأزمة والوحدة آنذاك، نذكر تردد البعض وتخاذلهم، وتعاون البعض الآخر مع جيش الاحتلال ضدّ إخوانهم، ولم يكتف هؤلاء بهذا وراحوا يمونون الجيش الغازي بالغذاء أثناء حملاته التوسعية داخل البلاد. وقد أسرع "محيي الدين" و"عبد القادر"، مع رؤساء بني هاشم، رؤساء بني مهاجر، وبني عامر، وغيرهم من القبائل لما اتصلوا بسلطان المغرب الأقصى لكي يعلنوا ولائهم له أمام ممثل سلطانهم الجديد[5]. وهكذا اعترفت البلاد كلها بالسلطان المغربي، لكن الشيء المؤسف أن أبدى ملك المغرب السلطان "عبد الرحمان" تخوفا من عواقب تقديم المساعدة بعد اتصال الشيخ "محيي الدين" بابن أخيه "علي" على مشارف مدينة "تلمسان" من أجل حثه على الدفاع عن الجزائر مقابل الطاعة والولاء، حيث رفض السلطان المغربي بعدما أنذرته فرنسا بالحرب إن وافق على طلب الجزائريين.

لقد عرف عن الشيخ "محيي الدين" في حياته بالسخاء والكرم. كل هذا تجلى لديه لما استطاع أن يجعل من النضال أسلوبا للتعبير عن الذات والقيم الإسلامية المثلى لقبائل الحشم والقبائل الأخرى التي دخلت في حماه مع بداية التوسع الاستعماري في البلاد إن لم نقل قبله أي سنة تحرير وهران من الأسبان. ويكفيه فخرا أنه قام بالتنازل عن الإمارة لصالح ابنه "عبد القادر" ليكمل هذا الأخير فريضة قيادة حركة الجهاد للتخلص من الاستعمار الفرنسي الاستيطاني. ومن الواضح أنّ الشيخ "محيي الدين" لم يبد أبدا طمعا ولا رغبة في الإمارة والسلطنة رغم أنها عرضت عليه بإلحاح من قبل عشيرته والقبائل كم مرة.

كانت قيادة الشيخ "محيي الدين" للمقاومة الشعبية عسكرية بحتة، جاهد الغزاة الفرنسيين قرابة السنتين والنصف دون أن يظهر فيها زعيما أو أميرا أو سلطانا، وإنما كان داعية جهاد[6]، وهو من رفض الإمارة ثلاث مرات متتالية لما عرضت عليه من قبل رؤساء القبائل والزوايا. وفي الأخير وأمام شدّة الإلحاح عليه، اختار ولده "عبد القادر" أميرا على الناس بعد مبايعته، ولقبه بـ"ناصر الدين" عند شجرة الدردار بوادي "فروحة" من منطقة "غريس" يوم 21 نوفمبر 1832م. وقد ذكر شارل هنري تشرشل أنّ الشيخ "محيي الدين" قبل

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.171.

[2]- المرجع نفسه.

[3]- مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص.215.

[4]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.171.

[5]- شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص.54.

[6]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.172.

اقتراح القبائل إلا لما هدّد بالقتل[1]. وهكذا استسلم الشيخ "محيي الدين" للقدر وقاد الجهاد بوازع ديني ووطني، ولما أعياه المرض خلال معركة "خنق النطاح" الثانية، حلّ محلّه الابن "عبد القادر" الذي عرف بليونته وخجله في الصغر، لكنه تحول إلى شاب قوّي اكتسب شجاعة وعلم والده. لقد كان "الشيخ محيي الدين" غالبا ما يعود به إلى عهد طفولته الناعمة ويعجب من المقارنة المدهشة[2].

لم يعمّر الشيخ "محيي الدين" أكثر من سنة بعد تولي "عبد القادر" الإمارة، وتوفي بتاريخ 3 ربيع الأول 1249ه/1833م بعد ما اشتدّ داءه وصعب علاجه. لقد تمكن الحاج "محيي الدين" من آداء واجبه كرجل دين زاهد في الحياة وخادما للناس ولوطنه، لقد حمّل ابنه مسئولية قيادة المقاومة رغم سنه، وكاد هذا الأخير أن ينجح في مهمته لو لا الدسائس التي تعرض لها في الداخل والخارج والتي أجبرته على إمضاء عقد الآمان مع ولي عهد فرنسا.

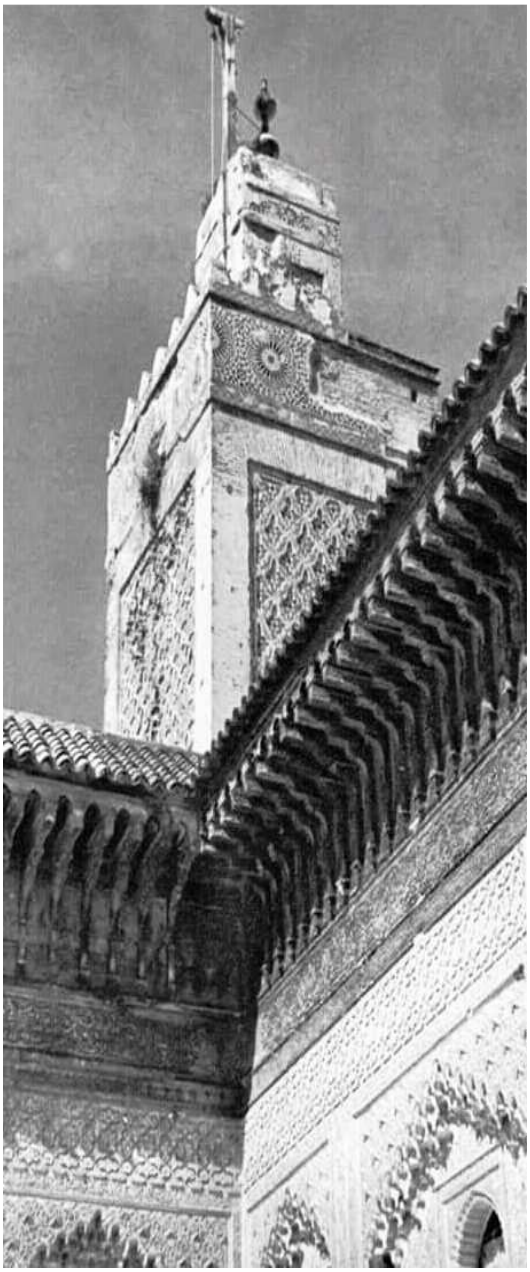

[1]- شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص.56.

[2]- المرجع السابق، ص. 39.

المصادر والمراجع:

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992.
- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- أحمد بحري، حاضرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث 1500-1900م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2012-2013
- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1993.
- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1-2، ط2، دار اليقظة، بيروت 1964.
- الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849، تحقيق محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح ألجون، شركة دار الأمة للطباعة، الجزائر 1994.
- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974.
- عبد الحليم محمود، المدرسة الشاذلية وإمامها، دار الكتاب الحديث، القاهرة، دت.
- صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال المراحل الكبرى، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، 2005.
- ضيف الله محمد الأخضر، محاضرات في النهضة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1980.
- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.
- مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- يحيي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، د.ت.

-G.Mequesse; Notice sur la Kalaa des Béni Hammed, Revue africaine, N°178, juillet-Aout 1886.

- Smaïl Aouli, Ramdane Rejala, Philippe Zoummeroffe, Abdelkader, Edition Fayard, Paris, 1994.

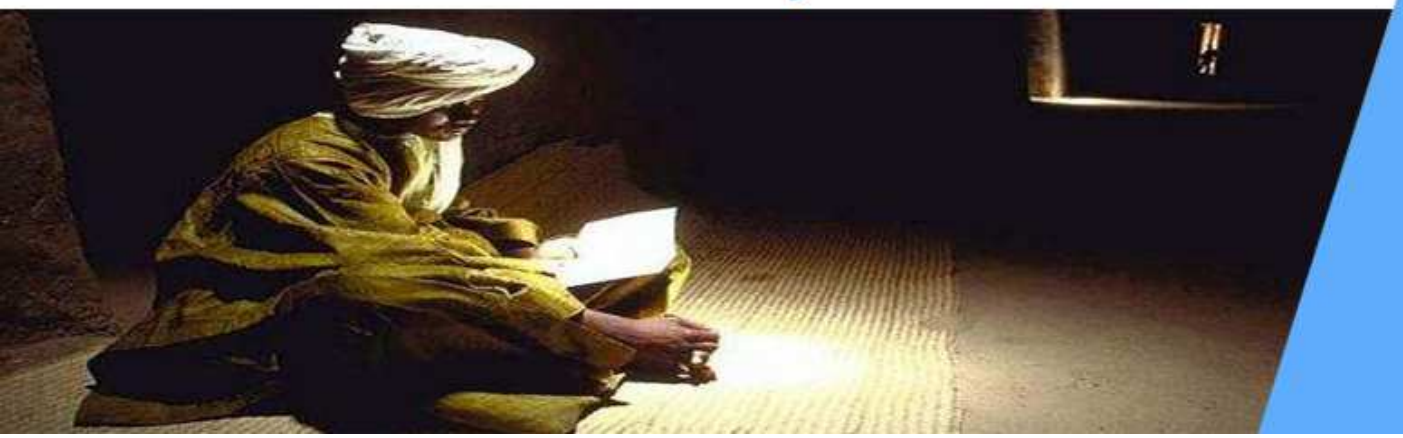

التصوف السني في خدمة المجتمع والثقافة بالمغرب السعدي نموذج:رضوان الجنوي وأحمد الشاوي

د.خالد الصقلي
أستاذ التعليم العالي
جامعة محمد بن عبد الله
فاس

مقدمة:

يتميز التاريخ المغربي ببروز ظاهرة المتصوفة الذين تنوعت صفاتهم وتعدد سلوكهم وكثرت توجهاتهم ما بين أولئك الذين كانوا مقتدين بشيخ أو أكثر مع اتباع طريقة صوفية معينة، وما بين أولئك الذين شكلوا تصوفا منفردا غير مرتبط بطريقة معينة. وظل الكتاب والسنة النبوية هما الأساس في بروز التصوف المغربي سواء في شكله الجماعي أو في شكله الفردي، ونجد منهم العلماء والمجاهدين الذين لعبوا أدوارا مهمة في التاريخ المغربي، وتركوا صفحات مضيئة في سجل هذا التاريخ.

و إن أهم ما يتميز به التصوف المغربي هو قربه من الواقع المعيش، واحتضانه لمشاغل وهموم الأمة، عبر [1]).و تكاد عموما في كل ربوع المغرب تجد عالما يشتغل بالفقه أو الحديث وحرفيا منهمكا في اتقان حرفته... إلا وله نصيب من التصوف، ولا تكاد تدخل خدمة قضاياها وانشغالاتها الاجتماعية والاقتصادية والأمنية، وتحقيق المصالحة والسهر على تحقيق الوحدة بين مختلف مكونات المجتمع المغربي، ونشر الإسلام، وترسيخ قيمه في وجدان وروح المغاربة...،وقد عمل السادة الصوفية على مدى تاريخهم على الجمع بين العمل او كما يصطلح عليها الممارسة السلوكية الصوفية وبين الفقه، في إطار وحدة متكاملة لا يمكن الفصل بينها وتجزئتها، وفي هذا الإطار يقول الأستاذ علال الفاسي رحمه الله: "**...التصوف المغربي إلى جانب الفقه المالكي كان له الأثر الفعال في توجيه كل الأفكار والسياسات التي جرت في بلادنا، فالفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره**"(

زاوية من الزوايا المغربية إلا وفيها جناح خاص للتعليم والتدريس وبالتالي لا تكاد تخلو أسرة مغربية من وجود عالم صوفي .

المحور الاول: نبذة التصوف السني العملي بالمغرب:

[1]) انظر:التصوف الإسلامي في المغرب، الأستاذ علال الفاسي، إعداد: عبد الرحمن بن العربي الحريشي مطبعة الرسالة، الرباط، طبعة بدون تاريخ،ص21.

يعد التصوف أحد **"أبرز عناصر التراث الإسلامي التي كان لها تأثير في مجرى الحياة"** ([1])، وفي هذا الإطار يقول الدكتور احمد توفيق :**"أن التصوف هو مقوم أساس من مقومات تاريخ المغرب"**([2])، وهو ليس نحلة أو دينا يعتقده المرء مقابل الانسلاخ من الإسلام، فليس هو بواجب وليس هو بممنوع([3])، بل هو اجتهاد في العبادة والطاعات لله عز وجل اعتقادا بالدين الحنيف، لكن المبالغة في بعض الأحيان إلى حد الابتداع تسيء للتصوف، الذي:**"ما هو إلا مظهر متطور للزهد والعبادة"**([4])، فالصوفية مجتهدون في طاعة الله. وفي المغرب وجوده حقيقة تاريخية، دليلها سمة التصوف في التدين الشعبي المغربي، ولم يقتصر وجوده على مظاهر التدين، بل امتدت آثاره في ميادين كثيرة، كأسماء المدن والأبواب، وأسلوب الحياة بشكل عام. حيث يلاحظ أن الشخصية المغربية روحية بطبيعتها.. فلم يكن التصوف أمرا مفاجئا في سيرورة التاريخ الديني والاجتماعي للمغاربة .ومن ثم فإن التوجه الصوفي الرقائقي المسمى بالتصوف الأخلاقي أو السني ذي المضمون الزهدي، أمر متأصل عند المغاربة منذ فجر الإسلام بأرضهم.

فالتصوف المغربي عندما اختار التصوف السني الداعي إلى الاعتدال في تحلية السلوك، لم يكن ساذجا في اختياره، ولا بسيطا في فكره غير قادر على الخوض في القضايا الفلسفية، بل كان مجاهدا لنفسه.. مهتما بالرقائق اقتداء بأثر السلف الصالح،وقد كان التصوف المغربي عبر العصور والأزمنة التي مر بها يستهدف إصلاح السلوك اليومي للمغاربة في شكله الأخلاقي والرقائقي، تحقيقا لرسالة الإسلام في قوله صلى الله عليه وسلم: **"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"**. فلا عجب، أن يميل المغاربة لأسمى ما في الإسلام، وأفضل ما في الدين، وهو محاسن الأخلاق في السلوك ومقام الإحسان في العبادة. ومن ثم، يعتبر هذا الاختيار منسجما مع مفهوم الوسطية والاعتدال الذي يعني الخيرية والأفضلية وأحسن ما في الأمور كلها.

وعلى الرغم من أن للفكر المغربي حسب الأستاذ عبد الكريم غلاب رحمه الله: **" طابعه العربي الأمازيغي، وطابعه الإسلامي، وطابعه الإفريقي، وطابعه الإنساني، فمع ذلك، لا تعدم أن تجد له طابعه المغربي، وأنت تبحث في مظاهر حياته العلمية"والروحية. ولعل أول ميزة محلية وُسم بها صوفية المغرب، هي الجمع بين "التعمق في العلوم وبين الزهد والصلاح، والتقيد باتباع آثار السلف"**([5]).وبمعنى آخر، لقد **"جمعوا بين الفقه والولاية، توسلوا بالزهد والتربية والذكر، رغبة في الوصول إلى معرفة الله عبادة وتقربا"**([6])، ولعل سبب هذه السمة، يرجع إلى أسباب عدة، نذكر منها ما يلي:

-كون التصوف المغربي قد تميز منذ انطلاقته الأولى باتجاهه الزهدي العملي، وابتعد عن المؤثرات الفلسفية الإشراقية، كما أن نزعته الأخلاقية الغزالية قد أثرت تأثيرا مباشرا على توجه الصوفية المغاربة، وهذه سمة مغربية، حيث اعتز أصحابه بالجانب التربوي العملي، وابتعدوا عن التصوف الفلسفي.

-إن معظم أقطابه، كانوا من العلماء العاملين، الذين زاروا مهد الوحي وفضاء الرسالة، لأداء فريضة الحج.. فوقع احتكاك بعلماء المشرق. ومن ثم، تعميق المعرفة الشرعية. بل إن بعض الباحثين يذهب إلى أن التصوف تسرب إلى المغرب صحبة حجاج الأماكن المقدسة، وطلاب العلم من المغاربة في الديار المشرقية.

---

[1]) انظر:محمد الشريف، التصوف والسلطة بالمغرب الموحدي في دراسة ثنائية الحكم والدين في النسق المغربي الوسيط، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، طوب بريس، الرباط، ط:1، 2004، ص:3.

[2]) انظر:أحمد التوفيق، معلمة المغرب، مطابع سلا، المجلد: 7، 1995، مادة: التصوف بالمغرب. ص: 2392.

[3]) انظر:عباس محمود العقاد، التصوف ، ص: 174.

[4]) انظر:علال الفاسي، التصوف الإسلامي في المغرب، ضمن كتاب :نظرات في التصوف المغربي، تأليف: محمد العدلوني الإدريسي، دار الثقافة، البيضاء، ط1 ، 2001، ص:81.

[5]) انظر:عبد الكريم غلاب، أزمة الفكر المغربي، ضمن كتاب :من اللغة إلى الفكر، لنفس المؤلف، مطبعة دار النجاح الجديدة، البيضاء، ط:1، 1993 ، ص: 177.

[6]) محمد المغراوي، من أعلام التصوف المغربي في القرن السادس الهجري: العالم الصوفي أبو محمد عبد الجليل القصري، الإشارة، ع: 15، السنة: 2، فبراير 2001، ص:7.

-وحدة المنبع الصوفي؛ حيث كانت العلاقات وطيدة بين مختلف الصوفية المغاربة في الحواضر والبوادي، وإن اختلفت الطرق والأسانيد الموصلة إلى أبي الحسن الشاذلي وشيخه عبد السلام بن مشيش العلمي([1]).

وتعتبر مدينة فاس من أهم المدن الشهيرة لا في المغرب فحسب وإنما في العالم الإسلامي ككل بالنظر إلى أصالتها العمرانية ومساهمتها الثقافية، ومشاركتها الفعالة في بناء الصرح الحضاري المغربي منذ تأسيسه إلى يومنا هذا،لهذا كله وَثَّقَت لها الكتابات القديمة بما في ذلك مؤلفات أبي عبيد البكري، وابن حوقل والشريف الإدريسي، وياقوت الحموي، وعبد المنعم الحميري وابن أبي زرع وعلى الجزنائي، يضاف إلى ذلك أنها خصت بمؤلفات مستقلة تنفرد بالتوثيق لتاريخها ورجالاتها و متصوفتها وصلحائها ([2]). وتبعا لذلك نعثر على عدة شهادات تؤكد أهمية المدينة من الناحية الجغرافية والحضارية والعلمية والصوفية.كشهادة عبد الواحد المراكشي بقوله" : **ومدينة فاس هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضع العلم فيها، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة(...)فهي اليوم على غاية الحضارة،وأهلها في غاية الكيس، ونهاية الظرف(...)ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب**"([3]) وبخصوص شهرتها العلمية فقد قيل قديما:" **إن العلم ينبع من صدور أهلها كما ينبع الماء من حيطانها**"، وقيل أيضا" :**ولد العلم بالمدينة، وربي بمكة، وطحن بمصر، وغربل بفاس**"([4]).

المحور الثاني : نموذجين للتصوف السني العملي بفاس:

وكما هو معلوم فمدينة فاس ظلت نموذج أسمى في بروز هذه الظاهرة بالغرب الإسلامي. ودفن بها العدد الكبير من المتصوفة، ونجد من بينهم:

1:سيدي رضوان الجنوي:

أ:مولده:

هو أبو النعيم سيدي رضوان بن عبد الله الجنوي نسبة الى جنوة الايطالية([5])،وقد ولد سيدي رضوان سنة 912هـ بفاس وبها نشا من أب كان مسيحيا ومن أم كانت يهودية .وكانا قد أسلما وتزوجا بعد مغادرتهما لبلادهما و التقائهما بالمغرب وفي كتاب (سلوة الانفاس):"**... قدم منها والده في حدود التسعين وثمانمائة (890هـ) او ما يقرب ذلك**"([6]). وفي هذا الإطار يقول سيدي رضوان عن نفسه:"**خرجت من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين**".وجاء عن احمد البوسعيدي في كتابه (بذل المناصحة) قوله:"**وأبوه عبد**

---

[1]) انظر:-محمد حجي، المؤسسات الدينية بالمغرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المناهل، ع: 18، يوليو 1980. ص:121. -"مصادر التصوف المغربي"، عبد العزيز بنعبد الله، مجلة التاريخ العربي، العدد22.

[2]) ومن نماذج كتب التراجم لعلماء ومتصوفة فاس أذكر على سبيل الذكر لا الحصر ما يلي:- جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي. - سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن اقبر من العلماء و الصلحاء بفاس لمحمد بن جعفر الكتاني. - المستفاد بمناقب الصالحين والعباد، من أهل فاس وما والاها من البلاد لمحمد بن عبد الكبير الفندلاوي الشهير بالكناني.- المستفاد في مناقب العباد وما يليها من البلاد لمحمد بن قاسم التميمي.- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ أهل القرن العاشر لمحمد بن علي بن عسكر الحسني الشفشاوني. - جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لأحمد بن محمد ابن القاضي المكناسي. - درة الحجال في غرة أسماء الرجال لأحمد بن محمد ابن القاضي المكناسي. - ارجوزة في مشاهير صلحاء فاس، لمحمد المدرع الاندلسي. - ابتهاج القلوب بأخبار الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب لمحمد بن العربي الفاسي القصري. - المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا أحمد لعبد السلام القادري. - معتمد الراوي في مناقب سيدي أحمد الشاوي لعبد السلام القادري. - نزهة الفكر في مناقب الشخصين سيدي محمد ووالده سيدي أبي بكر الدلائي، لعبد السلام القادري. - نشر المثاني في أهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد بن الطيب القادري. - ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع لمحمد المهدي بن احمد الفاسي القصري.. - صفوة من انتشر من اخبار صلحاء القرن الحادي عشر لمحمد الصغير بن الحاج محمد اليفرني. - السلسل العذب الأحلى في صلحاء فاس ومكناسة وسلا لمحمد الحضرمي (الذي صنفه في القرن الثامن).- روضة الأنفاس فيمن لقيته بالحضرتين مراكش وفاس لاحمد المقري. - الروض العطر الأنفاس باخبار الصالحين من اهل فاس لمحمد ابن عيشون الشراط. - حياة الانفاس في التعريف ببعض صلحاء اهل فاس لمحمد الطاهري الجوطي وهو مجهول المصير.

[3]) انظر:عبد الواحد بن علي المراكشي :المعجب في تلخيص أخبار المغرب:،ص 257 ، دار الكتب العلمية، بيروت، السنة الأولى. 1998

[4]) انظر:محمد المنتصر الكتاني : فاس عاصمة الأدارسة : ص 40، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 2002،

[5]) جنوة بالإيطاليةGenova ،وهي مدينة وميناء بحري شمال إيطاليا،وهي عاصمة إقليم ليغوريا ومقاطعة جنوا. ،ويعود تاريخ تاسيسها إلى العصور القديمة.

[6]) انظر: سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 290.

الله من جنوة بلدة من بر النصارى، وسبب إسلامه ما سبق له عند الله من الخيرات العاجلة والآجلة باستخراج هذه النسمة المباركة ، وكانت مستودعة في صلبه وكان حاملا لها واصطفاه بها على ما تقدم من مشركي أبائه، كاصطفاء من اسلم من أباء الصحابة أوائل هذه الأمة ،فان الشرف والمزايا بالإسلام مجردا، ثم على حسب مزاياه التقوى والخصوصيات على مراتبها،كان من قدر الله ان بكرَ عبد الله المذكور يوما إلى الكنيسة فوجد فرسا يعرفه ويعرف مالكه فأخرجه منها، ولما جاء النصارى وجدوا روث الفرس فاحتفظ كل واحد منهم بما صار إليه وحملوه غالى منازلهم زعما للتبرك به، وقالوا: عيسى- زار كنيستنا هذه الليلة وهذا روث دابته.وسيدي عبد الله والد سيدي رضوان يرى ذلك، فاجمع على الإيمان وطلب ارض الإسلام واسلم وتزوج بأول مسلمة من أهل الكتاب بل سمعت انها من بني اسرائيل . فاستخرج الله من بينهما هذا النور الذي أضاء الله به عصره ، فأبث في قلبه من الخصوصية ، وأرسى طود ثباته بإتباع السنة المحمدية،فبهذا تعلم أن سر الله في التقوى وان الله تعالى يخص به من يشاء من عباده من معالم الهدى ، وانه لا طائل للمفاخر بالأنساب ولا في تعداد الأجداد بمكارم الاحساب (إن أكرمكم عند الله اتقاكم)والله عليم بالمتقين."انتهى بنصه([1]).

وفي هذا الإطار يقول العلامة المرحوم الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله :**"فقد طبعت مدينة فاس الوادعة روحه الطاهرة بنزعة صوفية جعلته في صف كبار العلماء الروحيين**([2]). وهو إمام علامة ، حافظ محدث ولي صالح وكانت تلازمه الخشية والسكينة والوقار، درس بمدينة فاس الحديث والصحيحين وغيرهما واتسع في العلم رواية ودراية([3]).

ب:شيوخه:

ومن أبرز شيوخه ابي زيد سيدي عبد الرحمان بن علي القصري الفاسي السفياني العاصمي المعروف بسقين وهو مفتي مدينة فاس وخطيبها ([4]). وقد اخذ عنه الموطأ وصحيح البخاري و مسلم ، وتصانيف عياض والعراقي وابن حجر وابن زكريا وبن الصلاح والبيضاوي وجمع الجوامع لابن سبكي، إضافة إلى الطريقة القادرية والشاذلية([5]). وجاء في درة الحجال:" **اخذ عن ابي زيد عبد الرحمان سقين عن زكرياء و القلقشندي وعبد العزيز ابن فهد والسخاوي كلهم عن ابن حجر** "([6])

كما اخذ عن الشيخ العارف بالله أبي محمد عبد الله الغزواني بفاس([7]) الذي وفد عليه وهو صغير السن فوجده يتوضأ ، فرشه بغرفة ماء بزاوية بباب القليعة فزرعت فيه الخير وانبتت فيه خصال البر ، وله أمداح في هذه الرشيشة. ولما رحل الشيخ الغزواني إلى مراكش تبعه سيدي رضوان الجنوي إليها بقصد الانتفاع به ، فكان لا يرى غيره ولا يؤمل الا خيره خالي السر من كل شيء سواه مشغوفا بمبته وهواه وقد قدمه الشيخ للصلاة به ، وبقي في صحبته نحو أربعة أشهر ثم توفي الشيخ فبقي بعده في مراكش نحو السنة. ثم عاد إلى فاس فوجد الشيخ أبا عبد الله سيدي محمد الطالب قد اجتمع عليه الفقراء بزاوية شيخه الغزواني بباب القليعة على مقربة من ضري سيدي ابي غالب فصحبه ولازمه واقام في الصحبة مقام شيخه زمنا طويلا و في ملازمته له كانت شدة مجاهدته وخدمته واشتغل بالعلم على شيخه سقين

---

[1]) احمد البوسعيدي الصنهاجي الهشتوكي عالم بالحديث وتاريخ رجاله ، ولد بسوس سنة 990هـ/1582م، وتوفي في 15 ذي القعدة 1046هـ/10 ابريل 1637م ودفن بالكغادين بفاس، وكتابه يسمى:بذل المناصحة في فضل المصافحة وانظر عن هذا الكتاب مؤرخو الشرفا،ص180. وراجع:محمد القادري، الاكليل والتاج، م.س، ص230-231. – خير الدين الزركلي، الاعلام، ج1، ص181.

[2]) انظر:عبد العزيز بنعبد الله، مصادر التصوف المغربي،مجلة التاريخ العربي، العدد 22.

[3]) انظر:محمد بن الطيب القادري، الاكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، تحقيق مرية دادي، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،2009،ص229

[4]) توفي في فاتح محرم سنة 956هـ. وانظر: فهرسة الشيخ محمد بن احمد ميارة الفاسي، دار ابن حزم، بيروت، 2009، ص35.

[5]) فهرسة القصار وهي مخطوطة بخزانة خاصة.

[6]) انظر: سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 294.

[7])انظر ترجمته في سلوة الانفاس، لمحمد الكتاني،مطبعة النجاح الجديدة ،ج2، ص235-237.

وغيره.وجاء في سلوة الانفاس:"... **ولم يشتهر من اصحاب الشيخ الغزواني الفاسيين غيره...."**([1]).

كما اخذ عن الشيخ الحاج أبي عبد الله محمد بن علي الاندلسي البرجي الشهير بالشطيبي الذي زاره بموضعه بتازغدرة من بني زروال وكان اذا ذكره يعظم امره ويجل قدره وهو في ذلك كله ملازم لقراءة العلم . كما اخذ عن الشيخ أبي عبد الله الخروبي الجزائري الطرابلسي- شارح الصلاة المشيشة وكان يكاتبه بأسئلة في التصوف فيجيبه عنها([2])، عن الشيخ زروق. كما زار الشيخ أبا عبد الله محمد بن الشيخ ابي زكرياء يحيى بن عبد الله بن محمد ابن بكار المدعو الكبير بموضعه المسمى بجبل وبلان([3]).

ت:من تجليات تصوفه السني العملي:

كان شريف الاخلاق لطيف الصفات كامل الادب جليل القدر وافر العقل دائم البشر- مخفوظ الجنح كثير التواضع شديد الحياء ، متيقظا في دينه لا يغفل ولا يفتر مراعيا لأوقاته شديد الورع في تصرفاته واحواله،شديد الاتباع لاحكام الشرع واداب السنة ، محافظا على استعمال الاذكار والدعوات المختلفة باختلاف الاحوال،معمور الاوقات بالذكر والصلاة والتلاوة والمطالعة، وكان يقول:" **أوقاتنا والحمد لله كلها معمورة ولو قيل لي غدا تموت، لم أزد مستزادا**"([4]).

وقال عنه سيدي محمد الكتاني:" **وكان رحمه الله إمام آهل الزهد ، والعلم والعمل على سنن السلف الصالح ، حافظا للحديث رواية له في وقته... ، ... وكان اذا رايته في مجلسه قلت انه شبه نائم مما هو فيه من السكينة والوقار والهيبة ، و مع ذلك لا ترقد منه شعرة،حتى انه لو غير احد من أصحابه حرفا او حركة تفطن له من حينه وتكلم عليه**"([5])

و قال الشيخ القصار: سيدي رضوان الرجل الصالح لو أدركه أبو نعيم - يعني احمد الاصبهاني - لجعله في صدر حليته-يعني كتاب حلية الاولياء-، أو قال مع أويس القرني، وكان شديد الخوف من الله قريب الدمعة، كثير البكاء، حتى كان شيخه الإمام سقين يسميه رضوان البكاي، وربما صدرت منه صيحة لغلبة الوجد عليه فتكاد القلوب أن تنفطر لها. ". وكان حافظا للسانه ساقط الدعوى يقول لأصحابه:" **إنما نتعاون على الدين، ولست لكم بشيخ(....)**"([6])

وكان محبا لاهل الصلاح والفضل مكرما لاهل العلم شديد التحرز من الغيبة لا يذكر غائبا ولا يذكر بحضرته الا بما اقتضاه العلم ، بعيدا من الرخص مقبلا عن الجد مدبرا عن الدنيا واهلها زاهدا فيها منزويا عنها ،غير متوسع فيها ظاهر الهداية مقبول الولاية بريئا من الدعوى لا يترك احدا يقبل يده ويقول:"**ما يمد يده للتقبيل الا احد ثلاثة:ماذون او مجنون او طرمون ولست بواد منهم**"([7]).

ومن ورعه أن السلطان المنصور بعث له يوما زرعا لداره فأفرغه حملته بها، ولم يجدوا الشيخ في الدار، فلما جاء أمرهم بنقله، وقال:" **لا حاجة لي به، فرفعوه ونكس موضعه، حتى كان يتتبع النقب في الحائط بعود في يده يخرج ما فيها من الحبوب**".

وعن دوره في جمع كلمة المسلمين بالمنطقة وحثهم على الجهاد يخبرنا الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني انه كثرت التجمعات في القرويين للاحتجاج على تصرفات الأجانب في الثغور المغربية ، وكان الخطباء من متخرجي القرويين وطلبتها يخطبون لاستنهاض همم المؤمنين وتحريضهم على مقاومة العدو وتحديه ، فتخرج الجماهير للشوارع متظاهرة محتجة([8]). وهناك رسالتان في الجهاد وجههما الشيخ سيدي رضوان الجنوي من فاس إلى السلطان المنصور السعدي :

-الأولى: يثير فيها الشيخ انتباه السلطان المنصور الى انه يجب انتهاز فرصة انهزام البرتغاليين على اثر معركة

---

[1]) انظر: سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص290- 291

[2]) نزيل الجزائر ودفين خارجه سنة 963هـ. وانظر : سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 291.

[3]) انظر: - سلوة الانفاس، م.س، ج2، ص291. - محمد القادري، الاكليل والتاج، م.س،230.

[4]) سلوة الانفاس،م.س،ج2،ص292.

[5]) انظر: سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 291- 292

[6])) انظر: ص46 من كتاب صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، لمحمد الصغير اليفرني، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، البيضاء،ط1، 2004.

[7]) انظر: سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 292.

[8]) انظر: "حظ القرويين في الدفاع عن السيادة المغربية"،دعوة الق، السنة4، العدد4، 1961، ص17

وادي المخازن لاسترجاع الثغور التي لا زالت تحت قبضتهم.

-والثانية: ينقد فيها قبول السلطان المنصور السعدي الفداء بالمال للاسرى البرتغاليين وغيرهم " **على حين ان المسلمين والمسلمات بايدي الكفار في غاية العذاب والاهانة**"([1]).

وجاء في كتاب (بذل المناصحة) ما نصه:"**ومما طالعت من خط سيدي رضوان ما عمت به المصيبة في اختلاط الحبس ، وينفق حق هذا فيما يليق بهذا، وذلك تبديل لفظ المحبس ولفظه كالشارع ، وهي داهية عظيمة عم الحرام بها أهل الصلاح ممن يأخذ من الاحباس يأكل مال الغير ويحسبونه هنيا،وهو عند الله عظيم، وذلك بمنزلة كبير جمع أموال أهل البلدة ثم ينفق عليهم بالسوية ، فان رأيت هذا صالحا فكذلك يصلح جمع أموال الحبس ثم يتفرق بحسب الواقع، فان وقعت به الفتوى فنحن لا نعلم ما قيل له في قبره، حيث قال الله في المتكاثر كلا سوف تعلمون في القبر ثم كلا سوف تعلمون في الحشر، والصواب الاستعفاف عن اخذ الأرزاق من الحبس لأجل هذه الواقعة والله اعلم. انتهى**"([2]).

وكان رحمه الله لا يخاف في الله لومة لائم، شديد الشكيمة على الظلمة غير مكترث بهم، وحكي عنه أنه مر يوما بحاكم فاس وهو يفصل بين الناس فتقدم إليه الشيخ فقال له: "**أيها الحاكم أتعرف ابن الحاجب؟ فقال له: لا. فقال له: أتعرف خليل؟ فقال له: لا، فقال له: أتعرف الرسالة؟ فقال له: لا إنما أنا حاكم. فقال له: وبأي شيء تحكم بين الناس؟ لا والله لا يحل السكوت على هذا، فطلع للسلطان وأخبره بما رأى فعزل الحاكم**". وله رحمه الله كرامات يطول تتبعها... ([3]) .

وقد انتهت اليه الرياسة في تربية السالكين وتهذيب المريدين وكشف مشكلاتهم وتفصيل أحوالهم وظهرت بركته وخيره على كثير ممن صحبه واخذ عنه ([4])

ث:تلامذته ومؤلفاته:

كان منهم السلطان احمد المنصور السعدي الذي أخذ عنه صحيح البخاري وأجازه فيه .كما اخذ عنه أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار القيسي وأبي الحسن علي البطوئي وأبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني وابن أبي نعيم والإمام أبي زيد عبد الرحمان بن محمد الفاسي القصري و احمد بن علي الحبيب الاندلسي وغيرهم.

و له شعر حسن في الامتداح النبوية وغيرها وكان له خط جميل حسن حسب ما روي. وصنف كتابا في (الفقه المالكي) وله نظم و تقييدات كثيرة يجهل مصيرها . وقد أفرد أخباره بالتأليف تلميذه أبو العباس المرابي ([5]) وسماه(**تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان**) ([6]). وهذا حسب الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله لدليل على مدى تأثير البيئة الصوفية الفاضلة في تكييف النفوس([7]). وتوجد نسخة

---

[1]) أورد الرسالتان احمد المرابي في مخطوط تحفة الاخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان – سنتطرق له لاحقا - ، والرسالة الأولى بالصفحة 423-424. والثانية بالصفحة 427-429. وانظر: فاس وباديتها، محمد مزين ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986، ج2، ص594-595

[2]) انظر:محمد القادري، الإكليل والتاج، م.س، ص231.

[3]) انظر:ص46-47 من كتاب صفوة من انتشر ،م.س.

[4]) انظر:سلوة الانفاس،مطبعة النجاح الجديدة،2004، ج2،ص291.

[5]) هو ابو العباس احمد بن موسى بن عبد الله بن محمد المرابي الأندلسي ثم الفاسي توفي سنة 1034هـ/1624م. ودفن خارج باب الفتوح قرب روضة الأنوار، وهو ولي صالح وفقيه صوفي أندلسي الأصل، مغربي من أهل فاس.وكان آية في إيجاد القول والتعبير عن المراد دون تعلم العربية ، وكان يسكن بباب النقبة بفاس ،وله موشحات وأزجال تشير إلى الشوق وبعضها في المديح، وبعضها يتكلم على لسان شيخه سيدي رضوان. وانظر ترجمته عند كل من: - نشر المثاني ، ج1، ص263. – الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من آهل فاس، لابن عيشون الشراط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء،ط1، 1997، ص- 181-180.- عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، ابتهاج القلوب بخبر الشيخ ابي المحاسن وشيخه المجذوب،مخطوط بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم 2302ك، ص333-337. - محمد الافراني، صفوة من انتشر، م.س، ص125. – محمد الكتاني، سلوة الانفاس،م.س، ج2، ص261. – ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفا،ص179. – عبد السلام بن سودة، الدليل، م.س،ص195. –الزركلي، الاعلام،م.س،ج1، ص262. – محمد القادري،الاكليل والتاج،م.س،ص161-162،الترجمة رقم 85.

[6])انظر: صفوة من انتشر، م.س، ص 125. - خير الدين الزركلي، الاعلام، دار العلم للملايين، بيروت،1986،ج1، ص262.

[7]) انظر:عبد العزيز بنعبد الله، مصادر التصوف المغربي،مجلة التاريخ العربي، العدد 22.

من هذا الكتاب بخط مغربي جميل في مجلد مبتور الطرفين بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم 154ك في 468 صفحة. وقد جاء في كتاب دليل مؤرخ المغرب الأقصى للعلامة عبد السلام بن سودة انه شرع في كتابته يوم الجمعة 18 صفر سنة 992هـ/ 1584 ، وهو في مجلدين وقف عليهما صاحب سلوة الانفاس ونقل عنه في مواضع عدة وذكر انه توجد منه نسخة بزاوية سيدي رضوان بخط مؤلفه([1])، كما اورد العلامة بن سودة ايضا انه قد اختصره البعض في نحو ثلاثة كراريس وقف عليهم رحمه الله ضمن مجموع بالخزانة المنونية في مكناس([2]).

ج:وفاته وزاويته: توفي رحمه الله بمنزله في زنقة العنوز عدوة فاس الأندلس عند العشاء او قربها من ليلة الخميس 13 أو 14 من ربيع الأول سنة 991هـ ([3])، وصلي عليه من الغد بعد صلاة الظهر بجامع الأندلس وقد صلى عليه الفقيه سيدي محمد المرابط بن الشيخ سيدي محمد بن جلال التلمساني . ودفن بمطرح الجنة خارج باب الفتوح([4])، وقد وحضر جنازته " **امير الوقت** "([5]) و جم غفير وكثر عليه الازدحام، وفي هذا الاطار يقول العلامة الكتاني:" **فلم يدفن الا بعد صلاة العصر- بعد مشقة عظيمة من الازدحام**"([6])، وقد وصفه ابن القاضي فقال:" **رضوان بن عبد الله الجنوي: الولي الصالح المحدث المكثر الرواية رحلة اهل زمانه وواحد وقته واوانه ، آخر المحدثين الصالحين بمدينة فاس**"([7]).

وقد دفن معه بهذه المقبرة بعض اصحابه، ويثني عنه المرابي في (تحفة الاخوان) فيقول:

هذا الذي كان في الدنيا على حذر هذا الذي نومه قد باع بالسهر

هذا الذي قد طاع مولاه وقام على ساق التهجد في الظلماء والسحر

هذا الذي كان ذا زهد وذا ورع وذا انقباض وذا خوف وذا خذر

هذا الذي فاق اهل العصر قاطبة علما وحالا وحلى القلب بالفكر

هذا التقي ابو الخيرات سيدنا رضوان قدوتنا من فاز بالظفر

الله برحمه الله يكرمـــــــه الله يسكنه مع خيرة البشر

صلى عليه اله العرش ما هطلت سحب وما غنت الاطيار في الشجر([8])

ولم يتخذ في حياته زاوية ليجتمع معه فيها اصحابه بل كانوا يجتمعون معه في غير زاوية ، أما الزاوية التي تنسب إليه بحمام الجياد بالبليدة من عدوة فاس القرويين فقد ذكر سيدي محمد بن الطيب القادري انها لم تنسب له قط في حياته إنما نسبت إليه بعد وفاته ،اذ اشترى اصحابه موضعا اتخذوه زاوية يتلون فيها اوراده

---

[1]) انظر: - سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 295

[2]) انظر الدليل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ص131-132، رقم 756. و 757.

[3]) انظر:-ممتع الاسماع في الجزولي والتباع ،لمحمد المهدي الفاسي،طبع على الحجر بفاس1896،م11،ص7. -الكتاني،سلوة الانفاس،م.س، مطبعة النجاح،ج2،ص294.

[4])انظر ترجمة سيدي رضوان الجنوي عند كل من: - فهرس احمد المنجور، تحقيق محمد حجي، مطبعة دار المغرب، الرباط، 1976، ص80. – جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام بمدينة فاس،لاحمد ابن القاضي المكناسي،دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط،1973،ج1،ص197، رقم الترجمة 157.- ممتع الاسماع في الجزولي والتباع ،لمحمد المهدي الفاسي،مطبعة النجاح الجديدة،البيضاء،1994،ص63- 150 - 173. – نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي، لمحمد الصغير الافراني، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1998، ص211-212-258-259.- نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري،مطبعة النجاح الجديدة، 1977، ج1، ص89.- سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس فيمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس، المطبعة الحجرية الفاسية، 1898/1216، ج2، 257-268. – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد مخلوف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج1، ص415. – دليل مؤرخ المغرب الاقصى، لعبد السلام بن سودة، دار الكتاب، ط1، البيضاء، ج1، ص117، رقم 412. – الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي، لمحمد الحجوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995،ج2، ص318.- فهرس الفهارس والاثبات، لعبد الحي الكتاني، دار الغرب الاسلامي، بيروت،،ط2، 1982،ج1 ، ص434- 436. مرآة المحاسن، لمحمد العربي الفاسي،مطبعة النجا الجديدة، البيضاء، 2003، ص275.

[5]) انظر:الكتاني،سلوة الانفاس،م.س، مطبعة النجاح،ج2،ص294.

[6]) انظر: - سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 295

[7]) انظر:-درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،2002، ج1، ص147.- الكتاني،سلوة الانفاس،م.س، مطبعة النجاح،ج2،ص294.

[8])انظر: - سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 295

وذلك انه بيع خيط كان يشمر به أكمامه للوضوء وسجادة كان يصلي عليها بنحو سبعين مثقالا ، وقصد مشتريهما التبرك به ، فاتى بتلك الدراهم لابنة([1]) تركها ولم يترك عاصبا معها فامتنعت من قبضه قائلة:"**ان السجادة والخيط لا يستحقان هذا السوم**"،فاشترى به المكان الذي هو اليوم زاوية تنسب اليه ([2]).

ويذكر العلامة الكتاني :"**وقد انقرض اصحابه في هذا الزمان، وتهدمت الزاوية المذكورة، وهي خراب الان والبقاء لله وحده**"([3]).

2: سيدي احمد الشاوي:

أ: نسبه : يعود نسبه إلى عرب الشاوية أهل بلاد تامسنا. وهم من عرب بني هلال وبني سليم الحجازيين الذين نقلهم الفاطميون إلى صعيد مصر- ثم توجهوا إلى برقة وتونس. وقدم بهم إلى المغرب الأقصى السلطان يعقوب المنصور الموحدي.

ب:حياته: وكان أحمد الشاوي هو القادم عن هذه الأسرة إلى فاس، وقد بلغ سن الحلم، واتصل في هذه المدينة بالصوفي أحمد بن يحيى الهواري اللمطي ولا يعرف له شيخ غيره ([4]) في حي النواعريين من عدوة فاس القرويين. وكان يلازم باب داره بقصد قضاء حوائج الشيخ الذي زوجه امرأة كانت توجد مستقرة بمنزله. ثم سكن بإذن شيخه دارا أخرى. وبعد وفاة شيخه سكن دارا أخرى مجاورة لروضته التي دفن بها في حي كان يسمى بالجرف من نفس العدوة. و لا تزال هذه الدار الأخيرة موجودة ومشهورة. وكان يفيض عليه الحال في حياة شيخه ويطلب منه أمورا منها: طلبه الزواج من أربع نسوة، وقد تحقق له ذلك من حليمة الشريفة وفاطمة الضحاكية وآمنة الدكمسية وحمدونة.ومنها طلبه الدنيا والآخرة وقال له الشيخ في آخر عهده: "**أعطاكهما الله معا**". وأصبح الشاوي بعد وفاة الشيخ هو وارث حاله وسره وتصدر لتربية المريدين. وأتته الدنيا راغمة من مداخيل مزاولته للزراعة وتربية الماشية، فضلا عن ما أتى به إليه الناس من الهدايا.

ت:من تجليات تصوفه السني العملي: وكان يصرف كل مداخيله في وجوه الخير والإحسان وخدمة المصلحة العامة. وفي هذا الإطار حبس أوقافا كثيرة في فاس. وبنى قنطرة ابن طاطو خارج باب بني مسافر في نفس المدينة لما هدمها السيل. وأصلح ماء جامع الأندلس الجاري من ناحية باب الحديد. وجدد القوس الذي يمر عليه في باب الجديد. وبلغت مصاريفه على الإنجازات الثلاثة 7000 أوقية. وكانت له خمس زوايا:

- فالأولى بمحلة الجرف من فاس القرويين وهي مقر ضريحه الذي يوجد بجانبه مسجد تقام فيه الصلوات وهي مجاورة لدار سكناه ،واصبح الحي المذكور يعرف باسم صاحب الضريح([5])
- الثانية بكربال وهو مدشر يقع على وادي سبو في العدوة المقابلة لبلاد لمطة على يقال له مشرع أحمد الشاوي([6])

---

[1]) لم يخلف رحمه الله ولدا ذكرا الا ابنة لها كان لها عقب بفاس يعرفون باولاد ابن مبارك . وانظر: سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 295.

[2]) انظر: محمد القادري ،الاكليل والتاج، م.س، ص231-232. - سلوة الأنفاس، م.س، ج 2، ص 295. - نشر المثاني، م.س،ج1، ص89.

[3]) سلوة الانفاس،م.س، مطبعة النجاح،ج2،ص295.

[4])جاء في كتاب الكوكب الضاوي في اكمال معتمد الراوي بمناقب سيدي احمد الشاوي لمحمد القادري :"هو الشيخ الكبير الولي الصالح العارف الشهير ذو الكرامات الشهيرة والمواهب الغزيرة والهمة العالية والهيبة الجلالية والانوار الربانية والمواهب الرحمانية ، ملجأ القاصدين وغنيمة للواردين "،ص234، نشر دار الامان ،الرباط، 2009. وفي كتاب الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس لابن عيشون الشراط ورد انه كان لسيدي يحيى اللمطي دارين الاولى بفاس ازاء زاويته التي دفن بها بدرب ابن زمام حومة النواعريين من عدوة فاس القرويين والثانية بلمطة ، وكان يتناوبهما وكان أصحابه يتبعونه للتي يسير إليها فيقرؤون معه الأحزاب ويستعملون السماع في بعض الأحيان. وضريحه مزارة ينتفع بها من قصده وزاره، يشفع القاصد والناهج وتقضى بزيارته المطالب والحوائج، له بركات غزيرة وكرامات كثيرة وقع منها في حياته وظهر الكثير منها بعد مماته. ص232،مطبعة النجاح الجديدة ،البيضاء، 1997. وطريقته هي طريقة احمد بن محمد زروق البرنسي (المتوفى سنة 899/74-1475).

[5])انظر:كتاب معتمد الراوي بمناقب سيدي احمد الشاوي ،لعبد السلام بن الطيب القادري(1698/1110)،نشر دار الامان،الرباط،2009،ص33 و التعليق بالصفحة 136.

[6]) انظر: - الروض العطر الانفاس،م.س،ص237، التعليق رقم 479.- الكوكب الضاوي،م.س،ص7،- نشر المثاني،م.س،ج1،ص123.- الروضة المقصودة في ماثر بني سودة ،لسليمان الوات العلمي،مطبعة النجاح الجديدة،البيضاء،1994،ص570. – معتمد الراوي،م.س،ص33،والتعليق بالصفحة 136.

❖ الثالثة بمدشر بني ظهيرعلى واد سبو على المشرع المؤدي إلى ضريح الصوفي الكبير سيدي أبي الشتاء الموجود و الشهير، ويسمى بمشرع ابن زمام

❖ الرابعة بأبي شابل ([1])

❖ الخامسة بالكطاوي أو الكيطاوي وهو عبارة عن واد يقع تحت عقبة الصفصاف من بني يزناسن من ناحية لمطة([2]).

وكان يطعم فيها الطعام. وكان له بكل واحدة تلامذة وأصحابا كثيرين يقيمون فيها الصلاة مع قراءة الأحزاب وذكر الله عز وجل. و يطعم الطعام في سائر الأيام ويكثره في ذكرى عيد المولد النبوي الشريف.وكان يكثر زيارة أضرحة ثلاثة صلحاء،وهم: سيدي عبد السلام بن مشيش وسيدي أبي يعزى وسيدي أبي سلهام. وكان يزور أضرحة الصلحاء المدفونين في بلاد لمطة.

و في هذه الزوايا كان يقرا حزبه مرتين في اليوم الذي أحال عليه حسبما في تقييد أبي العباس الشامي رحمه الله هو:" { **سبحان الله ثلاثة وثلاثين والحمد لله كذلك والله أكبر كذلك لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مرة مكملة للمائة الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا}** ([3]) مرة.{**الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحق**}([4]) مرة واحدة أو ثلاثا وتكفي واحدة. **جزي الله عنا سيدنا ونبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل ما هو أهله** ثلاثا {**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**}([5]) ثلاثا. **أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاثا. بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاثا. سبحان ربي العظيم وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم** ثلاثا. **أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو بديع السماوات والأرض وما بينهما من جميع جرمي وظلمي وما جنيته على نفسي وأتوب إليه** ثلاثا، **لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرا. ثبتنا يارب بقولها وارحمنا يامولاي بفضلها. واجعلنا من أخيار أهلها. واحشرنا في زمرة محمد صلى الله عليه وسلم** ثلاثا. **أمولانا يا مجيب، من يرجوك ما يخيب. اقض حاجتنا عن قريب يا حاضر لايغيب** ثلاثا. **اغفر لنا ما مضى واصلح لنا ما بقي بحرمة الأبرار، يا عالم الأسرار** ثلاثا آمين، آمين، آمين رب العالمين ببركة الصالحين والأنبياء والمرسلين ارحمنا يامولانا وارزقنا حسن اليقين {**الله إلاه إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم**} إلى {**العظيم**}([6]) عشرا. { **قل هو الله أحد**}([7]) إلى آخرها عشرا. اللهم صل على نبينا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم مائة، ورضي الله عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمان بن عوف و أبي عبيدة وحمزة والعباس وفاطمة وعائشة والحسن والحسين وعن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين وعن الخلفاء الراشدين وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين عشرا ". ثم يدعو بعد ذلك وينصرف. وقال رضي الله عنه: من أراد الفلاح فليقرأ حزب الفلاح، وهو هذا يعني حزبه المذكور بتمامه. ومن دعائه رضي الله عنه: "**اللهم ارزقنا القناعة والصلاة في الجماعة والخروج من الدنيا بلا تباعة** "([8]).

ث كراماته ومناقبه: وذكرت له مصادر ترجمته كرامات تحققت خلال حياته وبعد مماته.و أقر بها مجموعة من كبار المتصوفة كأبي الشتاء ومحمد الشرقي ومحمد الكومي ومحمد ابن عبد الله معن الأندلسي،وعبد الرحمان بن محمد الفاسي الفهري. ومن تجليات فضله ما نقل عن الشيخ الصوفي محمد

---

[1])انظر: معتمد الراوي،م.س،ص34، التعليق بالصفحة 137-138.

[2])انظر:- الروض،م.س،ص237، التعليق رقم 480.-الروضة المقصودة،م.77،ص570.- الكوكب الضاوي،م.س ،ص7. - نشر المثاني،م.س،ج1،ص237.è معتمد الراوي،م.س،ص33،التعليق بالصفحة 137.

[3]) سورة الاسراء الاية 111

[4]) الآية: 43 من سورة الأعراف

[5]) الآية 8 من سورة آل عمران.

[6]) الآية:255 من سورة البقرة.

[7]) الآية: 1 من سورة الإخلاص.

[8]) انظر: كتاب معتمد الراوي م.س،ص53-57.

العياشي بأن شخصا سأله عن أحمد الخضر- عليه الصلاة والسلام فقال له: (**إن شئت فعليك بسيدي أحمد الشاوي فإنه يزوره في كل يوم ثلاث مرات**). وصفوة القول حول مكانته ما يصفه به القادري في كتابه معتمد الراوي بمناقب سيدي احمد الشاوي قائلا: "**الولي الإمام القدوة الكبير المجذوب العارف المحبوب المتمكن في الحال العظيم البركة والنوال المربي النفاع الكثير الكرامات و الأتباع**"([1]).

ومما يصفه به العلامة محمد بن جعفر الكتاني ما نصه: "**الشيخ الإمام القدوة الهمام الولي الكبير المعمر الخطير الفائض الأنوار العزيز الأسرار العارف المجذوب الفياض المحبوب المتمكن في الحال، العظيم البركة والنوال المربي النفاع الكثير التلامذة والأتباع ذي الكرامات الكثيرة والبركات الغزيرة والآيات العديدة والمناقب الحميدة، أحد مشايخ زمانه ومشايخ أوانه المبرز لتربية المريدين وهداية المقتدين الشهير الذكريات الباهرة وفضله التام، المطبق على خصوصيته في وقته وبعد وقته الخاص والعام...**"([2])

ويقول في حقه الصوفي الشهير أحمد ابن عبد الله معن الأندلسي- "**إنه ولي الله حقا**"([3]) ويقول في حقه عبد الكبير الكتاني:"**وقد تنور ظاهر هو باطنه،وأشرقت عليه شموس العرفان**"([4]).

ج: وفاته:وجاء أجله بدون عقب مع قرب طلوع فجر يوم الأربعاء 26 محرم الحرام عام 1014هـ/ الموافق 15 يونيو 1605م. وحضر- جنازته الأمراء والعلماء والفقراء علاوة على عامة الناس. وأقيمت صلاة الجنازة عليه في جامع القرويين في اليوم الموالي. ودفن بزاويته المجاورة لمقر سكناه السالفة الذكر.ووقعت توسعة لها على يد كل من السلطانين المولى الرشيد والمولى إسماعيل ابني المولى الشريف العلوي. وجددها السلطان محمد بن عبد الرحمان العلوي.وأسس بجانبه مسجدا الذي أقيمت به أول صلاة جمعة يوم 29 رمضان سنة 1282هـ الموافق 16 فبراير 1866 م.وتؤدى في هذا المسجد إلى اليوم الصلوات الخمس المفروضة وضمنها صلاة الجمعة.وقيل إن أعمال في هذا المسجد كشفت عن وجود مقابر في طبقات أربع وبأسفلها وجدت مقابر هياكل بشرية مفرطة في الطول والغلظ...([5]).

وتوجد بفاس أملاك موقوفة على هذه الزاوية([6]).وفيما يتعلق بمداخيل هذه الزاوية أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي سنة 1765/1179 بصرفها لصالح الشرفاء القادريين الحسنيين ([7]).

ج: تلامذته: حسب ما أورد العلامة محمد القادري هم:

- ✓ الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد الشامي الذي في ترجمة شيخه أحمد الشاوي تقييدا في5 ورقات ويوجد في خزانة خاصة . ومقياسه 14×25، ومسطرته 33، وهو بخط مغربي كامل غير مبتور . ونص بدايته:"**الحمد لله ومن الكناش الى ذكر (...) من**

---

[1]) نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط،1977/1397، ج1، ص132.

[2]) سلوة الأنفاس ، ج1، ص274-279.

[3]) سلوة،ج1، ص276.

[4]) روض الانفاس العالية في بعض الزوايا الفاسية،مخطوط بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم ك 12/1264، ص280.

[5]) انظر ترجمته بتفصيل عند كل من: -إبراهيم حركات،المغرب عبر التاريخ،مطبعة النجاح الجديدة،البيضاء، الطبعة الأولى: 1985/1405، ج.3، ص.532 - سليمان الحوات العلمي، الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة، يوجد مخطوطا بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم ك 2351، ص: 32-33. - عبد الكبير الكتاني، روض، م.س، ص.277-280- محمد ابن عيشون، الروض العطر الأنفاس في أخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق: زهراء النظام، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1977/1417، ص: 132-135- عبد الله الفاسي، الإعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر، دار ابن حزم، بيروت ط:1، 2008/1429، ص:66-68. محمد الصغير اليفرني، صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، المطبعة الحجرية الفاسية بدون تاريخ، ص: 36-37. - محمد القادري، نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني، مطبوعات دار المغرب للتاليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977/1397، جI، ص: 132-134

[6]) انظر:عبد الكبير الكتاني،زهر الآس في بيوتات فاس، مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى 1422 /2002 ،ج1، ص.125-126.

[7]) .انظر: *خالد صقلي، "رسالة جديدة من السلطان محمد الثالث العلوي إلى السلطان عبد المجيد خادم الحرمين الشريفين"، مجلة كلية الاداب والعلوم الإنسانية،ظهر المهراز،فاس، العددالعام: 14 - 2006، ص211. *محمد القادري،نشر م.س،ج4، ص.167-168

فضائل الولي الصالح سيدي احمد بن محمد الشاوي دفين الجرف نفعنا الله ببركاته ما اخبر بت بعض تلامذته وهو السيد الفاضل (...)الابر ابو العباس احمد بن محمد بن علي الشامي رحمه الله(...)"، ونص نهايته:"**وقال وكان من دعائه رضي الله عنه ونفعنا بت اللهم ارزقنا القناعة والصلاة في الجماعة والخروج من الدنيا بلا تباعة. انتهى كما وجد"**

✓ الشيخ ابو عمران موسى بن سعيد الدراوي الذي دفن بروضة شيخه ، ويذكر العلامة عبد السلام القادري:"**...عمل اول امره على غرس القثاء ونحوها بالربع مع غيره على عادة عمل اهل البحائر...، وكان له زاوية في حياة شيخه عن اذنه بمدشر تاغزوت من الموضع المعروف بدار العطار بينه وبين قرية صفرو نحو مسافتين وهذا السبب والله اعلم في وصفهم له بالعطار...، وقال له الشيخ مرة : سر باصحابك عني يا موسى مراءى ابن مراءى ولا مصحوف ابن مصحوف"**([1])

✓ الشيخ ابو عبد الله محمد بن زمام الرياحي الذي دفن بروضة شيخه ايضا ، ويذكر العلامة عبد السلام القادري:"**...دخل فاس صغيرا بقصد القراءة فلقيه الشيخ سيدي احمد الشاوي بالعطارين الكبرى وشيخه سيدي احمد بن يحيى حي فاخذه باذنه ورفعه في الهوى وجعل يطيشه ثم انزله وضربه بكفيه بين كتفيه وقال:انا وراءك وانا قدامك، فعلق قلبه اذ ذاك به. فكان يقرا في الكتاب مع الصبيان والشيخ يتعاهده ثم انجمع عليه وخدمه الى ان توفي سيدي احمد بن يحيى وظهر سيدي أحمد الشاوي. وبقي يخدمه. ثم بنى له شيخه سيدي أحمد الشاوي زاوية على نهر سبو ببني ظهير واشترى له أرضا للحرث نحو اثنتى عشر زوجا. فاجتمع عليه قوم للأحزاب والأوراد وصلاة الجماعة إلى وفاة شيخه، وبعدها إلى أن ثارت الفتن. فتعذر مقامه، إلى أن دخل فاس. فبقي بها إلى أن توفي....، وكانت وفاته أواخر سنة أربع وعشرين وألف**([2]).

[1])انظر كتاب الكوكب الضاوي في اكمال معتمد الراوي ،م.س،ص228- 230.

[2]) انظر كتاب الكوكب الضاوي في اكمال معتمد الراوي ،م.س،ص230-232.

✓ الشيخ ابو محمد عبد الله بن ناصر دفين رحيبة القنديل من طالعة فاس([3])

✓ الشيخ ابو محمد عبد الله الزروالي و كان هو والشيخ عبد الله ابن ناصر المذكور قبله بروضة شيخهما سيدي أحمد الشاوي([4])

✓ الشيخ ابو الحسن علي بن زيان العيساوي دفين خارج صفرو([5])

✓ الشيخ ابو عبد الله محمد بن اللمطي دفين خارج باب الجيسة من فاس([6])

✓ الشيخ سيدي الحاج الشكيوني دفين المصلى من صفرو، والشيخ ابي عبد الله محمد بن مسعود الزروالي الشهير باسكندر والشيخ ابو عبد الله محمد امغار،والشيخ الغرامر والشيخ ابو السرور عياد ([7])

ووضع في ترجمته العلامة محمد العربي بن الطيب القادري الحسني المتوفى سنة 1164هـ /1694م تقاييد يجهل كذلك مصيرها اليوم.وتشاء إرادة الرحمان أن تتحقق رغبة راودتني منذ عدة سنوات، وهو تحقيق كتابين خاصين بترجمة الصوفي الكبير أحمد الشاوي ([8]) الذي يوجد ضريحه قريبا من مقر ولادتي ونشأتي. وفي هذا الإطار فقد حققت كتاب "الكوكب الضاوي في إكمال معتمد الراوي بمناقب سيدي أحمد الشاوي" لمحمد بن الطيب القادري([9]).

وحققت بعده مباشرة كتاب معتمد الراوي بمناقب سيدي احمد الشاوي ([10]) المشار إليه، وهو من تأليف

[3]) انظر كتاب الكوكب الضاوي في اكمال معتمد الراوي ،م.س،ص232.

[4]) انظر كتاب الكوكب الضاوي في اكمال معتمد الراوي ،م.س،ص232- 233.

[5]) انظر كتاب الكوكب الضاوي في اكمال معتمد الراوي ،م.س،ص233.

[6]) انظر كتاب الكوكب الضاوي في اكمال معتمد الراوي ،م.س،ص233.

[7])ابو السرور عياد هو احد ابناء الشيخ عبد الرحمان بن عياد المجذوب المتوفى سنة 976/68-1569. انظر كتاب الكوكب الضاوي في اكمال معتمد الراوي ،م.س،ص233.

[8]) كنت قد أشرفت على بحث للإجازة في شعبة الدراسات الإسلامية سنة 90-1991م حول موضوع: علم التصوف عند المسلمين، نموذج الشاوي المذكور.

[9])نشر دار الامان ،الرباط،2009

[10]) وبالنسبة للكتاب الذي بين أيدينا، فهو يوجد مخطوطا بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم: د 777. وتقع هذه النسخة

العلامة الفذ والمؤرخ النزيه والمدرس النافع والصوفي الصالح عبد السلام القادري الجد الأول لمحمد القادري المذكور. وأشير إلى أنني على شاكلة الكتاب الأول حاولت البحث على نسخ مخطوطة من هذا الكتاب الثاني في مكتبات خاصة وفهارس مكتبات عامة وطنية بعدة مدن مغربية كتطوان وطنجة وفاس ومكناس وسلا والرباط ومراكش وتمكروت. ولكن لم أتمكن من إيجاد سوى نسخة واحدة كما هو الشأن بالنسبة للكتاب الأول([1]). ونظرا لكون الإنسان المسلم عموما والمؤمن خصوصا يعلم أن أجله آت وينتظر وقوعه في كل آن، وهو الأمر الذي يجعله حسب ظروفه يضاعف من القيام بما ينفعه يوم لا ينفع مال و لا بنون ولا ينقطع بها عمله بما عمله عند وفاته كترك علم ينتفع به.وفي هذا الإطار يقع إنجازي للتحقيقين.

خاتمة:

وصفوة القول إن التصوف السني المغربي المتميز يعد من بين مكونات الحضارة المغربية ،وقد لعب المتصوفة السنة رحمهم الله عبر تاريخ المغرب الإسلامي _كما هو الشأن بالنسبة للعصر السعدي وبيت قصيد هذه المشاركة سيدي رضوان الجنوي وسيدي احمد الشاوي _عدة ادوار متميزة سواء على صعيد الواقع أو الفكر،وفي نظري إن الدراسات العلمية لهذه الأدوار تساهم في فهم قضايا من الثقافة والمجتمع،وان جمع وتحقيق تراث التصوف المغربي المتبقي والمنتشر في كل المناطق ، ووضع معاجم متنوعة لهذا التراث وللمتصوفة المغاربة مع الاستفادة من العلوم الإنسانية المساعدة والتقدم التكنولوجي المتواصل في دراسته يساهم في الحفاظ على الهوية وتحقيق التنمية،كما تدعو الحاجة العلمية إلى ترجمة أعمال المستشرقين في هذا المجال خدمة للباحثين. و رغم ما أنجزت من أعمال فلا يزال ميدان البحث واسعا، ويتحمل الباحثين المغاربة المتخصصين على عاتقهم هذه المسؤولية العلمية.

في 78 صفحة. ومسطرتها 18، مقياسها 15×20، وهي مجهولة الناسخ وتاريخ النسخ. ويوجد في بداية هذه النسخة بتر.و جاء أجله مؤلف هذا الكتاب بدون تتمة تأليفه، وانظر: انظر: المنوني، المصادر، م.س،، ج1، ص: 169، رقم: 422

وتعاني هذه النسخة من الكتابة بخط مغربي جد رديء مما جعلني أستخرج نصوصه بصعوبة، وبسبب ذلك وبسبب وجود خروم تعسر معرفة عدة كلمات وردت في هذه النصوص. وعلاوة على ذلك يوجد ضمن هذه النصوص خلال بعض الأحيان بياض، وأخيرا يلاحظ بخصوص مواضيع الكتاب أن المؤلف أورد عشرة مواضيع متعلقة بأحمد الشاوي بدون ترقيم أو أدماجها في باب معين أو أكثر ثم بعد ذلك أورد مواضيع أخرى متعلقة كذلك بالشاوي المذكور وحكم الزيارة وآداب الزائر وصفاته. ولكن أدمجهما في بابين ورقمهما بالبابين الثالث والرابع. وأعتقد أنه بقيامه بهذا العمل كان في المرحلة الأولى من الإنجاز والتحق بالرفيق الأعلى بدون إعادة ترتيب محاوره. فلقد اطلعت على جل مؤلفاته وحققت أربعة منها، فضلا عن تحقيقي لكتاب خاص بترجمته المتوفرة وبرز لي سمو المكانة العلمية لهذا العلامة الذي جمع بين الصلاح والثقافة الموسوعية على شاكلة أسلافه الشرفاء.

[1]) لم اعرف اليوم مصير النسخة التي كانت متوفرة بمكتبة أسرة ابن سودة بفاس المعروفة بإسم الخزانة الأحمدية، وهذه النسخة أشار إليها عبد السلام ابن سودة، وأشار إلى كون الورقة الأولى منها كانت توجد مبتورة، وانظر: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، طبع دار الكتاب، البيضاء، طبعة بدون تاريخ، جI، ص: 225، رقم:890.

رحلة كوسطانطين افيازيمسكي إلى المغرب

ذ.حمو منصوري
باحث في التاريخ

تقديم:

كانت للروسيين علاقات بشمال افريقيا منذ عهد بعيد،ترجع اولاها الى القرن 12م على الاقل،متمثلة في الرحالة والتجار والبحارة والمغامرين،الذين جلبوا من المدن الكبرى لبلدان شمال افريقيا؛كالقاهرة وطرابلس وتونس والجزائر وطنجة،تذكارات عن اسفارهم.(1)في سنة 1670م زار روسي مجهول،كان قد اسره الاتراك،كل بلدان شمال افريقيا.كما قام ضابط البحرية كوكوتسوف،برحلة الى تونس والجزائر عند نهاية القرن 18م،سنتي 1776و1777م،ووصف هذه الرحلة في كتابين يعتبران في الوقت الحاضر تحفة نادرة.(2)وقد تقدم هذا الرحالة لدى الباي التونسي،في صفة نبيل روسي يود استكشاف اثار قرطاجة،وقام بوصف دقيق للحياة في تونس.يعتبر السيد يان بوطوسكي J.Potocki،الرحالة الثري والاديب المتنور والعالم الموسوعي،العضو الشرفي في اكاديمية العلوم بسان بيترسبورك،ضمن الرحالة الروس الذين قاموا "بزيارة الى المغرب سنة 1791م،وخصص لرحلته هذه كتابا قيما يعتبر مرجعا ثمينا للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مغرب ذلك العصر".(3) ومع بداية القرن 19م،اهتمت الديبلوماسية الروسية اكثر فاكثر بافريقيا الشمالية.ففي سنة 1848م،ارسل الطبيب والانثروبولوجي أرتمي الكسندروفيتش الى شمال افريقيا.وقد وصف وحشية وقسوة الغزاة الفرنسيين تجاه الاهالي.وسترسل سان بيترسبورغ،فيما بعد،اكاديميين ومستشرقين روس لاستكشاف بلدان الشمال الافريقي،نذكر من بينهم على سبيل المثال،الكولونيل بيرينس استاذ اكاديمية روسيا،سنة 1857م؛والرحالة الروسي ب.ن.تشيخاتشيف سنة 1877م.(4)

في سنة 1881م قام الرحالة الروسي المعروف – عضو الجمعية الجغرافية الروسية – كوسكانطين الكسندروفيتش افيازيمسكي(1853-1909م) بجولة في المغرب،وكان الروسي الاول الذي لم تقتصر زيارته على مدينة طنجة،بل بلغ المناطق الداخلية للبلاد.

I -اهمية الرحلة:

وردت رحلة افيازيمسكي في مخطوطة من سبعة اجزاء،تحت عنوان"رحلة عبر المغرب"،لاتزال حبيسة رفوف المكتبات ودور الارشيف الرسمية الروسية.وقد حمل الجزء الخامس عنوان:« رحلة الى مدينة مراكش»؛وهو الجزء الذي سنتناوله في مقالتنا هذه.تنطوي مذكرات هذا الرحالة الروسي على انطباعات ومشاهدات فريدة من نوعها.وتعتبر المعطيات الكثيرة لهذا الرحالة عن المغرب ذات قيمة علمية حتى الان."ففي الحقيقة،ان انجازه لرحلة محفوفة بالمخاطر الى المغرب البعيد والمحدود الشهرة،تبدو خدمة حسنة للسكان المغاربة،ومساهمة مهمة لتنمية العلاقات بين البلدين"،تقول الباحثة الروسية موصاطوفا.ومما يزيد من اهمية المعلومات الواردة في ثنايا المخطوطة انه لم تكن لروسيا مطامع في المغرب،"وانها اقامت ممثلا هناك بناءا على طلب فرنسا،ليكون مجرد سند لزميله الفرنسي في طنجة".(5)

II- من طنجة الى مراكش على صهوة حصان:

انطلقت جولة الكونت ك.أ.افيازيمسكي،عبر المغرب،من طنجة نحو مراكش،مرورا بالعرائش والرباط والجديدة،ثم بعد ذلك توجه الى مكناس وفاس ووجدة وصولا الى تلمسان.وقد كتب يقول:«ان اردت الوصول الى داخل البلاد،حيث يمكن مشاهدة اشياء طريفة واصيلة،فليس هناك وسائل تنقل اخرى،مادام في غالب الاحيان،لا توجد سبل اخرى غير الممرات الجبلية».(6)

انطلقت الرحلة في اليوم التاسع من دجنبر 1881،وقد استفادت من مساعدة السلطات المحلية ومن التموين.سارت في الطريق الساحلي الى حدود مدينة ازمور،ثم عرجت الى داخل البلاد حتى مراكش.دامت الرحلة 19 يوما،وقد اورد افيازيمسكي قائمة بالاماكن الماهولة التي مر منها،مع ذكر المسافات التي تفصلها عن طنجة بالفرسخ(الفرسخ الواحدParasangeيعادل1060مترا).و«لقد اخبر السلطان بوصولي من قبل السيد بركاش،وزيره في الخارجية،المقيم بالرباط.ولذلك ارسل لاستقبالي اثنين من حرسه...في اليوم السابق لدخولنا مدينة مراكش في 27 دجنبر حوالي الرابعة مساءا».(7)

III- المونا

يذكر افيازيمسكي ان السلطان سيلتقيه في اليوم الثاني،كما اخبره بذلك الحارسان اللذان ارسلهما السلطان،عبر الترجمان.ثم يستطرد في جرد مكونات المونة التي تلقاها على طول رحلته الى مراكش:«الجريش،الخبز،اللحم احيانا،محتلف الخضراوات،الشاي،الشعير،الحشائش المجففة...وكل هذا مجانا...هذه الهدايا تسمى(المونة)،والجزء الاكبر منها يجمعه القواد المحليون من السكان».(8)

بعد وصف افيازيمسكي للقصر الذي انزل فيه ولحديقته،ذكر قائمة للمونة التي ارسلها السلطان:«يا الهي!كل شئ كان موجودا:الخراف الحية،الدجاج،البط،الحمام،صناديق شاي ضخمة،الشموع،الطحين،الشعير،اكباد لذيذة متنوعة،السكر،الزيت،الارز،الثمر الجاف،نوع من السمك،المسامير لامر ما،الحبال،الوسائد،الحشايا،والكل بكميات كبيرة».(9) وهذه الطريقة المتبعة في تموين الفرق العسكرية والرحلات والمحلات،لاتخلو من مشاكل كما يشير الى ذلك افيازيمسكي.فقد"يتم بيعها في المدن،لذلك تقع اصطدامات دائمة بينهم وبين السكان...مادام مقدار المونة شئ غير محدد».(10)

IV- حضرة السلطان

في معرض حديثه عن السلطان،ذكر افيازيمسكي ان المقابلة استغرقت 10 دقائق،في مقصورة صغيرة،في حديقة كبيرة،حيث«كان جالسا على منصة منصوبة من الوسائد،وقد ارتدى رداءا ابيضا غطاه من راسه

حتى قدميه،ولا يظهر منه سوى اليدين ووجه برونزي اللون.كان السلطان يناهز من العمر 45 عاما،جميل وقوي و[...]ذو وجه حيوي.بدا وكانه يقوم بطقس جليل،ولم يتحرك لدى قدومنا وبالكاد ادار راسه جهتنا».(11)

بعد تبادل وتقديم الهدية،والاستفسار عن صحة الامبراطور الروسي،يخبرنا افيازيمسكي ان السلطان اندهش لانه لم يفهم المسالة المغربية«وتطاول ايضا لمعرفة هل عند الروسيين مدافع،ومن اين يحصلون عليها».(12)

في اليوم قبل الاخير لرحيل افيازيمسكي،تلقى دعوة من السلطان لمشاهدة حديقته،وقد كتب وصفا لهذه الحديقة جاء فيه:«...احتجنا ساعتين للتجول فيها،من بدايتها حتى نهايتها،ممتطين جيادنا.لها شكل مستطيل طويل،والازهار فيها قليلة جدا وجد عادية.الممرات في كل مكان مستقيمة ومرملة،واغلب اشجارها برتقال.توجد في وسط الحديقة بركة كبيرة لها شكل مربع،وبالقرب منها مرج صغير مغطى بقصب السكر».(13)

V- في وصف مراكش

عندما اشرف افيازيمسكي على الوصول الى مراكش،ابدى اعجابه قائلا:«وعلى مسافة 15 فرسخا،بدا منظر طبيعي رائع لمدينة مراكش وضواحيها...تظهر المدينة من اعلى المرتفعات التي كنا عليها غارقة كلها في النخيل،وعلى السهل يتلوى نهر تانسيفت الواسع نوعا ما في هذا الموضع...لكن ما زاد هذا المنظر روعة خاصة،هو جبال الاطلس المغطاة كلها بالثلج،والتي تحجب الافق كجدار فضي ابيض،يبدو قريبا رغم وجوده على بعد 60 فرسخا من المدينة».(14)

كان من ضمن من استقبل افيازيمسكي عند دخوله المدينة، اركمان المنحدر من الالزاس والانجليزي ماكلين؛وهما الاوربيان الوحيدان المتواجدان بمراكش.اثناء حديثه مع الفرنسي،سأله افيازيمسكي عن سبب الاستقبال المهيب الذي حضي به،رغم انه ليس ديبلوماسيا،فاجابه بان السلطان"يسره ان يرى روسيا في بلاده...وهو يكرم الروسيين بمناسبة انتصارهم على سلطان تركيا،الذي يعتبره(العرب)الغربيون مغتصبا للسلطة ولحق الاسلام السامي...اذ يعتبر السلطان المغربي نفسه الوريث الشرعي لمحمد،ولذلك وجب تصدره للمسلمين".(15)

ويعطي افيازيمسكي وصفا للسوق،من ضمن ما جاء فيه:«كنت قد تطرقت بالتفصيل لبضائع ومنتوجات هذه المدينة،في كراسة عن تجارة السلطنة المغربية.وعلى كل حال،اضيف ان للحوانيت في السوق طابع اصيل جدا،وهي متشابهة كانها تجويفات في كنائس كاثوليكية وضعت فيها تماثيل القديسين.يجلس فيها الباعة وسط بضاعتهم وهم مقرفصون على علو ارشين ونصف(قياس روسي قديم يساوي 71سنتم)من الارض.ويقترب منهم المشترون من الخارج.وتكون عادة عملية البيع والابتياع مصحوبة بصياح صاخب من كلا الطرفين.والسوق في مراكش واسع جدا،ويتالف غالبا من بضائع اوربية ذات جودة رديئة».(16)وقد فطن هذا الرحالة الروسي الى غياب البضائع السودانية،كالعاج والريش مثلا،ما دعاه الى سؤال مرافقيه عن السبب فاجاباه بان«الاستيراد من السودان قد توقف بسبب الطريق،وان البضاعة الوحيدة التي عوضت ذلك هي العبيد والجواري،ما داموا يوصلونهم مشيا،لكنهم لايباعون في السوق خشية الاوربيين كون السلطان التزم في المعاهدة الاخيرة بابطال تجارة العبيد».(17)

VI- في ضيافة الصدر الاعظم

تلقى افيازيمسكي دعوة من الصدر الاعظم،الذي استقبله رفقة وزير الحرب.«كان هذان(عربيان)مسنان،يبدوان في رداءيهما الابيضان،اللذين يلفهما من الراس حتى القدمين،في

منظر جليل جدا.كان الصدر الاعظم طويل القامة وبدين نوعا ما،اما وزير الحرب فبدا داهية وماكرا».(18) ثم بدا في وصف الحديقة والمقصورة التي استضيف فيها،على مقاعد اوربية مريحة.«دار الحديث عن الرحلة التي قمت بها،ثم في الختام عن روسيا...واستغرب[الوزير]لما قلت له ان روسيا تستطيع عند الضرورة،رفع جنودها الى المليون».(19)بعد هذا الحديث،انتقلوا الى المقصورة الاخرلتناول الطعام،حيث جهزت مائدة باطعمة متنوعة.«كانت هذه المائدة مغطاة بسماط حريري وردي،والى جانب كل طقم وضعت فوط حريرية زرقاء».(20)ثم يتابع في وصف الطعام المحضر على المائدة،حيث«هناك لحم الضان،ديك رومي،حمام مشوي،عصيدة متنوعة،المعجنات ودوارقcarafesزجاجية من شرابي الليمون والبرتقال...قبل تناول الطعام قدموا لنا الكبد مع شاي ثقيل جدا ومعطر في فناجين صغيرة».(21)ولم تفته الاشارة الى خدمهم اثناء الغداء:«فتيات انيقات للغاية،يضعن عمائم وتنورات قصيرات.كن حافيات وبايديهن وارجلهن خيوط من اللؤلؤ والفيروز الصغير المخضر،وكان لبعضهن في اصابع الارجل خواتم ذهبية(...)وفي رسغ الرجل اليسرى لاحداهن سوار فضة كبير على شاكلة قيد».(22)

VII- على مائدة الحاخام

بالاضافة الى وبارة الصدر الاعظم،يخبرنا افيازيمسكي ان الحاخام الاوربي جاء ليدعوه بنفسه،مطلعا اياه ان كل الجالية اليهودية تود ملاقاته.«استقبلني عند البوابة حشد من اليهود،كانت النساء مرتديات ثيابا فاخرة سبق ان وصفت مثلها في تطوان وطنجة».(23)وبعد ان يصف الحاخام الطاعن في السن،يبدأ في وصف مائدة الطعام المنتصبة على الطريقة الاوربيةنوسط الهوامش غرفة كبيرة،«بمختلف الماكولات الحلوة،ومع ذلك كان الكسكس،الاكلة المغربية المشهورة،حاضرا.وكان يتالف من الشعير والارز ومختلف التوابل،مع قطع صغيرة من اللحم المفروم».(24)بعد احتساء الشاي،جاءوه بخمرة وصفها بانها شبيهة في طعمها ولونها بالجعة.ولكون افيازيمسكي،على ما يبدو،لم يسبق له ان رأى او تذوق هذا النوع من الخمور(ماء الحياة)،فقد اعطاها وصفا دقيقا.«هذا الليكيور(25)منقع بالبخور،وهو ليس قويا جدا؛اذ يستعملونه كمخدر...لونه صاف تماما مثل الفودكا المكررة».(26)ويشير الرحالة الروسي الى ان كل هؤلاء اليهود تقريبا يتكلمون الاسبانية،وان الحاخام عرض عليه وثيقة السلطان التي«تسمح له ولكل طائفته بالمشي في المدينة منتعلين»!(27)

المغادرة

احتاج افيازيمسكي ،عند مغادرته مراكش،شواهد الاذن بالمرور الى فاس والجزائر عبر وجدة.وقد جردت لمرافقته فرقة كاملة من العساكر تحت قيادة الضابط الدكالي.وقد انضمت اليهم في فاس فرقة اخرى«لان الطريق هناك يوحي بمخاوف كثيرة من مختلف القبائل المتمردة على السلطان،والقاطنة في القسم الشمالي الشرقي من السلطنة».(28)وبالاضافة الى الوثائق الرسمية،تسلم افيازيمسكي هذايا من السلطان اعطى جردا لها كما يلي:«بالنسبة لي،جياد (عربية)جيدة،وسرج قطيفي احمر رائع مطرز بالذهب،بقيمة 200 روبل...ولزوجتي،بغل جيد وسوارين ذهبيين ضخمين،والكل بقيمة 300 روبل».(29)وقد ذكرته،اثناء رحلته في اسيا،بحرارة انطباعاته المغربية،مدينة تولا وخيالات كنائسها«بمنظر مدينة مكناس من بعيد وهي تعلوها الصوامع».(30)

* وردت عند الباحثة الروسية تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا في كتابها المعنون ب«روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب»،الصادر عن دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.ص.75-91 (الكتاب باللغة الروسية).

1- ب.م.ضانتسيكB.M.Dantsig الروسيون في شمال افريقيا،ضمن:«روسيا وافريقيا»،تحرير وتنسيق:أ.ضافيدسون واخرون،موسكو،معهد افريقيا،دار النشر ناؤوكا،1966

2- مقالة م.أ.كوسفين،ضمن«روسيا والمغرب»،ص.107

3-عبد الرحيم المعطاوي،المغرب وروسيا،منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية،الرباط،2011،ص.14

4-ضانتسيك ب.م.،المرجع اعلاه،ص.ص.101-103

5-المسالة المغربية 1900-1912،خير فارس،معهد الدراسات العربية،القاهرة،1961،ص.127(هامش)

6- روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب،ت.ل.موصاطوفا،دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.75(باللغة الروسية)

7- نفسه،ص.79

8- نفسه،ص.75

9- نفسه،ص.76

10- نفسه،ص.79

11- نفسه،ص.80

12- نفسه،ص.81

13- نفسه،ص.77

14- نفسه،ص.78

15- نفسه،ص.79

16- نفسه،ص.76

17- نفسه،ص.83

18- نفسه،ص.77

19- نفسه،ص.84

20- نفسه،ص.85

21- نفسه،ص.85

22- نفسه،ص.85

23- نفسه،ص.86

24- نفسه،ص.87

25- او العنبري،وهو نوع من المشروبات الروحية.

26- روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب،ت.ل.موصاطوفا،دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.87 (باللغة الروسية)

27- نفسه،ص.88

28- نفسه،ص.90

29- نفسه،ص.90

30- نفسه،ص.91

إسهام في دراسة المتاحف الاثنوغرافية بواحات الجنوب المغربي

رشيد صديق
باحث في التاريخ والتراث
سلك الدكتوراه كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس

حفيظ أشتكاح
باحث في التاريخ والتراث
سلك الدكتوراه كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير

ملخص البحث: تحتضن واحات الجنوب المغربي العديد من المؤهلات الثقافية المادية واللامادية. وتعتبر المتاحف الاثنوغرافية جزءا هاما من التراث المنقول الذي أبدعته أيادي الإنسان المحلي لهذه المجتمعات الواحية الصحراوية، والحامل لرموز ووظائف مختلفة ومتنوعة. وتلعب هذه المتاحف دورا أساسيا في حفظ الموروث الثقافي والحضاري لمختلف الشعوب، كما أنها تساهم في حفظ الذاكرة الجماعية لمختلف المجموعات البشرية. إن هذه المتاحف تعد ذاكرة حية تؤرخ لأنماط عيش المجتمعات وتطورها عبر المراحل التاريخية.

كلمات مفتاحية: المتاحف، الواحات، التراث الثقافي، الجنوب المغربي

تقديم:

يتميز التراث الثقافي والطبيعي بواحات الجنوب المغربي بالغنى في المضمون والتنوع في الشكل، ويدل هذا على تجربة وخبرة الإنسان المحلي وعبقريته. و تعد معالم المنطقة الأثرية بشواهدها المادية وغير المادية بمثابة الذاكرة الحية لمجتمعات هذه الرقعة من البلاد، لأن هذه المجتمعات تستمد المادة الأساسية لبناء ذاكرتها الجماعية من خلال تراثها المتنوع والغني، ما يحتم عليها الافتخار والاعتزاز بتراثها وتثمينه ورد الاعتبار إليه، خصوصا تلك الأماكن التي لا تزال تحتفظ بهذا التراث من مواقع ومعالم أثرية ومتاحف اثنوغرافية. وتعد هذه الأخيرة مظهرا حضاريا بارزا، فهي بمثابة معاهد علمية ومراكز ثقافية ومدارس، حيث يتعرف المرء على التراث الحضاري لموطنه أو لأي أمة أخرى وما أنتجته من ثقافة عبر مر العصور. فالمتحف يعكس حضارة وتاريخ الأمم

السابقة أمام الأجيال اللاحقة، ويسهم في نشر الوعي العلمي والثقافي وينمي الحس الحضاري لدى كافة فئات المجتمع. وخلال السنوات الأخيرة ازدادت أهمية المتحف مع بروز دوره في نشر الثقافة والإسهام في التربية والتعليم، حيث أصبحت إدارة المتحف وعمارته من أروقة وقاعات، ومعارضه ومناهجه الثقافية تشكل علما قائما بذاته يطلق عليه اسم "علم المتاحف".

تعتبر المتاحف الاثنوغرافية في الوقت الراهن الذاكرة الحية التي تلعب دورا أساسيا في حفظ الموروث الثقافي والحضاري لمختلف الشعوب، كما أنها تسهم في حفظ الذاكرة الجماعية لمختلف المجموعات البشرية، فهذه المتاحف تعد ذاكرة حية تؤرخ لأنماط عيش المجتمعات وتطورها عبر المراحل التاريخية.

المحور الأول: الإطار المفاهيمي

1- المتحف

لفظ (متحف) في اللغة العربية مشتق من فعل أتحفه به أي أهداه إليه، ولفظ تحفة يعني هدية، وشيء فاخر ثمين. ويفيد لفظ متحف المكان الذي جمعت فيه الهدايا والأشياء الفاخرة الثمينة، والآثار الفنية والممتلكات الثقافية والنفائس والقطع النادرة التي تهفو النفوس إلى رؤيتها وتتطلع إلى التأمل فيها والإعجاب بها[1]. ويرى الأستاذ رضوان علي أن كلمة "**متحف**" في اللغة العربية تعني مكان تجمع فيه التحف، والتحفة هي الشيء النادر الثمين الذي تتزايد قيمته كلما بعد الزمن الذي يعود إليه والمعنى أو الموضوع الذي يدل عليه[2]. وفي معجم اللغة العربية المعاصرة التحفة بالضم وجمعها تحف هي كل طرفة أو شيء مستحدث عجيب له قيمة جمالية أو أثرية أو فنية، والمتحف هو موضع عرض التحف الفنية والأثرية والعلمية وغيرها[3].

ومرادف لفظ متحف هو (Musée) بالفرنسية أو (Museum) بالإنجليزية، واستخدام هذا اللفظ يعود إلى العصور القديمة الكلاسيكية، حيث أن في بلاد الإغريق أطلق اسم (Mouseion) على معبد مخصص لـ (ربات الفنون)[4]، وتسمى هذه (الربات) بـ (Muses)، وشيد هذا المعبد عل تل (Helicon) في أثينا، وحسب الميثولوجيا الإغريقية فإن هذه (الربات) ولدن لإله الآلهة جوبتير (Jupiter) ومن ربة الذاكرة منيموزين (Mnemosyne)، و كل ربة ترعى أحد الفنون، وربما كان في هذا المعبد - كباقي المعابد- كنوز هامة وهدايا ثمينة قدمها أصحابها كعربون اعتراف بالجميل وشكر للآلهة[5]. وكان عدد هذه (الربات) تسعة،[6] أي تسعة فنون،[7] ومن المحتمل أن لفظ (Musée) و (Museum) الحالي له علاقة مع ذلك المعبد وخصوصا أنه يخص (ربات الفنون) كما ذكرنا وانطلاقا من أن المتاحف اليوم تضم عدة فنون[8].

اقترح المجلس الدولي للمتاحف (ICOM)[9] التعريف التالي للمتاحف، فهي" كل مجموعة الوثائق الفنية، التقنية، العلمية، التاريخية والأثرية المتاحة للجمهور بما في ذلك الحدائق الحيوانية والنباتية، لكن باستثناء المكتبات ". و شهد هذا التعريف عدة تعديلات في كل جمع عام للمجلس، وفي سنة 1972م تم اعتماد تعريف (Georges Henri Riviére)[10]،

---

[1] بشير زهدي، **المتاحف**، ط 1، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1977، ص15-16.

[2] رفعت محمد موسى، **مدخل إلى فن المتاحف**، الدار المصرية اللبنانية، 2002، ص 16

[3] أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، المجلد الأول، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، 2008، ص 286.

[4] André Desvallées et François Mairesse, **Dictionnaire encyclopédique de muséologie**, Armand Colin, Paris, 2011, p273.

[5] بشير زهدي، نفس المرجع ص15.

[6] شوقي شعث، **المتاحف في دول العالم الإسلامي (النشأة والتطور)**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، 2011، ص 12.

[7] وهي كالآتي: Klio ربة التاريخ، Euterpe ربة الشعر الغنائي، Thalia ربة الكوميديا، Melpomene ربة التراجيديا، Terpsichor ربة الرقص، Erato ربة الشعر الغرامي، Polyhymania ربة الغناء الجاد، Ourania ربة الفلك، Kalliope ربة شعر الملاحم والأساطير.

[8] André Desvallées et François Mairesse, **Dictionnaire encyclopédique de muséologie**, p273.

[9] منظمة دولية تابعة للأمم المتحدة، تم وضع نظامها الأساسي سنة 1946، وهدفها القيام ببحوث ميدانية ودراسات متحفية ونشر مبادئ علم المتاحف وتوسيع المعلومات فيه بعد أن تعددت ميادينه واهتماماته، ومن مهام المجلس توثيق الصلة بين المتاحف والعاملين بالمتاحف في أنحاء العالم.

[10] ولد في 5 يونيو 1897 في باريس، وتوفي 24 مارس 1985 في لوفسيين، وهو عالم متاحف فرنسي، ومؤسس المتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية بباريس، لعب دورا هاما في علم المتاحف الحديث وتطوير المتاحف الإثنوغرافية في جميع أنحاء العالم في إطار المجلس الدولي للمتاحف (ICOM).

والذي يتمثل في أن "المتحف مؤسسة دائمة غير ربحية تسعى لخدمة المجتمع وتطويره، مفتوحة للجمهور، ويقوم المتحف بجمع، وحفظ، والبحث، والتواصل، وعرض التراث الإنساني وتطوره لأغراض التعليم والدراسة والترفيه"[1]، وقد صادق المجلس الدولي للمتاحف (ICOM) على هذا التعريف رسميا سنة 2001.[2]

2- علم المتاحف:

اشتقاقيا عندما نتحدث عن علم المتاحف (Muséologie) نقصد به دراسة المتحف وذلك من حيث تصميمه وتنظيمه وإدارته، وهو غير (Muséographie) والذي يخص دراسة المقتنيات والمجموعات المتحفية[3]. وحاليا يتم تعريف (Muséographie) على أنه الجانب العملي والتطبيقي لعلم المتاحف، فـ (Muséographie) يخص تقنيات تطوير المتاحف وحفظ المقتنيات داخلها وتأمينها والحفاظ على سلامتها من خلال أساليب العرض[4]. و(Muséologie) هو علم يدرس المتحف في معناه العام يشمل جميع أنواع وجميع أشكال المتاحف وجميع الجوانب المحيطة بها، وهو في المقام الأول علم للتأريخ من خلال كتابته لتاريخ كل متحف، ثم بعد ذلك أنه ممارسة عامة ويومية في المتحف. وهذا الرأي يرى أساسا أن علم المتاحف هو بمثابة تاريخ للمتاحف وهنا يمكن للمرء أن يميز بين علم المتاحف النظري أي (Muséologie)، وبين (علم المتاحف) المتخصص لكل فئة معينة من المتاحف[5]. وكمرادف لهذا المصطلح في اللغة العربية هناك من يطلق عليه (علم التحافة)، وشخصيا نرى أن اسم (علم المتاحف) هو الأكثر تطابقا للفظ (Muséologie).

ظهر علم المتاحف في القرن 18 م، ويعتبر أقدم مؤلف في هذا الميدان هو كتاب ألفه (Caspar Fridrich Neickel) وكان بعنوان (Muséographie) سنة 1727 م. ومن أهم العوامل التي أسهمت في تقدم علم المتاحف، وظهوره كعلم له مختصون وطلابه نذكر؛ أفكار الثورة الفرنسية، والمنهج العقلي في ألمانيا، واهتمام الدول الإسكندنافية بمتاحف التقاليد الشعبية، ورغبة بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية في جعل المتاحف تهتم بقضايا التربية، واعتماد الإتحاد السوفياتي على المتاحف في نشر الثقافة وتعميم المعرفة في أوساط الجماهير[6]. وقد انتقل الاهتمام بهذا العلم إلى عصبة الأمم[7]، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، إذ أسست الدائرة الدولية للمتاحف (OIM)مقرها كان في باريس. وبعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة، ومنظمة اليونسكو[8] التابعة لها، أسس المجلس الدولي للمتاحف (ICOM) في نيويورك، والذي يزود متاحف العالم بالخبرات والدعم. وبشكل مواز لهذا الاهتمام الدولي كانت الجامعات العالمية تتسابق لإحداث معاهد خاصة لعلم المتاحف وعلم الآثار، مثل معهد الفن وعلم الآثار في باريس، أو إحداث الكليات وأقسام ومقررات في علم المتاحف أو تاريخ الفن أو علم الآثار. وكان لابد من انتشار الاهتمام بهذه العلوم من إصدار مؤلفات خاصة وتشكيل علم المتاحف على أسس أكاديمية ومعرفية دقيقة. ومن أهم الدوريات مجلة (Museum) الصادرة عن منظمة اليونسكو، والتي اهتمت بتقديم أفكار طموحة في مجال تطوير المتاحف وفي عرض شروط تصاميم أبنية من حيث الإنارة والتهوية، وفي استعراض مشاريع المتاحف القديمة، وعرض مشاريع أحداث المتاحف، وبيان أخبار الهيئات الدولية

---

[1] André Gob et Noémie Drouguet, **La muséologie: Histoire, Développement, Enjeux actuels**, Armand colin, 3éme édition, Paris, 2010, pp 38-39.

[2] André Desvallées et François Mairesse, **Dictionnaire encyclopédique de muséologie**, p271.

[3] André Desvallées et François Mairesse, **Ibd** , p343.

[4] André Desvallées et François Mairesse, **Concepts clés de muséologie**, Armand Colin, Paris, 2010, p53.

[5] André Gob et Noémie Drouguet, p15

[6] بشير زهدي، نفس المرجع، ص 11.

[7] هي إحدى المنظمات الدولية السابقة التي تأسست عقب مؤتمر باريس للسلام عام 1919 بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وهي أوّل منظمة أمن دولية هدفت إلى الحفاظ على السلام العالمي.

[8] منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة UNISCO، هي وكالة متخصصة تتبع منظمة الأمم المتحدة تأسست عام 1945، هدف المنظمة الرئيسي هو المساهمة بإحلال السلام والأمن عن طريق رفع مستوى التعاون بين دول العالم في مجالات التربية والتعليم والثقافة لإحلال الاحترام العالمي للعدالة ولسيادة القانون ولحقوق الإنسان ومبادئ الحرية الأساسية.

والقومية في مجال المتاحف. ثم ظهرت سلسلة تحت اسم (ICOM: Bibliographie Muséologique International) وتختص بشؤون علم المتاحف من النواحي النظرية والتنظيمية[1].

المحور الثالث: نظرة تاريخية حول علم المتاحف: النشأة والتطور

خلافا لما يعتقده الكثير من الناس من أن المتاحف ظهرت فجأة وبرزت إلى الوجود كفكرة حديثة، أثبتت الدراسات أن جوهر المتحف (الجمع) قديم قدم الإنسان على وجه البسيطة. ومن ذلك يظهر أن غريزة الجمع عند الإنسان كانت في المقام الأول، ثم الاختيار من خلال اختيار أثمن الأشياء وأكثرها قيمة، وأخيرا العرض من خلال التباهي أمام الناس بهذه الأشياء القيمة والثمينة التي تقع في الملكية، وهو الأمر الذي حدث منذ أقدم العصور. فالذي دفع الإنسان إلى جمع الأشياء هي جملة من الأسباب؛ وفي مقدمتها العامل الاقتصادي المتمثل في استعمال القواقع وأشباهها في عملية المقايضة، وكذلك الدافع الديني الذي مؤداه استعمال مجموعة من القرابين، إضافة إلى الدافع الطبي مثل استخدام أنواع من النباتات والصخور في العلاج. وبالتالي فالأكيد أن المحافظة على الأشياء الثمينة هي جوهر انطلاق فكرة إنشاء المتاحف فيما بعد[2]، وذلك حبا في الماضي وتقاليده وفنونه واحتراما للأسلاف والأجداد، والرغبة في الاستفادة منها بالطرق المتاحة. وقد مرت هذه العملية بمجموعة من المراحل والتطورات عبر العصور التاريخية.

3-1- التاريخ القديم:

أ- مصر القديمة:

مما لا شك فيه أن قدماء المصريين كانت لديهم متاحف بصورة ما، وما تلك المعابد إلا متاحف لروائع الفن والمعمار والنحت، وربما كانت بها منقولات من التحف التي طالتها أيادي النهب عبر القرون[3]. وهذا ما أكدته الدراسات، حيث تجمع أن المصريين القدماء هم أول من اهتم بالمتاحف. وتبين أن المعابد المصرية بجانب دورها الديني، كانت توفر خدمات العرض والانتقاء لكل ما استجد من العلوم والأشياء الثمينة النادرة المحصلة عليها عن طريق الهبات أو الضرائب المقدمة للفراعنة، بالرغم من أنهم لم يكن لديهم مفهوم المتاحف، إلا أن غريزة الجمع هي الحافز. وكان الفن يوظف في الأغراض الدينية. أما طرق العرض فهي تلقائية لارتباطها بمكان العرض. ونجد أن ابن رمسيس الثاني[4]، (خعاموا) (Khaemweset) كان مولعا بحب الآثار، ولقد سجل كل ما جمعه على قاعدة مسلة في معبد الشمس، وهي اليوم تعد أول سجل جرد للتحف في التاريخ تم العثور عليه[5].

يعتبر متحف الاسكندرية من أقدم المتاحف التي وصلتنا أخبارها، وقد أسسه بطلموس الأول (323-285 ق.م)[6]، وقد تأسس هذا المتحف سنة 290 ق.م، وكان هذا المتحف يضم عددا من الباحثين الإغريق، ومزود بقاعة للمحاضرات وحديقة ومرصد

---

[1] عفيف البهنسي، **علم المتاحف والمعارض**، الطبعة الأولى، دار الشرق للنشر، دمشق، 2004، ص 13-14.

[2] عياد موسى العوامي، **مقدمة في علم المتاحف**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، 1987، ص15.

[3] درويش مصطفى الفار، **سطور في تاريخ المتاحف**، متحف قطر الوطني، دار الكتب القطرية، 2005، ص7.

[4] هو أحد فراعنة الأسر التاسعة عشر حكم مصر بين 1279-1213 ق.م.

[5] رفعت محمد موسى، ص24.

[6] بشير زهدي ، ص16.

فلكي. كما يضم نزلا لإيواء الباحثين وديرا ومكتبة، إلى جانب عدد من الحيوانات والنباتات والصخور والمعادن لأغراض البحث العلمي[1]. وقد ذكر الأستاذ الأكاديمي بروفسكي[2]، بأن بطلموس الأول[3] أسس هذا المتحف بتوصية من ديمتريوس ألفاليري[4] الذي جاء في مخيلته تأسيس المتحف مع المكتبة كنوع يشبه الجامعة أو المدرسة الأثينية الخاصة بتعليم الفلسفة[5]، ويمكن اعتبار متحف الاسكندرية من أهم الانجازات في العهد البطلمي، وكانت الدولة تنفق الأموال الطائلة في سبيل توفير متطلبات البحث العلمي، وما يحتاجه الباحثون من مواد وعينات[6].

ب- بلاد ما بين النهرين:

أسفرت أبحاث العالم الأثري (Woolley)[7] التي أجراها في منطقة أور جنوب العراق سنة 1942م، عن وجود ما يمكن وصفه بأنه كان متحفا جيولوجيا ملحقا بأحد الأديرة. ويرجع تاريخه إلى ملوك (الكاشيين)[8] (Kassites)، الذين غزوا مملكة بابل وحكموها بين القرنين 16 و 12 ق.م[9]. وفي المقابل قالت بعض الأبحاث والدراسات أن الملك البابلي نبوخذنصر الأول (Nebuchadnezzar I)[10] (604-592 ق.م)، قد خصص قاعة من قصره لعرض مواد أثرية لزواره وليس لعامة الناس[11]. وفي سنة 1850م اكتشفت عدد من الصناديق في مدينة (أور) تضم أسطوانات وجدت عليها كتابة تقول: "أن الملك البابلي (نبوخذنصر) كان قد قام بتنقيبات واسعة بمدينة (أور)"، ومن هذا الاكتشاف خلص الباحثون أن هذا الملك كان مولعا بأعمال التنقيب عن الآثار، وأنه بهذا يعتبر أول أثري في التاريخ[12].

ج- بلاد الإغريق:

نشأت فكرة المتاحف في بلاد الإغريق في المعابد والمدن، حيث أقيمت متاحف جمعت بها الكثير من التماثيل والآثار الثمينة. وكما هو متعارف عليه عند علماء الآثار، فإن المعابد في العالم القديم قد احتوت على مخازن يجمع بداخلها كل ما هو ثمين، إلا أن الإطلاع عليها كان مقتصرا على الملوك ورجال الدين[13]. وكما ذكرنا سابقا فإن كلمة (Musée) أو (Museum) جاءت من اسم (Mousein)، وهو المعبد الذي خصص لـ (ربات الفنون) (Muses)، ويعتبر هذا المعبد من أقدم الأمكنة التي استعملت كمتحف، ويقع قرب (أكروبول أثينا)[14]. ومن المتاحف التي وصلتنا أخبارها هناك متحف برغامون في جزيرة الأناضول، والذي أسسه الملك أتالا سنة (241-197 ق.م)[15]، وحفظت في هذا المتحف روائع الفنون التشكيلية والقطع الفنية[16]. كما أن الإسكندر الأكبر[17] عندما أراد أن يكرم أستاذه الفيلسوف (أرسطو) أهدى إليه مجموعة من التحف والمعادن والحفريات، وقدم له من الأموال ما أعانه على إنشاء متحف علمي في القرن الرابع الميلادي[18].

د- الإمبراطورية الرومانية:

بعدما توسعات الإمبراطورية الرومانية واستيلائها على مخلفات الحضارات السابقة لها بدأ الاهتمام بجمع التحف الفنية، فكانت قصور الأباطرة تحتوي على قاعات فسيحة استعملت كمتاحف. ولقد اعتبروا حكام روما أنه من الضروري تنظيم المعارض لتثقيف عامة الشعب والتعريف بمكتسبات الإمبراطورية الرومانية. ولعل أهم محطة في تاريخ المتاحف هي القانون الذي وضعه يوليوس قيصر

---

[1] شوقي شعت، ص11.
[2] كان مدير متحف (الأرمتاج) بروسيا.
[3] أول ملوك الفراعنة البطالمة ومؤسس الأسرة البطلمية بالإسكندرية كما أنه عاش في قصر والد الإسكندر الأكبر.
[4] سياسي وفيلسوف إغريقي.
[5] بشير زهدي، ص16.
[6] شوقي شعت، ص12.
[7] Charles Leonard Woolley (1880-1960 م) عالم أثار بريطاني.
[8] من الأقوام الهندية الأوربية سكنوا منطقة لورستان (جنوب همدان) في أيران قبل أن يأتوا الى بابل على شكل هجرات متفرقة.
[9] درويش مصطفى الفار، نفس المرجع السابق ص6.
[10] الملك الرابع من سلالة ايسن الثانية و السلالة الرابعة لبابل , تولى الحكم لمدة 23 سنة.
[11] مازن رسمي راتب عبد اللطيف، **المتاحف الأثرية بالأردن**، دراسة تحليلية، دراسات عليا، قسم الآثار، الجامعة الأردنية، 1993، ص48.
[12] شوقي شعت، نفس المرجع السابق ص11.
[13] عياد موسى العوامي، نفس المرجع السابق ص15.
[14] اكروبوليس او اكروبول، وهو معبد يوناني قديم يقع في العاصمة اليونانية أثينا على قمة تل.
[15] عفيف البهنسي، ص117.
[16] بشير زهدي، نفس المرجع السابق، ص16.
[17] الإسكندر المقدوني، هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين عبر التاريخ.
[18] درويش مصطفى الفار، نفس المرجع السابق، ص7.

(Julius Caesar)[1]، حيث حاول تنظيم عملية جمع الآثار، فمنع جمع التحف العتيقة في القصور الخاصة وجعلها ملكا للدولة، وبدأ بالتبرع بمجموعته الخاصة إلى المعابد التي كلفها بعرضها على العامة، ليكون أول قانون لحماية التحف ويقنن عرضها للجمهور[2]. وفي سنة 189 ق.م أنشئ في مدينة روما متحف كبير عرضت به الغنائم التي كسبها الرومان في حروبهم، كما غصت بها التماثيل المخلدة لأبطال الإمبراطورية وحكامها، كما احتوى هذا المتحف على مكتبة جمعت بها المخطوطات الإغريقية، وكذا مراسلات الأباطرة والملوك مع حكام الأقاليم[3].

2-3- التاريخ الوسيط:

أ- أوروبا:

بعد أن نهلوا من منابع العلم والحضارة في كل من الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا، ومن المشرق الإسلامي إبان الحروب الصليبية[4]، بدأ الأوروبيون يهتمون باقتناء التحف فبدؤوا بإنشاء المجموعات الخاصة كمجموعة الأمير كوسيمو الأكبر (1389-1464 م) في فلورانسا[5]. فقد ساعد جمع التحف في تشكيل المجموعات الفنية التي حققت ميول أصحابها إلى التفاخر بها، كما ساعد دور الوسطاء والخبراء والفنانين في إغناء المجموعات المقتناة والمحافظة عليها إلى حد كبير في تكوين نواة المتاحف فيما بعد، مثل متحف فلورانسا بإيطاليا، و متحف أوفيتشي (Office) بفلورانسا. ولعب الباباوات دورا مهما في تأسيس المتاحف وتطويرها عن طريق عرض المجموعات الخاصة بهم، كما تم إنشاء متحف الكابتول (Capitoline Museum) بروما، وقد امتاز هذا المتحف بتصنيف مقتنياته وبالسماح للجمهور بزيارته، وكل هذا بتزامن مع بداية عصر النهضة[6].

ب- العالم الإسلامي:

عرف المسلمون عادة جمع التحف الثمينة والنادرة خاصة بعد الفتوحات الإسلامية في كل من بلاد فارس والإمبراطورية البيزنطية. وبالرغم من أنهم لم يعرفوا المتاحف العامة كتلك التي وجدت عند الأوروبيين، إلا أنهم كونوا مجموعات خاصة أسست للمتاحف الخاصة والخزائن، بالإضافة إلى احتوائها على المخطوطات كانت تحفظ التحف القيمة والثمينة[7]. وقد اهتم الخلفاء المسلمون والأمراء والولاة بالفنانين والموهوبين والصناع في سبيل إبداع أعمال فنية جميلة وتحف فريدة، وقد ساعد هذا في تشكل هواية حب الفن وبالتالي جمع الأعمال الفنية والتحف، فقد حرص الحكام الأمويين على اقتناء وجمع التحف في قصورهم في بلاد الشام. وكذلك اهتم العباسيون بجمع التحف وتجميعها في خزائنهم وقصورهم في بغداد[8]، ومن هؤلاء نذكر الخليفة العباسي الراضي (940-944 م) الذي خصص قسما من قصره لجمع البلور النادر في سائر أنحاء مملكته. وفي مصر اتخذ الفاطميون المباني الجميلة لعرض تحفهم الثمينة، فكانت لديهم دار للسلاح ودار للمجوهرات ودار للنقوش وغيرها. ولم تتأخر الأندلس عما يحدث في المشرق الإسلامي، فقد قام أمراؤها بجمع النفائس الثمينة والتحف الجميلة في دورهم وقصورهم[9].

3-3- التاريخ الحديث:

أ- أوروبا:

عرفت هذه الفترة الانتقال من حجرة كنوز العصر الوسيط إلى متاحف عصر النهضة، وكانت ثورة على متاحف العصر الوسيط، والتي كانت تهدف للتعبير عن تفكير هواة جمع المقتنيات في الخلود وليس لتوضيح الأعمال الفنية في التاريخ الماضي. لذا فإن النهضة اتجهت نحو دراسة الإنسان وانجازاته من الأعمال الفنية[10]. وخلال هذا العصر- سيعرف إنشاء

---

[1] الأمبراطور غايوس يوليوس قيصر جنرال وقائد سياسي وكاتب روماني ولد سنة 100 وتوفي 44 ق.م.

[2] قاسم إبراهيم نصحي، **تاريخ الرومان**، ج2، الجهاز المركزي للكتب، القاهرة، 1987، ص824-830.

[3] شوقي شعث، ص12.

[4] مجموعة من الحملات والحروب التي قام بها ملوك أوروبا من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثالث الأخير من القرن الثالث عشر (1096 - 1291) على بلاد الشام.

[5] درويش مصطفى الفار، ص13.

[6] شوقي شعث، ص15.

[7] عزت زكي حامد قدوس، **تاريخ عام للفنون**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2001، ص121.

[8] عزت زكي حامد قدوس، **علم الحفائر وفن المتاحف**، الإسكندرية، 2003، ص291.

[9] شوقي شعث، ص14.

[10] عبد الفتاح مصطفى غنيمة، **المتاحف والمعرض والقصور**، سلسلة المعرفة الحضارية، جامعة المنوفية، مصر، 1990، ص76.

المتاحف من طرف ملوك وتجار وقناصل أوروبا، والذين تأثروا برحلات المستكشفين للعالم الجديد[1]، وما جلبوه من هناك من تحف نادرة وثمينة، لتبدأ أكبر عملية سلب ونهب لتراث هذا العالم الجديد باسم الاستكشافات والتثقيف. وخير مثال على ذلك ما نهبه الأسبان والبرتغاليون من كنوز شعوب ذلك العالم (المايا، والأزتيك، والإنكا)، وكذلك الحملات الفرنسية على مصر التي قادها نابليون بونبارت (Napoléon Bonaparte)[2] والتي أدت إلى نهب آلاف القطع الأثرية الفرعونية، لتفتح الطريق للحملات التنقيبية البريطانية والإيطالية والألمانية.

تعددت الجمعيات والمؤسسات العلمية، وتبارت هذه الجمعيات مع قصور الملوك والأمراء في اقتناء المجموعات المتحفية دون ما تمييز أو تصنيف، الأمر الذي دفع (Samuel van Coburg)[3] ينشر مقالته الشهيرة التي طالب فيها بضرورة تنظيم المتاحف وتصنيف محتوياتها[4].

تأسست في أوروبا المتاحف الوطنية بمفهومها الحديث، وأصبح ذلك منذ حوالي القرن 17 م عادة شائعة في أوروبا. ومن أقدم المتاحف الأوروبية متحف Ashmolean بجامعة (Oxford) الإنجليزية، فكانت أول المؤسسات المتحفية التي خصصت لعرض التحف الأثرية بشكل منظم وعلى أسس أكاديمية. وكانت فكرة تأسيس هذا المتحف من الأول لـ (John Tredeskin) سنة 1638 م، وعندما توفي هذا الأخير تابع (Elias Ashmole) ذلك المشروع وأضاف إلى المتحف بعضا من مقتنياته، ثم أهداها إلى جامعة (Oxford) سنة 1671 م[5]. وفي سنة 1673 م تم افتتاح متحف (Ashmolean) بشكل رسمي، وكان في البداية مقصورا على رواده من طلبة الجامعات[6].. وتلى هذا افتتاح عدة متاحف أخرى، كمتحف الفاتكان (Vatican) سنة 1750 م، وافتتاح المتحف البريطاني سنة 1753 م، ومتحف الأرمتاج (Hermitage Museum) بروسيا سنة 1775 م، وفي سنة 1793 م تم افتتاح متحف (Louvre) بفرنسا[7].

ب- العالم الإسلامي:

في هذه الفترة نجد في القاهرة ودمشق أن السلاطين والنواب المماليك كانوا يقومون بجمع التحف الثمينة ويحفظونها في بيوتهم وقصورهم[8]. ويمكن القول أن الإمبراطورية العثمانية في هذه الفترة قد جمعت جل التحف القيمة النادرة التي توارثتها عن الإمارات الإسلامية، فنجد أن قصورهم بإسطنبول قد ملئت بالآثار والتحف، وأشهرها القصر الكبير والذي يعرف اليوم بمتحف طوبكاب سراي (topkapı sarayı)، والذي يضم أعظم التحف الإسلامية التي جمعت منذ أيام السلطان محمد الفاتح[9].

3-4- التاريخ المعاصر:

أ- أوروبا:

عرفت المتاحف تطورا خلال هذه الفترة، ففي البدايات الأولى للقرن 18 م تأثرت المتاحف بتطورات فكر الأنوار، وجمعت معظم الإبداعات الثقافية في إدراك عقلي وتاريخي متأثر بهذه التصورات الفنية والفكرية وبثقافة الجماهير. وهذا التوسع لمفهوم الثقافة قاد إلى ظاهرة مضاعفة عدد المتاحف[10]. وكان أصحاب النفوذ في عهد الثورة الفرنسية يسعون إلى تأسيس متاحف عمومية (Musées Publics) تحت شعار الثورة، واقترن تاريخ المتاحف بالثورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمجتمعات الأوروبية بين سنتي 1800 و1890 م، حيث أنشئت المتاحف في المدن والأقاليم التي عرفت تطورا صناعيا[11]، وتتابع إنشاء الجمعيات العلمية وما يتبعها من متاحف. وفي سنة 1890 م عقد أول مؤتمر لـ إتحاد المتاحف الدولي في مدينة (Liverpool)

---

[1] القصد هنا القارتين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية.
[2] قائد عسكري و سياسيي و إمبراطور الفرنسيين في أوائل القرن التاسع عشر.
[3] الطبيب البلجيكي في بلاط ملك بلجيكا (ألبرت الخامس).
[4] درويش مصطفى الفار، ص14.
[5] عزت زكي حامد قدوس، **علم الحفائر وفن المتاحف**، ص292.
[6] درويش مصطفى الفار، نفس المرجع، ص15.
[7] عزت زكي حامد قدوس، نفس المرجع ص293.
[8] شوقي شعث، نفس المرجع ص15.
[9] **http://topkapisarayi.gov.tr/en** الموقع الرسمي للمتحف، 2016/03/31، الساعة 14'00.
[10] Michel Fagonard, **La culture de 20ème siècle**, Bordas, Paris, p242.
[11] Marie Odile et Jean-Michel Tobelem, **Manuel de muséologie**, Biarritz, 1998, p18.

الإنجليزية[1]، وتنوعت تخصصات المتاحف، ومع الحملات الاستعمارية جمعت البلدان الأوروبية (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، ألمانيا...) من المستعمرات عددا هائلا من التحف، ولازال الكثير منها يزين متاحف أوروبا اليوم[2].

ب- العالم العربي الإسلامي:

بدأ انشاء المتاحف بمعناه الحديث في البلدان العربية الإسلامية في أواخر القرن 19 م وبداية القرن 20 م، وكانت معظم هذه المتاحف في بدايتها تركز على عرض تحف الحضارات القديمة (المصرية، الإغريقية والرومانية)، وما عثر عليه من تماثيل ولقى فخارية وبرونزية وزجاجية ترجع إلى تلك الحضارات[3]. أنشئت هذه المتاحف نتيجة الاحتكاك بالعالم الغربي، فأغلب هذه المتاحف افتتحت خلال فترة الاستعمار الأوروبي، ويعتبر متحف الباردو بتونس أقدم المتاحف العربية حيث تأسس سنة 1888 م، وفي الجزائر تأسس متحف الآثار سنة 1897 م، وفي مصر افتتح المتحف المصري في مبناه الحالي سنة 1902 م، وفي سنة 1915 م تم افتتاح متحف الأوداية بالرباط، وفي سوريا تأسس متحف دمشق سنة 1919 م، وفي نفس السنة تأسس متحف الآثار الكلاسيكية بليبيا، وتلى ذلك افتتاح العديد من المتاحف في مختلف البلدان العربية[4].

3-5- المتاحف في الوقت الراهن:

تتمتع المتاحف اليوم في بداية القرن 21 م بشعبية هائلة واحترام من كافة الطبقات الاجتماعية، يزورها الملايين في كل عام للمتعة والاستفادة، ويزور مواقع المتاحف على الانترنيت الملايين كذلك، مما سمح للمتاحف بالانتشار الواسع بلا حدود والوصول إلى جمهورها الوافر. وتستمر المتاحف في مواجهة التحديات التي تجابهها، من التنوع العرقي إلى المصاعب الاقتصادية، ومن المشاكل الاجتماعية إلى الفجوة بين الأجيال، وتستجيب لتلك المتغيرات بأن تجاهد لأن تكون مراكز تعليمية وتثقيفية جاذبة للجماهير، وذلك جنبا إلى جنب مع مهامها التقليدية في جمع وحفظ وترجمة التراث الإنساني[5].

لقد بررت المتاحف وجودها في التاريخ، فقد أسهمت في ابتكار وسيلة حقيقية لتطور البشرية، ولعبت دورا لا غنى عنه في عملية الحضارة، وتكيفت في الماضي مع تغيرات المجتمعات ويجب أن تستمر في التكيف. واليوم فإن علم المتاحف هو المحرك الرئيسي للمتاحف في ظل الثورة العلمية والتكنولوجية، فالعلم هو الأداة الوحيدة التي تسمح لاكتشاف قوانين الطبيعة واكتشاف مسارات جديدة، والنتيجة هي أن على المتاحف تطبيق المبادئ الأساسية لعلم المتاحف فيما يخص الإدارة والتصميم والتنظيم، فهو فقط القادر على معالجة الوضع الراهن للمتاحف على نحو فعال[6].

المحور الرابع: نماذج من المتاحف الإثنوغرافية بواحات الجنوب المغربي:

1- متحف تايوكا بواحة تغجيجت:

اختار صاحب المتحف للمتحف من الأسماء اسم تايوكا (Tayoga)، وهذا الاسم الأمازيغي له معنيان؛ الأول يقصد به (الثنائية) أي زوج من كل شيء. أما المعنى الثاني فهو مرتبط بالمجال الفلاحي، فلفظ "تايوكا" يطلق على الأداة التي تربط بين المحراث الخشبي التقليدي أسكرز (Askerz) بالبهيمة أثناء عملية الحرث، واللفظ مرتبط بالمجال من خلال كون النشاط الفلاحي هو العمود الفقري للواحة وسر البقاء والاستقرار في هذا المجال.

تقع البناية التي تضم المتحف في دوار دودرار (Doudrar) بواحة تغجيجت. وتبلغ المساحة الكلية للبناية حوالي 600 متر مربع، وتاريخيا تنقسم البناية إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول هو الجزء القديم، والذي أنشئ قبل ثلاثة قرون، ويسمى هذا الجزء بقصبة إد

---

[1] درويش مصطفى الفار، نفس المرجع، ص17.

[2] Michel Fagonard, **Ibdm**, p243.

[3] عياد موسى العوامي، نفس المرجع، ص24.

[4] شوقي شعث، ص20.

[5] أيمن محمد عاصم أحمد إسماعيل، **إدراك الفكر التصميمي للاتجاهات المعاصرة في عمارة المتاحف**، رسالة الحصول على الماجستير في الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة عين شمس، القاهرة، 2007، ص16-17.

[6] Anne Edos, **«La muséologie sujet d'exposition la conservation des collections exposées un musée national de Papouasie-Nouvelle Guinée»**, Museum, Vol 16, N°4, UNISCO, Paris, 1977, p190.

بيغرداين، وهو عبارة عن بناء عتيق بني بالطريقة التقليدية والتي تتجلى في طريقة (اللوح) أو (التابوت) وباستعمال المواد المحلية من خلال الطين والتبن وجذوع وسعف النخيل، وهو جزء غير مستغل حاليا وأكثر أجزائه مهدمة والباقي منها آيل للسقوط، أما القسم الثاني فهو ذلك القسم الذي بني في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، وأغلب مرافقه بني بالطريقة التقليدية التي سبق والإشارة إليها، وحالة هذا الجزء نسبيا لابأس بها، وأخيرا القسم الثالث وهو الذي بني في أواخر الستينيات من القرن 20 م، وقد بني هذا الجزء بالطريقة والمواد الحديثة من خلال استعمال الإسمنت والأجور والحديد، وتبدو حالة هذا الجزء نوعا ما جيدة. قسم المتحف إلى 15 رواقا وهي كالتالي:

- **رواق الأعمال اليدوية:** يحتوي على المصنوعات النباتية.
- **رواق الفنون التشكيلية والنحاس:** يضم رسومات جدارية وأواني نحاسية.
- **رواق الأعمال اليدوية النسوية:** يتكون من مصنوعات نباتية وصوفية صنعتها النساء.
- **رواق الأفرشة:** يحتوي على مجموعة من الحصائر التقليدية والزرابي.
- **رواق قلب المتحف:** يضم مجموعة متنوعة من المقتنيات من مواد جلدية ومطبخية وأدوات الإنارة وملابس تقليدية وأبواب...
- **رواق الفلاحة:** يحتوي على مختلف المستلزمات الفلاحة التقليدية.
- **رواق المطبخ:** يضم مجموعة من الأواني.
- **رواق الموسيقى:** يتشكل من الآلات والأدوات الموسيقية.
- **رواق الصوف:** يضم مستلزمات الغزل والنسيج.
- **رواق المفاتح والأقفال:** يضم مجموعة من الأقفال المعدنية والخشبية وكذا المفاتح.
- **رواق أدوات البناء التقليدي:** يحتوي على مستلزمات البناء التقليدي.
- **رواق أدوات النجارة:** يضم مستلزمات النجارة التقليدية القديمة.
- **رواق الطحين:** يحتوي على مجموعة من الرحى التقليدية والمستعملة في عملية طحن الحبوب وتنقيتها من خلال الغرابيل.
- **رواق مستلزمات الدواب:** يضم الأدوات التي تخص بالدواب.

2- متحف القوافل الصحراوية بتغمرت:

يقع هذا المتحف في واحة تغمرت (Tighmert) التي تبعد عن مدينة (أكليم) بـ 15 كلمترا، ويتواجد هذا المتحف في قصبة يعود تاريخ تشييدها إلى سنة 1713 م. وكانت هذه القصبة محطة استراحة للقوافل التجارية القادمة من بلدان جنوب الصحراء، وبعد ذلك أصبحت هذه القصبة دارا للقائد أحمد بن محمد بن كوري قائد منطقة واد نون لـ 36 سنة.

افتتح المتحف في هذه القصبة سنة 2000 م بمبادرة شخصية من السيدين (أ. م) و(ح، ب) وذلك بعد 28 سنة من البحث وجمع المقتنيات. وتبلغ مساحة المتحف حوالي 450 متر مربع، ويحتوي على عشرة قاعات للعرض.

تعكس مقتنيات هذا المتحف نمط عيش الرحل وتؤرخ لذاكرة القوافل التجارية التي تمر بالمنطقة في الماضي، ومن ضمن محتوياته هناك؛ (الراحلة) (Rahla) وهي سروج توضع على الإبل أثناء السفر والترحال بالنسبة للرجال. أما فيما يخص المرأة الصحراوية فهناك (أمشقب) (Amcheqqab) وهو الهودج الذي يوضع على الإبل كذلك وتسافر فيه المرأة، وارتباطا بالسفر والترحال دائما هناك أكياس جلدية كبيرة الحجم وتستعمل لتخزين الأمتعة، إلى جانب تواجد عدة مقتنيات أخرى ومنها: (الشكوة) (Chekwa) التي تصنع من جلد الماعز غالبا وتستعمل في عملية استخراج الزبدة من الحليب، و(تناست) (Tanast) وهي أداة لقياس الماء وتصنع من النحاس. وهناك أدوات مطبخية أخري من قبيل: (القدور) المصنوعة من الطين والمعدة للطهي فيها، و(القرب) المصنوعة من الجلد وتستعمل في تخزين المياه حيث

تكون بمثابة مبرد لها وقت اشتداد الحرارة، و(الأرحاء) المصنوعة من الأحجار والتي تقوم بوظيفة طحن الحبوب، و (المهارس) أو (أفردو) (Aferdo) التي يتم صنعها من الخشب والتي تقوم أيضا بمهمة الطحن وخصوصا هنا التوابل، و(القدحة) وهي أطباق خشبية توضع فيها الألبان أثناء الترحاب بالضيوف بالإضافة إلى (الأباريق) منها المصنوعة من النحاس وأخرى مصنوعة من معادن أخرى والتي تقوم بوظيفة إعداد الشاي الصحراوي.

ومن المقتنيات أيضا هناك الأبواب والتي يعود تاريخ بعضها إلى أربعة قرون، والحصائر المتنوعة والتي تصنع من نبات السمار، وهي ليست محلية الصنع إنما جاءت من ماسة ومراكش، وزرابي منها المصنوعة من الصوف ومنها المصنوعة من وبر الإبل، والسيوف والخناجر والمصنوعة من الفضة الخالصة، بالإضافة إلى المستحثات (Fossiles) التي تعود للعصور الجيولوجية القديمة، وكذا الأدوات الحجرية التي ترجع لعصور ما قبل التاريخ. ومن الحلي هناك الأساور والقلائد والخلاخل وأغلبها مصنوعة من الفضة الخالصة، وأزياء محلية رجالية ونسائية، والمصنوعات النباتية، مالقطع النقدية. وهناك أيضا مذياعين قديمين وآلة (Gramophone) لتشغيل الأسطوانات الموسيقية. ويضم المتحف كذلك الأدوات الفلاحية المختلفة والمتنوعة كالمحراث الخشبي والفؤوس و(المدرات)، والأقفال منها الحديدية والخشبية والمفاتيح بشتى أنواعها، إضافة إلى مجموعة من الصور الفوتوغرافية والتي تصور حياة الرحل، وفي فناء داخلي نصبت خيمة صحراوية مصنوعة من وبر الإبل معدة لاستقبال الزوار وتقديم الشاي الصحراوي لهم.

3- متحف القصبة بواحة تغمرت:

يوجد بواحة متحف تغمرت في بناية قديمة يعود تاريخها إلى حوالي ثلاثة قرون، وكانت في الأصل قصبة تستريح فيها القوافل التجارية القادمة من جنوب الصحراء، وتسمى هذه البناية بـدار أهل بلال. وتبلغ مساحتها حوالي 400 مترا مربعا، ويحتوي المتحف على 16 غرفة لكن سبعة منها فقط هي المستخدمة في عرض المقتنيات. افتتح هذا المتحف بمبادرة شخصية من السيدين (أ، ت) و(ج، ع) وذلك بعد أزيد من 37 سنة من البحث وجمع المقتنيات.

يضم هذا المتحف عدد من المصنوعات سواء الجلدية أو الطينية أو الخشبية بالإضافة إلى المعدنية، حيث يحتوي على عدد من الأبواب يعود تاريخها إلى أزيد من قرنين من الزمن، وأدوات مطبخية متنوعة من قبيل؛ الكير أو أنوض (Anoud). وهي أداة تستعمل لنفخ النار وتصنع من جلد الماعز، والمهراس الخشبي أو (أفردو) (Aferdo) ويستعمل لطحن التوابل ويصنع من شجر السفرجل ويتوفر المتحف على 16 قطعة منه، و(الكصعة) وهي عبارة عن صحن خشبي كبير الحجم، و(القدحة) مصنوعة من الخشب ويبلغ عددها في المتحف 21 قطعة وتستعمل لحفظ الحليب، و(القمع) أو(المحقن) هي أداة مصنوعة من شجر السفرجل وتستخدم في عملية صب الحليب داخل (الشكوة)، ويتوفر المتحف على ستة قطع منه. و(الرحى) وتستعمل في عملية طحن القمح أو الشعير ويضم المتحف ستة قطع منها. و(القلة) وهي جرار مصنوعة من الطين متعددة الاستعمالات وتوجد منها 16 قطعة. و(الشكوة) وهي أداة تستخدم في عملية استخراج الزبدة من الحليب الطري، وهي قطعة جلدية معلقة من ثلاثة عصي وتسمى هذه الأخيرة بـ(الحمّارة).

وهناك أيضا أدوات مطبخية أخرى مصنوعة من النحاس كـالأباريق والمجامر والمغاسل إضافة إلى صحون كبيرة الحجم، وهناك أدوات تصاحب الرحل أثناء السفر والترحال من قبيل؛ (أمشقب) أو (الهودج) وهو مصنوع من الخشب ومغلف بالجلد، و(أمشروط) (Amchrout) مصنوع من الجلد ويوضع بجانب الهودج، والراحلة وهي سرج يوضع على الإبل أثناء الركوب عليه، وأكياس جلدية كبيرة الحجم تخزن فيها الأمتعة أثناء السفر. ويحتوي المتحف أيضا على آلات موسيقية مثل (القدرة) المصنوعة من الخشب والجلد، و(الهجهوج) المصنوع كذلك من الخشب والجلد، وهناك أيضا المستحثات والأدوات الحجرية لعصور ما قبل التاريخ. وقطعة صخرية منقوشة تحمل رسما لغزالة. وهناك أيضا أقفال خشبية وأخرى معدنية ومفاتيح مختلفة الأنواع، آلة كاتبة قديمة،

ودراجة هوائية تعود إلى سنة 1921 م. كما يتوفر المتحف على حلي مصنوعة من الفضة وأدوات للزينة، وكذا صناديق خشبية تستعمل لتخزين كل شيء ثمين وتسمى محليا بـ لمندوس، وتوجد أيضا قطعة خشبية تسمى بـ ضلعة وتستعمل لرفع الخيمة من الوسط بواسطة ركيزتين، هناك أيضا خناجر فضية، وأفرشة متنوعة كالحصائر المصنوعة من السمار والزرابي ووسادات تسمى بـ (Asermi) والتي يتم صنعها من الجلد خصوصا من جلد الماعز، وأدوات الإنارة المتنوعة، ونقود ورقية، وأدوات الفلاحة التقليدية، وملابس تقليدية متنوعة، ومقتنيات أخرى تكشف عن نمط حياة وتفكير المجتمع الذي أبدعها وأنتجها ووظفها في حياته اليومية.

4- متحف الشيخ عمر بواحة أقا:

أنشئ متحف الشيخ عمر للذاكرة الوطنية والتواصل سنة 2002 من من طرف السيد (إ، ن) بواحة أقا اقليم طاطا، وهو أحد أعضاء المقاومة وجيش التحرير، وقد خصص جزء من بيته لهذا المتحف والذي تبلغ مساحته حوالي 600 متر مربع، وينقسم هذا المتحف إلى عدة أروقة وهي كالآتي:

أ- **رواق الوثائق والمخطوطات:** حيث يضم المتحف أكثر من 600 وثيقة تاريخية، وهي متعلقة بالمعاملات التجارية، إضافة إلى عقود متنوعة مكتوبة على الأوراق والجلد والخشب، وظهائر ورسائل سلطانية، وأيضا مجموعة من شجرات الأنساب الخاصة ببعض قبائل المنطقة، أما المخطوطات فعددها قليل لا يتعدى العشرة، وأغلبها يخص علوم الفقه والتفسير وعلوم الدين.

ب-**رواق الأدوات المنزلية:** يحتوي هذا الرواق على الأدوات المطبخية التي تم استعمالها محليا، وهي مصنوعة إما من الحجر أو الطين أو الخشب أو المعادن، فهناك الأرحية والجرار والمهارس والقدور والمغارف والصحون المختلفة الأحجام.

ت-**رواق الحلي وأدوات الزينة:** يضم هذا الرواق الحلي وأدوات الزينة الخاصة بمنطقة باني، مثل القلائد والخلاخل والأساور والخواتم، وأغلبها مصنوع من الفضة الخالصة. وهناك أيضا حلي مصنوعة من الأحجار الكريمة، وهناك أيضا بعض القطع النقدية.

ث-**رواق الصور الفوتوغرافية:** يوجد في هذا الرواق حوالي 500 صورة، وتؤرخ لمحطات من تاريخ المغرب المعاصر، ويعود أقدمها إلى سنة 1842 م، وهذه الصور مرتبطة بأحداث المقاومة المغربية وجيش التحرير والعائلة الملكية والمسيرة الخضراء وعلماء وأعيان المنطقة وقادتها، وكذا بعض العائلات اليهودية التي كانت تقطن بمنطقة أقا.

ج- **الرواق العسكري:** يضم مجسما لجندي مغربي بلباس عسكري تقليدي، وبعض الأسلحة والرصاص الفارغ والأصفاد التي تعود لفترة المقاومة. وهناك أيضا هيكل لسيارة عسكرية فرنسية الصنع يعود تاريخها إلى سنة 1956 م، وكذا طائرة مروحية فرنسية تم إسقاطها بالمنطقة أيام المقاومة المسلحة[1].

المحور الخامس: سبل رد الاعتبار للمتاحف الإثنوغرافية بواحات الجنوب المغربي

المبحث الأول: سبل التثمين.

1- الحماية:

تخضع متاحف المغرب للعديد من التشريعات والقوانين التي تنظمها وفي نفس الوقت تقوم بحمايتها[2]، الأمر الذي يستوجب الالتزام بهذه القوانين من قبل مسيري المتاحف سواء المؤسسات أو الجمعيات أو حتى الأفراد.

من أهم القوانين والتشريعات التي عرفتها المنظومة المتحفية بالمغرب هناك قانون رقم 80 - 22 والمتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات. هذا القانون تم تنفيذه وفق ظهير شريف رقم 347 - 8 - 1 الصادر بتاريخ 17 صفر 1401 هـ الموافق لـ 25 دجنبر 1980 م. وخصص فصولا منه للتحف الفنية من

---

[1] الوافي نوحي، دور المتاحف الخاصة في الحفاظ على التراث (متحف الشيخ عمر بأقا نموذجا)»، التراث والمتاحف بالمغرب، أعمال الندوة التي نظمها مركز الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية، مراكش، 24-25 شتنبر، 2004، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف، الرباط، 2007ص56.

[2] http://www.minculture.gov.ma/index.php/2015-12-29-08-45-55/2015-12-29-08-51-06 موقع وزارة الثقافة، 2016/05/04، الساعة 19'00.

خلال نصه على منع إتلاف وتغيير طبيعة التحف الفنية، كما منع تصديرها خارج أرض الوطن، إلا في حالة تنظيم المعارض الخارجية أو لغرض البحث والدراسة وذلك من خلال التصدير المؤقت.

هناك أيضا قانون رقم 05- 19 الذي يقضي بتغيير وتتميم قانون رقم 80-22 فهو قانون مكمل ومتمم له، وقد تم تنفيذ هذا القانون وفق ظهير شريف رقم 102- 06 -1 الصادر بتاريخ 18 من جمادى الأولى 1427 هـ الموافق لـ 25 يونيو 2006. ومن أبرز ما جاء به هذا القانون والذي يصب في مجال المتاحف هو ما نص عليه الفصل رقم 32، حيث شدد على وجوب قيام ملاك المتاحف بجرد شامل لتحفهم وتسليم نسخة من هذا الجرد للمصالح المكلفة بالشأن التراثي.

ومن أبرز المستجدات التي عرفتها الساحة المتحفية بالمغرب هو القانون رقم 09 - 01، والذي تم تنفيذه وفق ظهير شريف رقم 21- 10-1 الصادر بتاريخ 14 من جمادى الأولى الموافق لـ 18 أبريل 2011 م، هذا القانون القاضي بإحداث المؤسسة الوطنية للمتاحف، وتقوم هذه المؤسسة لحساب الدولة بمهام إدارة المتاحف وتدبير شؤونها والمحافظة عليها، والتي كان تدبيرها في السابق من اختصاصات وزارة الثقافة. ومن أبرز مهام المؤسسة الوطنية للمتاحف:

- إدارة المتاحف وتدبير شؤونها والمحافظة عليها.
- جرد وحصر وتوثيق رصيد المتاحف الداخلية في نطاق اختصاصها والمحافظة عليها وصيانتها وحمايتها.
- الإسهام في إغناء المجموعات المتحفية.
- تشجيع الإبداع والمهنية في المتاحف.
- تطوير وتنمية المعرفة في ميادين العلوم المتحفية.
- المساهمة في التكوين المستمر للعاملين في مجال تدبير المتاحف.
- تنمية وتشجيع وتيسير ولوج المتاحف.
- إقامة علاقة شراكة مع الأشخاص الطبيعيين أو الأشخاص المعنويين الذين يمتلكون مجموعات من التحف والنفائس.

رغم إحداث المؤسسة الوطنية للمتاحف إلا أنه لا تزال هناك فجوة بينها وبين متاحف أخرى كالمتاحف الخاصة، والتي تنتمي إليها معظم متاحف الجنوب المغربي. فالمؤسسة الوطنية للمتاحف معنية أكثر بالمتاحف العامة، أما المتاحف الخاصة فلا تزال تعمل دون حسيب أو رقيب من خلال كونها خارج المنظومة القانونية المنظمة للمتاحف بالمغرب، أو دون ما التزام بالقواعد المتعارف عليها في إطار علم المتاحف (La muséologie). كما أنها لا تستفيد من أي دعم من المؤسسة الوطنية للمتاحف أو قبل ذلك من (مديريات التراث) أو حتى (وزارة الثقافة)، اللهم وجود بعض الاتفاقيات الشراكة بين الوزارة وهذه المتاحف.

لكن هناك إشارات من طرف المؤسسة الوطنية للمتاحف لمعالجة الفراغ الكائن، من خلال ما صرح به مدير المؤسسة، من أن المؤسسة ستعمل على فتح علاقات شراكة مع القطاع الخاص من مؤسسات وأفراد من أجل النهوض بقطاع المتاحف خصوصا الخاصة منها، وهذا الأمر سيحتم توفير الجانب القانوني والتشريعي المنظم لهذه العملية.

2- الحفظ:

تعتبر التحف الفنية شواهد مادية لنشاط الإنسان وذاكرة محلية للمناطق التي تنتمي إليها، وبذلك توجب حفظها وحمايتها من مختلف عوامل التلف والضرر التي يمكن أن تلحق بها إذا ما أسيئ حفظها، فهناك عدة عوامل تؤثر على المجموعات المتحفية ومن بين هذه العوامل هناك:

2-1 العوامل البيئية:

أ- الرطوبة:

تعتبر من أهم أسباب تلف المعروضات، والرطوبة هي عبارة عن بخار الماء العالق في الجو، وبزيادة معدل الرطوبة في الهواء تزداد قابلية امتصاص المعروضات لكميات من هذا الماء العالق، وهذا ما يؤدي إلى تكون الفطريات التي تتغذى على مكونات المعروضات ما يسبب تآكلا في أجزاء هذه المعروضات. ومن هنا تصبح عملية التهوية أمرا ضروريا من خلال تجديد الهواء داخل المتحف، كما أن النقص الحاد في معدل الرطوبة في الهواء يسبب

جفاف المعروضات وبالتالي تلفها، وفي هذه المسألة يتوجب المراقبة الدائمة لمعدلات الرطوبة داخل المتحف، وذلك من خلال استعمال بعض الأجهزة التي خصصت لذلك الغرض مثل جهاز (Thermo-hygrographe enregistreur a band): وهو عبارة عن جهاز يقيس ويسجل معدلات الرطوبة النسبية وفي نفس الوقت يقيس درجة الحرارة. ويمكن أيضا استعمال مجفف (Déshumidification) وهذا الجهاز يقوم بتحويل الهواء الرطب إلى هواء جاف، أما في حالة النقص الشديد للرطوبة فيمكن استعمال مرطب (Humidificateur) وهو عبارة عن جهاز يعطي للمكان رطوبة على شكل بخار الماء.

ب- الحرارة:

يؤثر ارتفاع درجة الحرارة على المعروضات بشكل كبير حيث يسبب ذلك تفاعلات كيميائية تؤدي بدورها إلى تضرر وتلف المعروضات، وفي هذه الحالة يجب حفظ المعروضات في درجة حرارة مناسبة تقدر بين 16 و 24 درجة. ولمراقبة درجات الحرارة يمكن استعمال الجهاز الذي تم ذكره، واستعمال أيضا بعض المكيفات داخل قاعات العرض لضبط درجات الحرارة داخلها على النحو المطلوب.

ج- الإضاءة:

تعد من العوامل المؤثرة على التحف التي لها حساسية ضد الأشعة، خصوصا وأن المصابيح المستخدمة ذات إضاءة باللون الأصفر (Lampe Tungstène Halogène) ويمكن لأشعة هذه المصابيح أن تؤدي للتلف (الفوتو-كيميائي) (Détérioration photochimique) أي التدهور الضوئي للمجموعات المتحفية، وهذه المصابيح تسبب تغيرات كيميائية لعدد من المعروضات، وخاصة ذات التركيب العضوي مثل الحيوانات والنباتات، أو المعروضات التي تحتوي على منتجات حيوانية ونباتية ما يؤثر على نظارة ألوانها فتصبح بذلك باهتة الألوان. كما تظهر تغيرات في ألوان بعض العينات المصنوعة من الزجاج والمعدن والفخار، لدى يتوجب استعمال مصابيح مناسبة للعرض المتحفي، ويجب أيضا أخذ الاحتياطات اللازمة بعدم تعريض التحف خصوصا الحساسة منها للإضاءة المباشرة من خلال استخدام مرشحات لتخفيف الحرارة وشدة الأشعة الناجمة عن المصابيح.

د- الماء والغبار وأشعة الشمس:

تؤثر هذه العوامل منفردة أو مجتمعة على كثير من المعروضات خصوصا إذا علمنا أنه تتواجد بهذه المتاحف عدة أماكن لولوج هذه التأثيرات داخل المتحف من خلال ما تم ذكره فيما سلف كل هذه العوامل تؤدي إلى تشكل مواد كيميائية ذات تأثير سلبي على العينات خصوصا تلك التي تتكون من المواد العضوية، كما يشكل الغبار وحده خطرا على المعروضات مما يعرضها للتشقق والكسر والتلف. وفي هذا الصدد يجب الحد من ولوج كل هذه التأثيرات داخل المتحف من خلال إغلاق كل المنافذ التي تلج من خلالها، وكذا استعمال بعض الأجهزة خصوصا تلك التي تتخصص في شفط ونفض الغبار من على المعروضات.

2-2 العوامل البيولوجية:

تتمثل هذه العوامل في تواجد الحيوانات القارضة كالفئران والجرذان وكذا الحشرات مثل الخنافس والصراصير، فالحيوانات القارضة تشكل خطرا على المعروضات خصوصا ذات التركيب العضوي، ولحماية التحف من هذه الحيوانات يمكن استعمال المصايد والسموم للتخلص منها، كما يمكن استعمال المبيدات للتخلص من الحشرات، على أن لا تكون لهذه المبيدات أي ضرر على المعروضات أو العاملين بالمتحف أو الزوار، كما أن هناك حشرات أخرى مجهرية تشكل خطرا أكبر على المجموعات المتحفية، حيث تهاجم التحف المصنوعة من والخشب والصوف والجلد، ومن بين هذه الحشرات هناك (الخلمة) (Teigne) و (العثة) (Mite) وهما من فئة قشريات الجناح (Lépidoptères)، ومن طرق التخلص من هذه الحشرات نذكر:

أ- العزل:

من خلال إبعاد وعزل التحف أو المجموعات المصابة بالهجمات الحشرية عن باقي التحف من نفس القاعة، وذلك من أجل تفادي انتقال العدوى بينها، ويتم بعدها وضعها داخل أكياس بلاستيكية (Polyéthène).

ب- العلاج:

يبدأ العلاج باستعمال مكنسة كهربائية (Aspirateur) بهدف التخلص من الجزء الظاهر العالق على السطح في المرحلة الأولى، أما في المرحلة الثانية فيعتمد على الطريقتين الآتيتين للتخلص من الحشرات:

- وضع التحف في ثلاجة (Freezer) من أجل تجميدها، فمن شأن هذه العملية القضاء على الحشرات.
- إزالة الأوكسجين (Désoxygénation) وهي عبارة عن عملية إخراج الهواء والأوكسجين المتواجد داخل الكيس الذي يحتوي على التحفة، وذلك باستعمال أجهزة خاصة بهذه العملية، ومن أجل نجاح العملية والقضاء على الحشرات العالقة في التحفة يجب خفض نسبة الأوكسجين في الكيس إلى أقل من خمسة بالمائة وغلقه بإحكام حتى تموت الحشرات خنقا.

3-2 العوامل البشرية:

تتمثل هذه العوامل في الأشخاص الذين يتعاملون مع التحف لغرض البحث والدراسة، حيث يجب التعامل معها برفق وحذر كبيرين، وعدم إلحاق الضرر بها أثناء دراستها. إضافة إلى الضرر الذي يمكن أن يلحق بها من طرف الزوار، والذين بين الفينة والأخرى يمكن أن يمدوا أيديهم إليها للمسها وتفقدها عن قرب فكثرة هذه السلوكات تجلب ضررا كبير للتحف، ويمكن أيضا أن تطالها أيادي السرقة والنهب، وفي هذه الحالة يجب تركيب كامرات مراقبة بداخل وخارج المتحف، ويجب أيضا تعيين حارس يسهر على حماية المتحف وما فيه من معروضات.

ومن الخطوات التي تصب في عملية حفظ معروضات المتاحف، هي تأمينه من خطر الحرائق، وذلك من خلال القيام بصيانة كهربائية تطال جل ردهات المتحف، إضافة إلى توفير طفايات للحرائق (Extincteurs) في مختلف أرجاء المتحف.

3- الترميم (Restauration):

يعد الترميم من أهم الأمور التي تحتاجها المتاحف الاثنوغرافية أو الخاصة، فبعض من أجزاء البناية يحتاج إلى ترميم، خصوصا الأجزاء القديمة الغير المستغلة، والذي يزيد عمره عن 300 سنة، وهو في الوقت الراهن في حالة جد متدهورة، وتصارع الزمن وعوامل الطبيعة المختلفة لكي تبقى قائمة إلا أن ذلك الأمر لن يدوم إن لم يكن هناك تدخلات لإنقاذها من خلال القيام بعمليات الترميم. إن هذه الأجزاء تم بنائها بالطريقة التقليدية والمتمثلة في طريقة (اللوح) أو (التابوت)، ولا يمكن ترميمه إلا بنفس الطريقة وباستعمال نفس المواد التي استخدمت في بنائه لأول مرة والمتمثلة في الطين والتبن وجذوع النخيل المستعمل في الأسقف مع جعله أكثر قوة وتأقلما مع العوامل الطبيعية والمناخية بالواحات. إن ترميم هذه الأجزاء ستساعد على توفير أمكنة ذات مساحة كبيرة للعرض المتحفي، وهو حل آخر لمشكلة التكديس والاكتضاض والازدحام الذي تعرفها بفعل تواجد عدد هائل من التحف المعروضة.

أما فيما يخص الأجزاء المستغلة حاليا فهي الأخرى تحتاج إلى ترميم، فبالرغم من محاولات القائمين على المتحف للترميم إلا أنها تبقى محاولات بسيطة تغيب عنها قواعد الترميم المتعارف عليها بين المرممين ذوي الاختصاص، فجدران البناية تتخللها تشققات، والأسقف في بعض الأماكن توشك على أن تقع بفعل عوامل الطبيعة من أمطار ورياح ما يشكل خطرا حقيقيا على المعروضات. كما يجب تهييئ أرضية المتاحف، فالأرضية الموجودة حاليا لا تساعد على العرض المتحفي، ففي بعض الأماكن نجد أرضيات إسمنتية وفي بعضها الآخر تكون ترابية إضافة إلى تواجد البلاط في قاعة واحدة، وفي هذه النقطة يجب تبليط أرضية المتحف ببلاط يلاءم العرض المتحفي فيه، كما أن ذلك سيكون إحدى الحلول للحد من الغبار الذي يعم المكان. كما يجب إعادة النظر في تواجد بعض الأجزاء من البناية المفتوحة على السماء وعلى المؤثرات الخارجية من أمطار ورياح وأشعة الشمس والتي لها تأثيرات سلبية على التحف، فهنا يجب إغلاق جميع المنافذ التي تأتي منها هذه المؤثرات، كما يتحتم على القيمين على المتاحف تهيئ المجال الخارجي للمتحف من خلال ترميم الواجهات الخارجية للبناية، وتهيئ الطرق المؤدية للمتحف مع وضع لوحات تشويرية تسهل على الزوار معرفة مكان تواجده.

4- الجرد (Inventaire):

يتوجب على أصحاب المتاحف القيام بجرد شامل لكل التحف التي يتوفرون عليها، ومن شأن هذا الجرد جعل أصحاب المتحف على علم بعدد ومحتوى التحف التي يمتلكونها وبالتالي معرفة النقائص من التحف التي يحتاجها المتحف ويستوجب الحصول عليها لإغناء المجموعات المتحفية. كما أن الجرد يساعد على معرفة أي اختفاء مفاجئ لإحدى التحف وذلك لسبب من الأسباب المختلفة، وبالتالي فعملية الجرد أمر في غاية الضرورة، وخاصة أن الفصل 32 من قانون رقم 05 - 19 المتمم لقانون رقم 80 - 22 يؤكد على وجوب قيام ملاك مختلف المتاحف بجرد شامل لما يتوفرون عليه من تحف كما سبق الإشارة إلى ذلك سلفا.

5- العرض (Exposition):

تتسم طرق العرض في بعض المتاحف المدروسة بالعشوائية وعدم التنظيم، كما تعرف تكرار عرض نفس التحف، وهنا يتوجب الاكتفاء بعرض نموذج واحد عن كل صنف خصوصا تلك المتشابهة فيما بينها، مع القيام بتخزين الأصناف الأخرى وذلك وفق طرق التخزين المتعارف عليها حسب علم المتاحف، وفي ظروف تستجيب لسلامة التحف من أي ضرر قد يلحقها، وذلك من خلال استعمال خزانات مخصصة للحفظ مع ضرورة احترام ترتيب وضع التحف في الخزانات فالتحف الثقيلة توضع في الأسفل أما التحف الخفيفة الوزن فتوضع في الأعلى، وكذا عدم وضع التحف بعضها فوق البعض، وهذا فيما يخص التحف المخزنة. أما بالنسبة لتلك التي سيتم عرضها فيجب عرضها وفق الطرق المتبعة في أغلب المتاحف، من خلال استعمال الخزانات الزجاجية مع توفير إضاءة مناسبة للعرض المتحفي، أما بخصوص التحف التي لا تتناسب مع الخزانات الزجاجية فيجب توفير سنادات ودعامات وقواعد لها، خصوصا وأن التحف تكون إما معروضة على الأرضية أو معلقة على الجدران أو موضوعة على بعض الطاولات والصناديق الخشبية الأمر الذي يجعلها معرضة للضرر والتلف، دون نسيان إتباع طرق العرض المتحفي من خلال طريقتين؛ العرض وفق النظام التاريخي أو التسلسل الزمني، والعرض حسب مادة الصنع ووظيفة التحفة.

المحور السادس:الآفاق المستقبلية للمتاحف الاثنوغرافية بالجنوب المغربي:

1- دور السلطات والمجتمع المدني:

1-1 دور المجالس القروية:

يتسم عموما دور الجماعات الترابية بالجمود وعدم الفاعلية في الشأن التراثي خلال السنوات الماضية، نظرا لعدة أسباب نجملها في قلة الموارد المادية للجماعات المحلية وكذا غياب التواصل الفعال مع جمعيات المجتمع المدني ذات الشأن التراثي، وهي في أمس الحاجة للمشاريع الثقافية التي تصب في هذا الموضوع خصوصا كل ما يتعلق بترميم وتأهيل بعض المعالم والمواقع الأثرية بهذه الواحات ورد الاعتبار لها.

وكذا تأهيل بعض المواقع الأثرية والتي تحتوي على مواقع الفن الصخري ومواقع أخرى جيولوجية من خلال إنشاء منتزهات ومحافظات لها. وهنا يتداخل دور الجماعة مع وزارة الثقافة الجهة الوصية على الشأن التراثي بالمغرب. إضافة إلى دعم وتمويل بعض المبادرات التي تسعى لحفظ التراث المنقول أو الاثنوغرافي لواحات الجنوب المغربي.

2-1 دور وزارة الثقافة والمؤسسة الوطنية للمتاحف:

بناء على ما سبق يتضح إن المتاحف الاثنوغرافية الخاصة لا تحظى باهتمام ودعم من قبل وزارة الثقافة، وكثير من هذه المتاحف تسير نفسها بنفسها وفق الوسائل البسيطة المتوفرة لديها، بالرغم من كونها لا تقل أهمية عن المتاحف العامة، بل منها ما يفوقها أهمية سواء من حيث عدد المجموعات المتحفية أو من خلال قيمتها. مع العلم أن أهم المتاحف بالمغرب تتواجد بالشمال المغربي والتي تلقى كل الدعم، بعكس الجنوب المغربي الذي تغلب عليه المتاحف الخاصة بالرغم من كون المقتنيات التي تنحدر من الجنوب المغربي تزين بها ردهات أغلب متاحف الشمال.

في هذا الصدد يجب أن تكون لوزارة الثقافة دورا أكثر فاعلية من أجل درء هذا الاختلال الحاصل في الموازين، من خلال تقديم الدعم المادي

واللوجستيكي للمتاحف الاثنوغرافية بالجنوب المغربي، وكذا العمل على تأطير وتكوين ملاكين هذه المتاحف في مجال علم المتاحف وأدبيات مهنة التحافة، وإدماجها في الخارطة الثقافية والتراثية للبلاد.

3-1 دور المجتمع المدني:

يمثل المجتمع المدني عنصرا أساسا في المنظومة التنموية الثقافية ببلادنا وبواحات الجنوب المغربي خصوصا، بحيث يشكل القلب النابض لمختلف الأنشطة التنموية والجمعوية، حيث تتواجد بهذه الواحات المدروسة أكثر من 100 جمعية ثقافية وتراثية.

بالرغم من تواجد النسيج الجمعوي بهذه الواحات فإن مجال تدخلها فيما يخص المجال التراثي يبقى ضعيفا ولا يساير التطلعات والمستقبل، فمختلف الجمعيات المهتمة بالشأن التراثي والثقافي قليل جدا مقارنة مع ما تزخر به الواحات المدروسة من شواهد تراثية، خصوصا ما يتعلق بالتراث المتحفي الاثنوغرافي، إلا أن الأمر لم يمنع من وجود بعض الجمعيات التي لها الاهتمام بهذا الشأن[1].

خلاصة:

مرت المتاحف بعدد من مراحل التطور لتصبح على الشكل الذي نراه عليها اليوم، وكان لعلم المتاحف الدور الأبرز في جعلها مؤسسات أكثر تنظيما تعتمد قواعد وأسس علمية. لكي تصبح اليوم مؤسسات تربوية وتعليمية لا تقل أهمية عن المعاهد والمدارس والجامعات، وأداة لحفظ التراث الثقافي والطبيعي وحمايته، فتنوعت المتاحف بتنوع مناحي الحياة واهتمامات الإنسان الذي سعى إلى الحفاظ على آثارها وتجلياتها.

عرفت المتاحف في بلادنا تطورا كبيرا وأصبحت تستقطب جمهورا عريضا سواء المتاحف العامة أو المتاحف الخاصة، وتنقسم هذه المتاحف إلى ثلاثة أنواع وهي: المتاحف الأركيولوجية، والمتاحف المتخصصة، والمتاحف الاثنوغرافية. ويعتبر هذا النوع الأخير النمط السائد في مناطق الجنوب المغربي وخصوصا في الواحات، وجلها ينتمي إلى صنف المتاحف الخاصة، وتظل هذه المتاحف معزولة تحتاج إلى التعريف بها وتثمينها ورد الاعتبار إليها لما تحتويه من مجموعات متحفية غنية وغاية في الأهمية، وذلك لما لها من دور أساسي في حفظ الذاكرة الجماعية لمناطق الجنوب المغربي.

وفي الأخير يبقى التحدي الرئيسي والمشكل الذي تعاني منه المتاحف الخاصة، هو غياب الدعم المادي خصوصا ذلك الذي يمكن أن يقدم من طرف وزارة الثقافة، الأمر الذي يقف عائقا أمام تحقيق المشاريع المستقبلية، والتي من شأنها أن تطور العرض المتحفي داخل هذه المتاحف، إضافة إلى غياب التكوين المتحفي للقائمين على المتاحف الخاصة.

[1]- هناك العديد من الجمعيات المهتمة بالمتاحف المدروسة، ونورد على سبيل المثال: جمعية متحف تايوكا للسياحة والمحافظة على التراث بواحة تغجيجت اقليم كلميم.

البيلوغرافيا:

باللغة العربية:

1- بشير زهدي، **المتاحف**، وزارة الثقافة دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1977.

2- رفعت محمد موسى، **مدخل إلى فن المتاحف**، الدار المصرية اللبنانية، 2002.

3- أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، المجلد الأول، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، 2008.

4- شوقي شعت، **المتاحف في دول العالم الإسلامي (النشأة والتطور)**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، 2011.

5- عفيف البهنسي، **علم المتاحف والمعارض**، الطبعة الأولى، دار الشرق للنشر، دمشق، 2004.

6- عياد موسى العوامي، **مقدمة في علم المتاحف**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، 1987.

7- درويش مصطفى الفار، **سطور في تاريخ المتاحف**، متحف قطر الوطني، دار الكتب القطرية، 2005.

8- قاسم إبراهيم نصحي، **تاريخ الرومان**، ج2، الجهاز المركزي للكتب، القاهرة، 1987.

9- مازن رسمي راتب عبد اللطيف، **المتاحف الأثرية بالأردن**، دراسة تحليلية، دراسات عليا، قسم الآثار، الجامعة الأردنية، 1993.

10- عزت زكي حامد قدوس، **تاريخ عام للفنون**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2001.

علم الحفائر وفن المتاحف، الإسكندرية، 2003.

11- عبد الفتاح مصطفى غنيمة، **المتاحف والمعرض والقصور**، سلسلة المعرفة الحضارية، جامعة المنوفية، مصر، 1990.

12- أيمن محمد عاصم أحمد إسماعيل، **إدراك الفكر التصميمي للاتجاهات المعاصرة في عمارة المتاحف**، رسالة الماجستير في الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة عين شمس، القاهرة، 2007.

13- الوافي نوحي، «**دور المتاحف الخاصة في الحفاظ على التراث (متحف الشيخ عمر بأقا نموذجا**»، التراث والمتاحف بالمغرب، أعمال الندوة التي نظمها مركز الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية، مراكش، 24-25 شتنبر، 2004، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف، الرباط، 2007

باللغة الفرنسية:

14- André Gob et Noémie Drouguet, **La muséologie: Histoire, Développement, Enjeux actuels**, Armand colin, 3éme édition, Paris, 2010.

15- André Desvallées et François Mairesse, **Dictionnaire encyclopédique de muséologie**, Armand Colin, Paris, 2011.

- **Concepts clés de muséologie**, Armand Colin, Paris, 2010.
- **Dictionnaire encyclopédique de muséologie**, Armand Colin, Paris, 2011.

14- Marie Odile et Jean-Michel Tobelem, **Manuel de muséologie**, Biarritz, 1998.

15- Anne Edos, **La muséologie sujet d'exposition la conservation des collections exposées un musée national de Papouasie-Nouvelle Guinée**, Museum, Vol 16, N°4, UNISCO, Paris, 1977

منهج الكتابة التاريخية في رحلة أبو القاسم الزياني المسماة "الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا"

ياسين خرشوفة
باحث في التاريخ

التاريخ فن نبيل ومفيد إذا تجاوز مجرد سرد الأخبار وسير الملوك والأعيان أحوال والجند إلى التفكيك والتركيب وبسط أحوال الاجتماع البشري، ذلك أن التاريخ "نظر وتحقيق وتعليق للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق"1.

وإذا كانت قاعدة المنهج المعاصر تقول أن التاريخ في اصطلاح العلماء معناه تدوين الحقائق كما هي وليس معناه تدوين أفكار ونظريات المؤرخ، فإن الزياني قد جمع بين النقد والتحليل ونقل الحقائق، ولذلك يمكن القول بكثير من الاطمئنان العلمي أن الزياني العلامة المؤرخ ينتمي إلى طينة المؤرخين المبدعين الذين تجاوزوا طريقة التأريخ التقليدي في اتجاه منهج تاريخي يجمع بين التاريخ والجغرافية وعلم العمران، مع اهتمام مبكر بعنصري الاجتماع والثقافة كجزء أساسي في الكتابة التاريخية، وهذا ما دفعنا إلى تخصيص هذه الفقرات المركزة على منهج الكتابة التاريخية عند الزياني.

إن كل مطلع على إنتاج مؤرخ الدولة العلوية أو ذي الوزارتين أبو القاسم الزياني يدرك أنه مؤرخ من طينة خاصة، فهو لم يكن يعرف من التاريخ سرد الأحداث السياسية فقط، بل كان يعتبر -بمنطق فلسفة التاريخ- الظواهر الاجتماعية التي تبدو في أفق المجتمع والعمران، ولقد كان له أثر بالغ في تدوين تاريخ المغرب بنفس نقدي احترافي، ساعده في ذلك تجوله في الآفاق وإدراكه لضرورة التناول الشامل للتاريخ ضمن مايسمى "تاريخ العالم"، أضف إلى هذا أن التاريخ كتبه الزياني مقرونا بجغرافية الأحداث التي أرخ لها، وقد استفاد من كتب التاريخ المرجعية التي كانت متداولة في عصره، كما يتبين من مؤلفاته خصوصا الترجمانة مثل البيروني، والبكري والشريف الإدريسي ومحمد الزهري، والموصلي، ومحمد المازني، وأبي الفداء إسماعيل صاحب "المختصر في أخبار البشر" واستفاد الزياني كذلك من رحلة ابن بطوطة الذي وجه له الزياني نقدا عنيفا، تبعا لما استفاده من بعض الهنود بالحرمين أيام حجته الأخيرة، واستفاد أيضا من السفير ابن عثمان

معاصره وزميله وهو صاحب رحلة "الإحراز المعلي الرقيب".

وكل هذا يعتبر من أسس الكتابة التاريخية عند المؤرخين الكبار، مع إضافة ما غاب عن السابقين، أو جدَّ ما بعدهم أو تغير، و على هذا يكون قد وصل الحاضر بالماضي، و عليه فقد أمدنا الزياني بمعلومات متسلسلة عن تاريخ العالم و المغرب بشكل خاص، كما عرفنا بأسماء كتب ومؤلفين لم نعرفهم إلا من خلال ما سجله فحفظ لنا على الأقل أسماء هؤلاء المؤلفين ومؤلفاتهم وشيء مما حوته تلك المؤلفات.

ولا نجانب الصواب إذا قلنا أنه يمكننا استخراج معجم جغرافي للأماكن التي ذكرها و مر منها، فسجل أسماءها و أوصافها مع إلقاء الضوء على تاريخها.

لذلك فإن أهمية رحلة الزياني الترجمانة الكبرى تكمن في أنها خزانة كتب ضخمة في معلوماتها، لا يعرف ما فيها إلا بعد التنقيب والبحث لإخراج النفائس التي تضمنتها.

ومما أفاده الزياني من رحلة البكري حيث استعان بها كثيرا في وصف درب الحجيج من مصر إلى مكة المكرمة، يقول: "هذا خبر سفرنا في البحر لجدة، و أما سفرنا في درب الحجاز فلا بد من ذكرنا منازله واحدة واحدة، و ما لقينا به، و كان تقدم لنا السفر به عام سبعين و مائة و ألف، في حجتنا الأولى و كنت به بصيرا و كنت صحبت معي رحلة الإمام أبي عبيد الله البكري، أطالع بها منازله و أقيدها، و ما وافق منها منازلها أبقيته، و ما اختلف منها نبهت عليه و كتبته، و ذكرت جميع ما وصف به تلك المنازل من الأشعار و الأسجاع التي رونقتها و حسنتها، و نبهت على ما حسن منها وما قبح، و جدب كل منزل وخصبه وذكر مياهه حلوة ومرة، و التنبيه على أماكن وجوده و عدمه فكنت على بصيرة فيما نحن متوجهون له، كالمشاهد له، مستعد لكل ما يستقبلنا من عوارض السفر إلا ما ينزل من سماء الغيب من القدر، ففلا ينفع منه حذر"2، و كذلك من رحلة العياشي الشيء الكثير، وكان ينقل من كتب التاريخ العام مثل كتاب "الذهب المسبوك في عدل عظماء الملوك" وكذلك كتاب "تأليف الروح" لكمال الدين باشا.

فهذه كلها تعتبر من المناهج المهمة التي سار عليها الزياني في فن الكتابة التاريخية لرحلته، فهي بمثابة التوثيق للأمر الذي تكلم عنه، و الجدير بالذكر هو تحليه بالأمانة العلمية في أغلب نقولاته و يصرح باسم من ينقل عنه من بداية النقل و عند انتهائه بكلمة "انتهى" حتى لا يلتبس الأمر على القارئ.

و تجدر الإشارة إلى أن الزياني اعتمد كذلك على المقارنة والنقد قيلت له أو مواضع شاهدها و قارنها بغيرها و نقدها، حيث نقد ابن بطوطة و كذلك ابن خلدون وغيرهم.

ولم تكن مصادر الزياني فقط الكتب، بل أيضا عبارة عن مشاهدات و معاينات ومشافهات و استفسارات، فكان بمثابة العين الحساسة اللاصقة، فعندما كان في الإسطنبول التقى بعلماء هناك، وفي مصر كذلك و الحجاز، حيث التقى في مصر بعبد الرحمان الجبرتي المؤرخ المشهور، وكذلك العلامة محمد المسيري و غيرهم، و في الحجاز كذلك نفس الشيء التقى بعلماء على ما سيأتي ذكره في الفصول اللاحقة.

ألف الزياني كتابه الترجمانة و أهداه للسلطان المولى سليمان عرفانا بالجميل وتقديرا لابن السلطان محمد ابن عبد الله الذي فتح له أبواب الألف والعطاء، وتحدث الزياني باستفاضة كبيرة عن دول أوربا وعن عواصمها وعلاقتها بالمغرب -ضمن فلسفة التاريخ العالمي- وساق أخبار الدول الإسلامية بطريقة أصيلة تستدعي أدوات علم العمران بدل الاقتصار على الوصف و السرد، كما تحدث عن التاريخ القديم لبعض الدول الأوربية، وهو المؤرخ الوحيد الذي يمكن أن يقال أنه يتحدث عن تاريخ أوربا الحديث في عصره دون مبالغة، و كان بعيدا عن التهويل و الغرائبية والخرافات -إلا قليلا مما نقله عن غيره- التي حفلت بها كثيرا من كتب التاريخ، كما رسم صورة عن الحالة السياسية في أوربا و المشرق الإسلامي و الأستانة، قال أبو القاسم الزياني

في الترجمانة: "إنما رسمت فيها ما شاهدته في الأقاليم التي بلغتها، و غيرها نقلته من رحلة العياشي ومحاضرة اليوسي، و رحلة البلوي... و أخبار الهند و السند و الصين من تاريخ الإسلام للذهبي، و من تواريخ لبعض علماء الهند اجتمعت بهم بالحرم الشريف و بمكة، و كنت أسرد عليهم ابن بطوطة فأنكروا كثيرا لما فيها من اخبار ملوكهم"3.

لم تكن المدة التي قضاها أبو القاسم الزياني منعزلا في بيته، أقل إنتاجا من تلك التي قضاها بجانب المولى محمد بن عبد الله و المولى سليمان بل كانت مدة انعزاله أكثر غزارة وفائدة من الناحية العلمية والإنسانية من الناحية العلمية و الإنسانية فمن سنة 1809م-1223ه إلى 1834م-1249ه أي مدة ربع قرن أنتج الزياني كتبا عديدة نذكر منها:

- **الترجمان المعرب عن دول المشرق و المغرب**
- **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا و بحرا**
- **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**
- **الدرة الفائقة في الرد على أهل البدع و الزنادقة**
- **الحادي المطرب في رفع نسل شرفاء المغرب**
- **درة السلوك فيما يجب على الملوك**، و هو مبحث في السياسة الشرعية و الأحكام السلطانية
- **رحلة الحذاق لمشاهد الآفاق** و هو كتاب نفيس في الجغرافية.

و قد جمع فهرسة بشأن أشياخ المولى سليمان سماها: الياقوت و اللؤلؤ المرجان في ذكر الملوك و أشياخ المولى سليمان، قال محمد بن عبد الكتاني في فهرس الفهارس متحدثا عن هذه الفهرسة المفيدة، " جمهرة التيجان و فهرسة الياقوت و المرجان في الملوك العلويين وأشياخ مولانا سليمان للمؤرخ الرحال الأديب الكاتب الجماع المعمر وزير الدولة المغربية و سفيرها أبي القاسم بن أحمد الزياني الفاسي، وقفت على تحلية بخط تلميذه ابن رحمون ب"العلامة المؤرخ الصدر المشارك سيدي بلقاسم بن الخير الناسك، السيد الحاج أحمد بن علي بن إبراهيم الصياني"، و حلاه عصرية المسند محمد بن محمد الصادق بن رسيون أول فهرسته ب"الفقيه العلامة التحرير الفهامة الكاتب البارع الجامع المانع المشتغل بما ينفعه دنيا و أخرى، و ملكته عليه قاصرة من نشر العلم وتأليفه و تدوينه على أسلوب حسن اصطلاح مستحسن، لم يسبق إليه و لم يعرج من قبله عليه، فتآليفه كلها حسنة رفيعة نفيسة بديعة، يستحسنها كل من رآها و يغتبط بها كل من يقرأها، و ذلك دليل على سعادته و حسن نيته و جميل طويته، الشيخ الأشهر و العلم الأطهر الضابط للألفاظ المحقق للمعاني، سيدي أبو القاسم قاسم بن أحمد الزياني"، وهي فهرسة عجيبة على نسق بديع وتحبير غريب في عدة كراريس، و قد اختصرها تلميذه المذكور المسند ابن رحمون"4.

إذن فالكتابة في علم التاريخ و الأخبار و الأحداث الجارية وهي كما نعلم فنون عقلية أكثر منها نقلية، فقد استهجنت في هذا الوسط وصودرت مصنفاتها إلى خارج المغرب واستبعدت رجالاتها في عهد السلطان محمد بن عبد الله كما أشار الزياني في الترجمانة، ثم من هذا الذي يجرؤ في مناخ حكم سلطاني طرق القضايا التاريخية و الحوادث السياسية الحساسة علنا و هي من المحظورات فبالأحرى تلك التي تتعلق بخبايا النظام السياسي القائم؟ فهذا أبو عبد الله محمد أكنسوس ذلك الفقيه الذي استوزره السلطان سليمان بن محمد عام 1236ه-1820م لفترة قصيرة قبل ان يطرده بلا رجعة عندما كتب مصنفه الجيش العرمرم للسلطان عبد الرحمان بن هشام أكثر من شتم أبي القاسم و القدح في بستانه رغم أنه اعتمد عليه في كل ما كتب عن السلطانين محمد بن عبد الله و سليمان بن محمد، فقال عن الكتاب كما سبقت الإشارة في تقديمه لمصنفه ما يشتم منه الحسد والتملق لحاشية السلطان الجديد، و قال أيضا في نفس المؤلف عند استرجاع حادثة جرت في دولة سليمان بن محمد حكاها أبو القاسم الزياني ما يفيد بافتقاده هو و جيله من كتاب الدواوين للبعد النقدي و التحرر في الكتابة التاريخية، لذا فالزياني كان بعيدا عن التملق و التزلف للسلطة الحاكمة و متحررا في كتاباته.

و خلاصة القول فإن الزياني في الترجمانة و مؤلفاته هي موسوعة أدبية و تاريخية وجغرافية و عقائدية و فكرية شاملة جامعة لمعارف عصرها و العصور السابقة، و استطاع أن يتحرر من ربقة التزلف و التملق، اعتمد على النقد و الحقيقة و التحليل، فهو مؤرخ صادق، لم يكتب مؤلفاته لمصلحة ذاتية أو لغاية دنيوية بقدر ما كان لنشر ثقافة العلم و إفادة أمته، و كما يقول عبد الكريم الفيلالي في مقدمة الترجمانة "لم يكن يعنيه من التاريخ غير قول الحق و تدوينه مهما كان مرا و جارحا، و مهما جر عليه من أذى مرضي النفوس و خفافيش الظلام الذين يعكرون الصفو في كل زمان"، فهو الرجل المثقف العالم استطاع أن يكسر ذلك الجمود و التقليد الذي كان قبل القرن الثالث عشر الهجري الذي يسيطر عليه أهل الفقه و الحديث و النحو بمتونهم ومختصراتهم، فهو شق طريق غير طريقهم ليكتب في علم التاريخ بمفهومه العقلي و النقلي والنقدي.

-الهوامش:

1- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة،، دار القلم، بيروت، طبعة 6، 1986، ص24

2- الترجمانة، م.س، ص216

3- الترجمانة، م.س، ص581

4- الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس و الأثبات و معجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات الإسلامي، بيروت، 1982، ص313

مجلة ليكسوس
ⵜⴰⵏⵎⵍⵉⵍⵜ ⵏ ⵜⵓⵖⵔⵉⵙⵜ

-المدير المسؤول:
محمد أبيهي
-الهيئة العلمية:
دة.خذيجة الراجي
د.خالد الصقلي
د.مصطفى المرون
د.محمد أبيهي
د.مصطفى الريس
د.خالد اقعسو
د.عبد الرزاق السعيدي

المقالات المنشورة بالمجلة تعبر عن آراء أصحابها